أنطونيو مونيوز مولينا



الشتاء في ليشبونة

نوفل

أنطونيو مونيوز مولينا

الشتاء في ليشبونة

نقلته عن الإسبانية ندى شديد زياده
دقّق فيه الدكتور سهيل سليمان

نوفل

الشتاء في ليشبونة

Édición original : mayo 1987
Título : El invierno en Lisboa
Autor : Antonio Muñoz Molina

تمّ دعم ترجمة هذا الكتاب ونشره من قبل المديرية العامّة للكتاب والأرشيف والمكتبات في وزارة الثقافة الإسبانية.

الطبعة العربيّة:
العنوان: الشتاء في ليشبونة *Ash-shitā' fī Lishbūnah*
المؤلّف: أنطونيو مونيوز مولينا
الناشر: مؤسّسة نوفل Naufal

ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
العنوان التجاري: سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
البريد الإلكتروني: naufal@hachette-antoine.com
الطبعة الأولى: 2010
ر.د.م.ك.: 978-9953-26-173-7

صورة الغلاف: جان-فرانسوا بومار، باريو شينو، برشلونة، 1987
© جان-فرانسوا بومار Jean-François Baumard
التصميم الفنّي: لينا مسلّم
التحرير: سمر أبو زيد

إلى أندريس سوريا أولميدو
وغوادالوبّه رويز

«هناك لحظة، أثناء الانفصال،
لا يعود فيها الشخص المحبوب معنا.»

فلوبير، «التربية العاطفية»، ترجمة ايلي مارون خليل،
منشورات عويدات، 1983.

الفصل الأوّل

كان قد انقضى حوالى السَّنَتين منذ أن رأيتُ سانتياغو بيرالبو آخر مرّة. لكنْ عندما التقيتُه عند منتصَفِ الليل في بار المتروبوليتانو، افتقرَ سلامُنا إلى الوقار كما لو كنّا قد شرِبنا معًا في الليلة السابقة، لا في مدريد، بل في سان سيباستيان، في حانة فلورو بلوم، حيث عزفَ مدّة طويلة.

كان يعزف حينها برفقة عازفِ كونترباص أسْود، وعازفِ درامزْ فرنسيٍّ عصبيّ جدًّا وفتيٍّ جدًّا، ذي هيئة شماليّة، ينادونه بابي. اسم الفرقة الموسيقيّة جياكومو دولفين تريّو. كنتُ حينها أجهلُ أنّ بيرالبو غيّرَ اسمَه؛ فجياكومو دولفين لم يكن اسمًا مستعارًا رنّانًا اختارَه بصِفتِه عازفَ بيانو، بل كان الاسمَ المدوّن أيضًا على جواز سفرِه. حتّى قبلَ أن أراه، عرفتُه إلى حدٍّ ما من طريقة عزفِه على البيانو. فهو يعزف كما لو أنّه لا يبذُلُ أيَّ جهدٍ، وكأنّ ما يعزفهُ أمرٌ لا يَعنيه. جلستُ إلى البار مديرًا ظَهري إلى العازفين، وعندما تناهتْ إلى مسمعي نغماتُ أغنية لم أستطع تذكُّرَ عنوانها، توجَّستُ فجأة شيئًا ربّما هو نفس الشعور المجرّد بالماضي الذي غالبًا ما أوحَت إليّ به الموسيقى. وعندما استدَرتُ لم أكن مدرِكًا بعد أنّ ما كنت أتعرّفه كان ليلةً ضائعة في الليدي بيردْ، في سان سيباستيان، حيثُ لم أكن قد عدتُ منذ زمن بعيد. بالكدِّ كان صوتُ البيانو مسموعًا، وقد غلب عليه عزفُ الكونترباص والدرامزْ. عندها، وأنا أتفحّص

من غير هدف وجوهَ الشرّيبة والموسيقيّين غير الواضحةِ من خلال الدخان، رأيتُ جانبًا من وجهِ بيرالبو – وهو يعزف – وعيناه نصف مفتوحتَين، والسيجارة في فمِه.

عرفتهُ فورًا، لكنْ لا أستطيع القول إنّه لم يتغيّر. ربّما كانَ قد تغيّر بطريقة متوقّعة جدًّا. كان يرتدي قميصًا قاتمَ اللون، وربطة عنق سوداءَ، وقد أضاف الزمنُ إلى وجهِه أماراتِ الوَقار. أدركتُ لاحقًا أنّي لاحظتُ فيه دائمًا هذه الصفة المألوفة لدى الّذين يعيشون – ولو في غير وعي منهم – وفقًا للمصير الّذي رُسم لهم على الأرجح وهم في سنِّ المراهقة. بعد عمرِ الثلاثين، عندما يَتَّجِهُ الجميع نحو انحطاطٍ مخجلٍ أكثرَ من الشيخوخة، تراهم يتمسّكون بصِبا غريب، ملتهب وهادئ معًا، وبنوع من الجرأة الهادئة والحذرة. كانت نظرة بيرالبو هي التغيُّر الأوضح الّذي لاحظتُه فيه تلك الليلة، تلك النظرةُ الصارمة من اللامُبالاة أو السُّخرية، كانت نظرة مراهقٍ صقلتْه المعرفة. ففهمتُ أنّه لأجلِ ذلك كان من العسير إدامةُ النظر إليها.

خلالَ أكثرَ من نصفِ ساعة، شربتُ الجِعَة السوداء المثلّجة وأنا أراقبُه. عزفَ من غير أن ينحني على لوحة المفاتيح، رافعًا رأسَه، كي لا يدخل دخانُ السيجارةِ في عينَيه. عزفَ وهو ينظر إلى الجمهور، ويُشير إلى العازفين معه بعلامات تواطؤ سريعة ويداه تتحرّكان بسرعة بدتْ خالية من كلّ سابقِ تصوُّر وتصميم، أو من أيِّ تِقْنيّة، وكأنّها تطيع فقط صدفةً كانت تنتظم تلقائيًّا بعد ثانية، لتشكّل في جوّ الموسيقى لحنًا يضاهي الشكل اللولبيَّ الأزرق الّذي يرسمه دخانُ

السيجارة.

وعلى أيّ حال، بَدا بيرالبو غير معنيّ بكلّ هذا. لاحظتُه ينظر كثيرًا إلى نادلةٍ شقراءَ ترتدي بِزّةً، وهي تخدم رُوّاد الطاولات، ويتبادل معها بسمةً في إحدى اللحظات. ناداها بالإشارة، فأتت بعد وقت قصير بكأس من الويسكي، وضعتْها على غطاء البيانو. كانت طريقة عزفِه قد تغيّرت أيضًا مع الوقت. لا أفهمُ الكثير في الموسيقى، ولم أُعِرْها تقريبًا قطُّ الكثير من الاهتمام، إنّما اكتشفتُ – مع شيءٍ من الانشراح عندما كنت أسمع بيرالبو في الليدي بيرد – أن بإمكان الموسيقى ألّا تكون غير مقروءة، وأن تحتوي على قصص. في تلك الليلة، وأنا أسمعُه في الميتروبوليتانو، لاحظتُ بطريقة ضبابيّة أنّ بيرالبو يعزف أفضل ممّا كان يعزف منذ سنتين. ولكنْ بعد مشاهدتِه لدقائق معدودة، لم أعد أسمع البيانو كي أَهتمّ بالتّغييرات الّتي طرأت على أدنى حركاته: أنّه يعزف وهو متأهِّب، مثلاً، وليس منحنيًا فوق لوحة المفاتيح، وأنّه – أحيانًا – يعزف بيَده اليسرى فقط، كي يتناول بالأُخرى كأسه أو يضعَ سيجارته في المنفضة. رأيتُ أيضًا ابتسامته – لا الّتي كانَ يتبادلها مع النادلة الشقراء، بل ابتسامته لعازفِ الكونترباص، أو لنفسِه، بسعادة مفاجئة تتجاهل العالم، كما يمكن أن يبتسم أعمى وهو واثقٌ أنْ لا أحد سيستقصي عن سبب فرحتِه، أو سيشاركه إيّاها. وأنا أنظرُ إلى عازف الكونترباص، فكّرت أنّ هذه الطريقة في الابتسام مألوفة أكثر لدى السّود، وهي مفعَمة بالتحدّي والكِبرياء. كان الإفراطُ في الوحدة وفي احتساء الجعة المثلّجة يجعلني

عُرضةً لتهيّؤاتِ أحكام اعتباطيّة. فكّرت أيضًا أنّ عازفَ الدرامزْ الشمالي، الغارقَ في التأمّل، ينتمي إلى جنسٍ آخرَ، وأنّ بين بيرالبو وعازفِ الكونترباص نوعًا من التواطؤ الخاصّ بالعرْق.

عندما انتهَوا من العزف، لم يمكثوا لشُكْر الجمهور على التّصفيق؛ فعازِفُ الدرامزْ بات جامدًا لا يُبدي حِراكًا، ضائعًا بعض الشيء، كمَن يدخل فجأةً مكانًا نورُه ساطع. لكنّ بيرالبو وعازف الكونترباص أخْليا المنصّة على عجَل وهما يتحادثان بالإنكليزية، ضاحكَين بانفراج ظاهرٍ، وكأنّ صفّارة إنذارٍ خلّصتْهما من عملٍ سطحيّ مطوَّل. توجَّه بيرالبو نحوي، وهو يسلّم بسرعة على بعض المعارف، ولو لم يُبدِ في أيِّ لحظة أيَّ إشارة توحي أنّه رآني وهو يعزف. ربّما عرف بوُجودي في البار قبل أن أراه، وأعتقِد أنّه تفحّصني مليًّا كما فعلتُ أنا، مركِّزًا على حركاتي، ودارسًا بدقّة أكثرَ تبصُّرًا منّي ما فعل بيَ الزمن. تذكّرت أنّي رأيت بيرالبو في سان سيباستيان عدّة مرّات يمشي وحده، وكان يتحرّك بطريقة توحي أنّه يتجنّب أحدًا ما. شيءٌ من هذا كان يتجلّى آنذاك في طريقة عزفه على البيانو. الآن، وأنا أراه يتّجه نحوي بين شرّيبة الميتروبوليتانو، بدا لي أنّه أصبح أبطأ أو أكثر فطنة وتبصُّرًا، وكأنّه يشغل حيِّزًا ثابتًا في الفضاء. تصافحْنا من غير لهفة؛ هكذا كان الحال دومًا. صداقتنا كانت غير متواصلة، وليليّةً، قائمةً على مختاراتنا الكحوليّة (الجعَة، النبيذ الأبيض، الدجِنْ الإنكليزيّ، البوربون) أكثر منه على أيّ نوع من الوقاحة في البوح بالأسرار الّتي لم نكن نميل إليها قطّ. ولِكَونِنا

شرّيبةً ذوي خبرة، بِتْنا قليلي الثّقة بالحماسة والصّداقة المُفْرطتين اللتين توَلِّدُهما الخمرة والليل: فقط مرّة واحدة، عند الفجر تقريبًا، وتحت تأثير أربع كؤوس متهوّرة من الدراي مارتيني، أخبرني بيرالبو عن حبّه لامرأة كنتُ أعرفها بطريقة سطحيّة – لوكريثيا – وعن سَفرةٍ معها كان قد رجع منها توًّا. كنّا قد شربنا كثيرًا تلك الليلة. في اليوم التالي، عندما استيقظت، اكتشفتُ أنّي لم أكن أعاني عارضًا كُحوليًّا، بل كنت لا أزال غارقًا في السُّكر، وأنّي نسيتُ كلّ ما أخبرَنيهِ بيرالبو. الشيءُ الوحيد الّذي ظللتُ أذكره هو المدينةُ، حيثُ كان يجب أن تنتهي تلك السفرةُ المبتدئة بسرعة، والمنتهيَة بسرعة: ليشبونة.

في البدء، لم نتطارحِ الكثير من الأسئلة، ولم نشرح الكثير عن حياتنا في مدريد. اقتربتِ النادلة الشقراء منّا. انبعثت من بِزَّتها البيضاء والسوداء رائحةُ نِشاءٍ خفيفة، وفاحت من شَعرها رائحة الصّابون. لطالما أعجبتني عند النساء هذه الروائحُ اللطيفة. مازحَها بيرالبو وداعبَ يدَها وهو يطلب منها كأسَ ويسكي. طلبتُ مجدّدًا الجعة. وبعد بُرهة تحدَّثنا عن سان سيباستيان، واستقرّ الماضي بيننا مثل ضيف وقح.

– هل تذكرُ فلورو بلوم؟ قال بيرالبو، اضطُرّ إلى إقفال الليدي بيرد. عاد إلى قريته، وإلى امرأة أحبّها وهو في الخامسة عشرة من عمره. ورِث أرضَ والدهِ... تلقّيت رسالة منه منذ فترة قصيرة. لدَيه ابنٌ الآن، وهو مُزارع. يثملُ ليالي السبت في حانةٍ يملِكها صهرٌ له. بغضِّ النظر عن بُعدِها في الزمن، ثمَّة ذكريات سهلة وذكريات

صعبة؛ فذِكرى الليدي بيرد بالنسبة إليّ متلاشية كلّيًا تقريبًا. مقارَنةً مع الضوءِ الأبيض، والمرآة، والشّمعدانات الرُّخاميّة، وحيطانِ الميتروبوليتانو الملساء، المقلِّدة – على ما أعتقِد – لغُرفة طعام فندق ريفيّ، بدا لي الليدي بيرد (ذلك القبوُ ذو الأقواسِ القرميديّة، والعتمةِ شبهِ الورديّة) في الذاكرة كمفارَقة تاريخيّة مُبالَغ فيها، كمكان من غير المحتمَل أن أكون قد زرتُه ولو مرّة. كان قريبًا من البحر، وعند الخروج منه كانت الموسيقى تمّحى، ويسمع المرءُ هدير الأمواج وهي ترتطم بالـ«پيْنيه دي لوس ڤينْتوس». عندها تذكّرتُ: استعدت الإحساس بزبدِ البحر وهو يبرقُ في العتمة، والإحساس بالنسيم المالح. وعرفتُ أنّ ليلة «العِقاب» والدراي مارتيني تلك قد انتهت في الليدي بيرد، وأنّها كانت المرّةَ الأخيرة الّتي التقيتُ فيها سانتياغو بيرالبو.

– لكنّ الموسيقيّ يعرف أنّ الماضي غير موجود – قالها فجأة، كما لو أنّه ينفي فكرة لم أعبّر عنها. أولئك الّذين يرسمون أو يكتبون يُمضون وقتهم في مراكَمة الماضي على أكتافهم، بالكلمات أو اللوحات. أمّا الموسيقيّ، فهو دائمًا في الفراغ. تكفُّ موسيقاه عن الوجود في اللحظة الّتي يكفّ فيها هو عن عزفها. إنّه الحاضر الصِّرف.

– لكنْ تبقى الأسطوانات.

لم أكن واثقًا أنّي أفهمُه، وأنّي أفهم ما كنتُ أقوله، لكنّ الجعة شجّعتني على المعارضة. نظرَ إليّ بغرابة وقال مبتسمًا:

– سجّلتُ البعضَ مع بيلي سوان. الأسطوانات لا شيء. إذا كانت تعني شيئًا – عندما لا تكون مَيتة، وهي حال جميعها تقريبًا – فإنّها حاضر محفوظ. هذا ما يحصل مع الصوَر أيضًا. مع الوقت لا تبقى واحدة إلاّ وتصبح صورة مجهول. لهذا السبب لا يستهويني حفظُها.

بعد عدّة أشهُر عرفتُ أنّه يحتفظ ببعض الصور، لكنْ فهمْت أنّ هذا الاكتشاف لا يتعارض وشجبه للماضي، بل كان بالأحرى يؤكِّده بطريقة ملتوية، وعلى الأرجح انتقاميّة، كما المصيبةُ والألمُ يؤكِّدان إرادة الحياة، ويؤكّد السُّكوتُ حقيقةَ الموسيقى – بحسَب ما قد يقولُ هو.

سمعتُه يومًا يقول شيئًا مماثِلاً في سان سيباستيان، أمّا الآن فلم يعد ميّالاً إلى هذه التأكيدات الحاسمة. عندما كان يعزف في الليدي بيرد، كان تَعامُله مع الموسيقى شبيهًا بتصرّف رجُل مُغرَم يستسلم لشغَف يستبدُّ به: لامرأة تصطَفيهِ في بعض الأحيان، وتستخفّ به في أحيان أُخرى، من غير أن يفهم أبدًا لماذا تُعْرَض عليه السعادة، ومِن ثَمَّ تُرفض. لاحظتُ مِرارًا حينها أن في نظرة بيرالبو أو في إشاراته، وفي طريقة مشْيه، مَيلاً غيرَ واعٍ إلى إثارة الشفقة أقوى مّما هو عليه الآن، حيث بدا لي هذا الميل، في الميتروبوليتانو ذلك المساءَ، غائبًا، بعيدًا عن موسيقاه، وغيرَ متجسّدٍ في أعماله. صار ينظر الآن إلى العينَين دائمًا، وقد تخلّى عن عادةِ مُراقبة الأبواب الّتي تُفتح بطرَفِ عينِه. أعتقِد أنّي احمررتُ خجلاً عندما لاحظَتِ النادلةُ الشقراء أنّي

أنظرُ إليها. فكّرتُ: بيرالبو يُضاجعها، وتذكّرت لوكريثيا يوم رأيتُها وحيدة على شاطئ البحر، فسألتْني عنه. كانت تُمطر رذاذًا، وكانت لوكريثيا رافعةً شَعرَها المبلّل، وطلبَت منّي سيجارة. مظهرُها كان مظهرَ مَن تنازلَ - مُرغَمًا - موَقّتًا عن كبرياءَ مُفرِطة. تبادلْنا بعضَ الكلمات، ودّعَتني ورَمتِ السيجارة.

- تخلّصتُ من ابتزازِ السعادةِ... قال بيرالبو بعد سكوتٍ قصير، وهو ينظر إلى النادلة المديرةِ ظَهرَها لنا.

منذ أن بدأنا الشُّرب في بار الميتروبوليتانو، وأنا أنتظرُ أن يذكرَ لوكريثيا. علمتُ الآن، من غير أن يتلفّظ باسمها، أنّه كان يحدّثني عنها.

تابعَ:

- ... ابتزازِ السعادةِ والكَمال. هما كناية عن خُرافات كاثوليكيّة، نفكّر فيها من تأثير التعليم المسيحيّ وأغاني الراديو.

قلت إنّي لم أكن أفهمُه: رأيتُه ينظر إليّ ويبتسم من خلال المرآة الكبيرة عند الناحية الأُخرى من البار، ما بين القناني البرّاقة المصفوفة، الّتي خفّفَ من بَريقِها الدُّخانُ، واسترخاءُ الكُحول.

- أجل! أنت تفهمني. لا بدّ أنّك استيقظتَ يومًا وأدركتَ أنّك لم تعُد بحاجة إلى السعادة ولا إلى الحُبّ كي تكون حيًّا بشكلٍ معقول. إنّه لانفراجٌ، وأمرٌ في منتهى السهولة، كما لو أنّك تمدُّ يدَكَ وتُطفئ الراديو.

- أعتقِد أنّه استسلام، قلتُ بقلق.

توقّفت عن الشرب. خشيتُ، إنْ أكملتُ، أن أبدأ بالتكلّم عن حياتي لبيرالبو.

– ليس استسلامًا، قال بصَوت خافتٍ لم يسمح لي بملاحظة نبرة الغضب فيه. هذه خرافة كاثوليكيّة أُخرى. المرءُ يتعلّم، ويستخفّ.

وهذا ما حصل له، ما غيّره إلى درجة تأجيج بريق الغضب والمعرفة في عينَيه، ببرودة مشابِهة لبرودة تلك الأمكنة الخالية الّتي تُنذِر بقوّةٍ بوجودٍ خَفِيّ. كان قد تعلَّمَ شيئًا خلال هاتينِ السّنتين، ربّما شيئًا واحدًا صحيحًا ومخيفًا سَيطرَ على حياته وعلى موسيقاه كاملتَين. تعلَّمَ في الوقت نفسِه أن يستخفّ وأن يختار، وأن يعزف على البيانو برشاقة رجُلٍ أسْود وسخريته. لهذا السبب لم أعُد أعرِفه: ولم يكن بإمكان أحد أنْ يعرفه، حتّى لوكريثيا، فلم يكن ضروريًّا أن يغيِّر اسمَه وأن يعيش في فندق.

كانت حوالى الثانية بعد منتصفِ الليل، عندما خرجنا إلى الشارع صامتَين ومخدَّرَين من البرد، نترنّح على طريقةِ شرّيبةِ آخِرِ الليل الشائنة بعضَ الشيء. راح يشرح لي، وأنا أرافقه إلى فندُقه – كان في شارع الغران ڤيّا غيرَ بعيد كثيرًا من الميتروبوليتانو – أنّه توصَّلَ أخيرًا إلى العيش من الموسيقى فقط. كان يكسبُ عَيشه بطريقة غير منتظِمة وهائمة بعضَ الشيء، عازفًا بشكل دائم تقريبًا في ملاهي مدريد الليليّة، وبعضَ المرّات في ملاهي برشلونة، ومسافرًا بين مساء وآخر إلى كوبنهاغن أو برلين، ولكنْ ليس بنفس وتيرة أسفاره لمّا كان بيلي سوان على قيد الحياة. «لكنْ لا يستطيع المرءُ أن يكون عظيمًا بلا

انقطاع، وأن يعيش من موسيقاه وحدَها» قال بيرالبو، مستعيدًا قولاً من الزمن الماضي: كان يعزف أحيانًا في الاستُديوهات، مشاركًا في أسطوانات فاشلة؛ ومِن حُسن حظّه أنّ اسمه لم يَرِد عليها. «يدفعون جيّدًا» قال لي، «وعندما أخرجُ مِن هناك أنسى ما عزفتُ». إذا سمعتُ أنا بيانو في أغنية على الراديو، فمنَ المحتمَل أن يكون هو مَن يعزف. عند قولِه هذا، ابتسمَ وكأنّه يعتذر من نفسه. لكن لم يكن الأمر كذلك، فكّرت، فهو بالتأكيد لم يعُد يعتذرُ من أحد ولأيِّ سبب. في الغران ڤيّا، بجانبِ بريقِ نوافذِ مبنى تيليفونيكا الكبيرة، ابتعدَ عنّي قليلاً ليبتاعَ سجائرَ من كشك. عندما رأيتهُ يعود، طويلَ القامة، مترجّحًا، ويداهُ غارقتان في جَيبَي معطفِه المفتوح ذي القَبّة المرفوعة، لاحظتُ أنّه كان يوحي - بقوّةٍ - بطِباع ترافق الّذين يحملون قِصّة كما الّذين يحملون مسدَّسًا. ولا أقوم هنا بمقارَنةٍ أدبيّة عبثيّة: كانَ لدَيه قِصّة، وكانَ يحتفظُ بمُسدَّس.

الفصل الثاني

في أحد تلك الأيّام، اشتريت أسطوانة لِبيلي سوان عزف فيها بيرالبو. لقد قلتُ إنّي قليلاً ما أتأثّر بالموسيقى. لكنْ ثمّة شيءٌ في تلك المقطوعات كان يعني لي الكثير، كنت على وشكِ الاهتداءِ إليه كلّما سمعتُها، إلاّ أنّه يفلت منّي دائمًا. قرأتُ كتابًا – وجدتُه في فندق بيرالبو بين أوراقه وصوَره – جاء فيه أنّ بيلي سوان كان من أعظم عازفي البوق في هذا القرن. في تلك الأسطوانة بدا كأنّه العازف الّذي لا مثيل له، وكأنّ أحدًا لم يعزف البوق في العالم، وكأنّه وحدَه مع صوته وموسيقاه وسطَ صحراءَ أو مدينةٍ مهجورة. أحيانًا، في مقطوعة أو اثنتين، كان صوتُه يُسمَع كأنّه صوتُ شبحٍ أو ميتٍ. مِن خلفِه يُسمَع العزفُ السَّلس من بيانو بيرالبو، أو «ج. دولفن» بحسَب تفسير الغلاف. مقطوعتان كانتا من تأليفه، أسماء أمكنة بدَت لي في الوقت نفسه أسماءَ نساء: «بورما»، «ليشبونة». وبالصّفاء الذي ينتج مِن شربي الكحول بمفردي، تساءلتُ عمّا قد أحسُّه إذا أحببتُ امرأة تدعى بورما، وكيف قد يبرق شعرُها وعيناها في العتمة. أوقفتُ الموسيقى، أخذتُ المعطف المشمَّع والمظلّة وخرجتُ للبحث عن بيرالبو.

مكتبُ استقبال فندقِه كان كبَهْوِ إحدى دور السينما القديمة المشابِهة لهياكلَ مهجورة. سألتُ عن بيرالبو فأجِبت بأنْ لا أحد بهذا الاسم ينزل في الفندق. وصفْته وذكرتُ رقم غرفته، 304،

مؤكِّدًا لهم أنّه يشغلها منذ حوالى الشّهر. موظَّف الاستقبال الّذي بدتْ على قَبّة بزَّتِه دائرةٌ رفيعةٌ من الدّهن، أومأ إليّ بحركة فيها ريبة أو تواطؤٌ وقال: «حضْرتك تعني السيد دولفن». وافقتُ وأنا أشعر بنوع من الذّنْب، اتّصَلوا بغُرفته لكنّه لم يكن هناك. قال لي موظّفٌ أشرفَ على الأربعين إنّه قد رآه في الصالون. وأضاف بشيءٍ من الإجلال إنّ السيّد دولفن كان دائمًا يطلب القهوة والمشروب هناك.

وجدتُ بيرالبو مستندًا إلى كنبَة من جلدٍ مهلهَلٍ تتراءى عليه الخياطةُ غيرُ المتْقنة، يشاهدُ برنامجًا تلفزيونيًّا، وأمامه سيجارة مشتعلة وفنجانُ قهوة يتصاعد منهما الدُّخان. كان مرتدِيًا معطفه، وكأنّه ينتظر وصولَ قطار. كانت النوافذ الكبيرة لذلك المكان الخالي تطلّ على باحة داخليّة، والستائرُ - الوسخةُ بعضَ الشيءِ - تزيد شبْهَ عتمةِ المكان عتمةً، فسارعَ إليها مساءُ كانون الأوّل، وكأنّ الليلَ خصَّ نفسَه بإعادة احتلال تلك الفجوة القاتمة. لم يبدُ بيرالبو معنيًّا بأيّ شيءٍ من كلّ هذا؛ استقبلَني وعلى وجهه ابتسامة الضيافة الّتي يستعملها الآخرون وهُم في صالة طعام بيتهم فقط. كانَ على الحيطان لوحاتُ صيدٍ غيرِ متناسقة، وفي أقصى الغرفة، لاحظتُ بيانو عموديًّا تحت أحد الرسوم التجريديّة الّتي يميل المرءُ إلى اعتبارها إهانة شخصيّة. عرفتُ فيما بعدُ أنّ بيرالبو، بصِفتهِ نزيلاً دائمًا، كان قد حصل على الامتياز المتواضع بالتمرُّن عليه في ساعات الصباح، وقد شاع بين موظّفي الفندق الشكُّ المحمّس في أنّ السيّد دولفن

كان عازفًا مشهورًا.

قال لي إنّه يستهوي العيشَ في فنادقَ ذاتِ درجة متوسّطة. وعلى غرار رجلٍ وحيد، كان منحرفًا وثابتًا في حبّه لسَجّادِ الممرّات البنّي الفاتح، والأبوابِ الموصَدة، وأرقامِ الغرَف المتتالية بلا نهاية، والمصاعدِ الّتي لا يكادُ يشاطرُه إيّاها أحد، والّتي – مع ذلك – تحتوي على آثارِ نزلاءَ مجهولين ووحيدين مثله: حروق سجائر في الأرض، خدوش في باب الألومينيوم الآليّ، وهواء مُثقَلٌ برائحة أنفاس أناسٍ غير مرئيّين. اعتادَ العودة من العمل ومن جوّ البارات الليليّة قبَيلَ بزوغ الفجر، وأحيانًا وسطَ النهار إذا ما طال الليل متخطّيًا نفسَه بطريقة غير معقولة، كما يحصل في بعض الأحيان. قال لي إنّ أكثر ما كان يَروقه هو تلك الساعة الصباحيّة الغريبة، عندما يشعر بأنّه النزيل الوحيد في تلك الممرّات وفي الفندق كلّه: ضجيج المكانس الكهربائيّة خلف الأبواب نصف المفتوحة، الوحدة، دائمًا، الشعور بأنّه مالكٌ مجرّدٌ يتحمّس عندما يمشي في التاسعة صباحًا نحو غرفته وهو يقلِّب المفتاح الثقيل في جَيبه، متحسِّسًا لوحةَ رقمِه وكأنّها مِقبضُ مسدّس. في الفنادق – قال لي – لا يمكنُ أن يخدعك أحد، ولا أن تخدعَ نفسَك في ما يتعلّق بحياتك.

– لكنّ لوكريثيا ما كانت لتوافق على أن أعيش في فندق كَهذا، قال لي ذات مساء.

لستُ أدري إذا حصل ذلك في تلك الأمسية؛ ربّما كان في المرّة الأولى الّتي ذكرَ فيها أمامي اسمَ لوكريثيا. – كانت تؤمنُ بالأمكنة.

تؤمِن بالبيوت القديمة وفيها صِوانات سُفرة ولوحات فنيّة، وبالمقاهي ذات المرايا. أعتقِد أنّ الميتربوليتانو قد يعجبها كثيرًا؛ هل تذْكر القْيينّا في سان سيباستيان؟ كان من نوع الأمكنة الّتي تعجبها لِلقاءِ أصدقائها، لاعتقادها أنّ ثمّة أمكنة مُعدّة لتكون رومنسيّة، وأُخرى ليست كذلك.

تكلَّم عن لوكريثيا بسُخريَة وتجرّد، بالطريقة الّتي يستعملها المرءُ أحيانًا ليتكلّم عن نفسه، ليصنعَ لنفسِه ماضيًا. سألتُه عنها. قال إنّه لا يعرف أين هي، ونادى النادل ليطلبَ منه فنجان قهوة ثانيًا. أتى النادل ثمّ ذهب بتحفُّظِ مَن يتحمّلون بكآبةٍ موهبة كونهم غير مرئيّين. وفيما كانت تجري في التلفاز مسابقة بالأبيض والأسود، كان بيرالبو يشاهدها من حين إلى آخر كمَن بدأ يتآلف مع حسناتِ تسامح غير محدود. لم يكن أكثر بدانةً، بل بدا أضخمَ أو أطول، ومعطفُه وعدمُ حراكهِ يصوِّرانه أكبر حجمًا.

زُرتهُ عدّة مرّات في تلك الصالة، وذاكرَتي تميل إلى اقتصارها على مرّة واحدة، متأخّرة وقاتمة. لستُ أدري إن كانت المرّة الأولى عندما طلب إليّ أن أصعد معه إلى غرفته. أراد أن يعطيَني شيئًا وأن أحتفِظ به.

عندما دخلْنا، أضاءَ الغرفة مع أنّ الليل لم يكن قد هبط بعد، وأنا رفعتُ ستائر الشُّرفة. كان قد بدأ الاحتشاد في الجهة الأخرى من الشارع، عند زاوية تيليفونيكا، رجالٌ ذوو لونٍ قاتم، مرْتدين معاطف المطر المزرَّرة حتّى العنق، ونساءٌ وحيدات متبرّجات يتمشّين

ببطءٍ أو يتوقّفن كأنّهنّ بانتظار أحد من المفروض أن يكون قد وصل: أُناسٌ شحُبت ألوانُهم، لا هُم يتقدّمون أبدًا ولا يتوقّفون أبدًا عن الحراك. تفحَّص بيرالبو الشارع لحظة وأسدل الستائر. انتشر في الغرفة ضوءٌ مكفهرّ غيرُ كافٍ. من الخزانة، حيث ترجّحَت علاّقات خالية، أخرَج حقيبة كبيرة ووضعها فوق السرير. كان يُسمَع، خلف الستائر، ضجيجُ السيّارات والمطرُ الذي ابتدأ ينهمر بقوّة قُربنا، ينقر السقيفة فوق المدخل حيث لم تكن قد أضيئت لافتةُ الفندق. كنتُ أشمُّ رائحة الشتاء ورطوبة الليلة المُعلَنة، وتذكَّرتُ سان سيباستيان بلا حنين، ولكنّ الحنين ليس أسْوأَ ابتزازات البعد! في ليلة كهذه، والوقت متأخّر جدًّا، قبَيل الفجر، مشَينا أنا وبيرالبو، متحمّسَين أو بريئَين بسببِ الدجِنْ، مشَينا بلا توقُّر وبلا مظلّة، تحت زخّة مطر خفيفة خُيِّل إلينا أنّها ترأف بنا، وفاحت منها رائحة الطحْلب والملح، زخّة مثابرة كالمداعبة، وكالشوارع المألوفة للمدينة الّتي كنّا نطأ. توقّف رافعًا وجهَه نحو المطر، تحت أغصان أشجار التمر الهندي الأفقيّة العارية، وقال لي: «كان يجب أن أكون أسْود، أن أعزف البيانو مثل ثيلونيوس مونك، أن أكون قد وُلدتُ في ممفيس، تينيسي، وأن أكون في هذه اللحظة أُقبّل لوكريثيا، أن أكون ميتًا».

كنتُ أراه الآن منحنيًا فوق السرير، باحثًا عن شيءٍ بين الثياب المطويّة والمرتَّبة في الحقيبة. وفكّرتُ فجأة – كنتُ أرى وجهَه المهموم في مرآة الخزانة – في أنّه حقًّا أصبح رجلًا آخَر، وأنّي لم أكن واثقًا بأنّه رجل أفضل. دامَ هذا لحظة فقط. استدار فورًا نحوي مُظهِرًا لي

رزمة من الرسائل المربوطة بمطّاط. ظروفٌ مستطيلة عليها خطوطُ البريد الجوّي الزرق والحمر، وطوابعُ أميريّة غريبة وصغيرة جدًّا، وقد كُتب عليها اسمُ سانتياغو بيرالبو وعنوانُه في سان سيباستيان بخطٍّ أُنثَويٍّ مائلٍ وبحبرٍ بنفسجيّ. في الزاوية العليا حرفٌ واحد: ل. قدّرت وجود حوالى عشرين رسالة أو خمسٍ وعشرين. قال لي بيرالبو بعدها، إنّ تلك المراسَلة قد دامت سنتينِ وانقطعت بشكلٍ مفاجئٍ جدًّا، وكأنّ لوكريثيا قد ماتت، أو لم توجد قطّ.

كانَ هو مَن يشعر في ذلك الوقت بأنّه غير موجود. أحسّ أنّه يستنفد نفسَه، قال لي، وكأنّ احتكاكَ الهواء وعِشرةَ الناسِ يستنفدانه، ويستنفدُه الغياب. فهِم عندها بُطءَ الوقت في الأماكن المقفلة حيث لا يدخلُ أحد، ومثابرة الصدأ الّذي يمضي قرونًا ليشوّه لوحة أو ليحوِّل تمثالاً من الحجر إلى تراب. لكنّه لم يخبرني هذه الأشياءَ إلّا بعد مرور شهرٍ أو شهرين على زيارتي الأولى. كنّا أيضًا في غرفته، والمسدّسُ في متناوَل يدِه، وكانَ ينهض من حينٍ إلى آخَرَ، وينظر إلى الشارع من خلفِ الستائر الّتي لمع من خلالها النورُ الأزرق لِلّافتةِ المضاءة فوق مدخل الفندق. كان قد اتّصل بالميتروبوليتانو ليبلِّغ أنّه مريض، وهو جالسٌ في السرير، بجانب القنديل، ألْقمَ المسدّس ورفعَ زِناده بحركات خاطفة وسلِسة، مدخّنًا في الوقت نفسِه وهو يحدّثني، لا عن الرجُل الجامد الّذي كانَ ينتظر أن يراه في الجهة الأُخرى من الشارع، بل عن طول الوقت عندما لا يحْدث شيءٌ، وعندما يستنفد المرءُ حياتَه وهو ينتظر رسالة، أو مخابَرة هاتفيّة.

– خذ هذا، قال لي في الليلة الأولى، من غير أن ينظرَ إلى الرزمة الّتي يناولني إيّاها، وهو ينظر إلى عينيّ، احتفِظْ بالرسائل في مكانٍ آمنٍ، ولو أنّي على الأرجح لن أطالبَك بها.

وقف إلى الشرفة، مطلاًّ على الشارع، طويل القامة وهادئًا بين أذيال معطفه القاتم، مُبعدًا الستائر بعض الشيءِ. كان الليلُ الدّاهم وبريقُ الشتاء الرّطب على البلاطِ وهياكلِ السيّارات يُغرقان المدينة في ضوءِ الإهمال. وضعتُ الرسائل في جَيبي وقلتُ له: عليّ أن أرحل. ابتعدَ بيرالبو عن الشرفة بمَظهره المتعَب، وتوجَّه ليجلس على السرير، تلمَّس معطفَه، بحث عن شيءٍ على المنضدة... عن سجائره الّتي لم يجدها. أذْكر أنّه كان يدخّن دائمًا سجائر قصيرة أميركيّة بلا فِلْتر. قدّمتُ له واحدة من سجائري. التقطَها بين الإبهام والسّبابة وقطعَ الفِلتر، وتمدَّد على السرير. لم تكنِ الغرفة كبيرة جدًّا. شعرتُ بالانزعاج، وأنا واقفٌ بجانب الباب، غيرَ مقرِّرٍ تكرارَ «إنّي ذاهبٌ». على الأرجح، لم يسمعني في المرّة الأولى. الآنَ يدخّن وعَيناه نصفُ مغمضتَين. فتحَهما مشيرًا إلى الكرسيّ الوحيد في الغرفة. تذكّرتُ أغنيَته: ليشبونة... عندما كنتُ أسمعُها أتخيَّله هكذا تمامًا، متمدِّدًا في غرفة فندُق، مدخِّنًا ببطءٍ في شبْه العتمة نصف الشفّافة. سألتُه إن تمكّن أخيرًا من الذَّهاب إلى ليشبونة. أخذ يضحك، وطوى الوسادة تحت رأسه:

– طبعًا! قال، في الوقت المناسب. يصِل المرءُ إلى الأماكن عندما لا تعودُ تَهُمُّه.

– رأيتَ لوكريثيا هناك؟

– كيف عرفت؟

عندها انتصب كلّيًا، وسحَق سيجارتَه في المنفضة. هززتُ كتفيَّ، مندهشًا أكثر منه من تكهُّني.

– استمعتُ إلى تلك المقطوعة، «ليشبونة». ذكّرتني بالرحلة الّتي بدأتماها معًا.

– تلك الرحلة، كرّر. خلالها ألَّفتُها.

– لكنّك قلتَ لي إنّكما لم تصِلا إلى ليشبونة قطّ.

– طبعًا لا! لذلك ألّفتَ الأغنية. ألا تحلم أنت أبدًا بأنّك تضيع في مدينة لم تذهب إليها قطّ؟

أردتُ أن أسأله إن أكملتْ لوكريثيا وحدَها الرحلة، ولم أجرؤ. عدمُ رغبتهِ في متابعة التحدّث عن هذا الموضوع كان أمرًا غير قابل للتشكيك. نظرَ إلى ساعتِه وتظاهرَ بأنّه فوجئ بتقدُّم الوقت، قال إنّ موسيقيِّيه بانتظارهِ في الميتروبوليتانو.

لم يدْعُني للذّهاب معه. أتممْنا الوداع في الشارع على عجَل، وهو استدار رافعًا قَبّة معطفِه. وبعد بضعِ خُطًى بدا بعيدًا جدًّا. عند وصولي إلى البيت سكبتُ كأسًا، وأدرتُ أسطوانة بيلي سوانْ. عندما يشربُ المرءُ بمفرده يتصرّف كأنّه فرّاشٌ لشَبح، ويُملي على نفسِه الأوامر بصمتٍ وينفّذها بالدقّةِ الكسولة لخادم في هذَيان النَّوم: الكأسُ، مكعّباتُ الثلج، العيارُ الصحيح لِلدجِنْ أوً الويسكي، وسائدُ الكؤوسِ الواقيةُ للطاولة الزُّجاجيّة، فلا يجوز أن يأتي أحدٌ لاحقًا

ويكتشفَ أثرَ الدائرةِ القبيحةِ الّتي لم تمحُها الخرقة الرطبة. تمدّدتُ على الكنبة، مركِّزًا الكأسَ العريضةَ على بطني، وسمعتُ تلك الموسيقى للمرّة الرابعة أو الخامسة. كانت رُزمة الرسائل المتلاصقة على الطاولة، بين المنفضة وقنّينة الدجِنْ. كانت المقطوعة الأولى، «بورما»، مليئة بالعتمة وبتوتُّرٍ مماثلٍ للخوف، وحادّة إلى أبعدِ حدٍّ. «بورما، بورما، بورما»، كانَ يكرِّر، مثلَ نبوءة أو ترتيلة، صوتُ بيلي سوانْ الكئيب، وبعدها يمتدّ صوتُ بوقِه البطيءُ والحادُّ لينكسرَ في إيقاعاتٍ فجّةٍ تبثُّ الرُّعب والفوضى في الوقت نفسه. استحثّتني الموسيقى دائمًا على كشفِ إحدى الذِّكريات: شوارعٍ مهجورة في الليل، بَريق الكشّافات عند الجهة الأُخرى من تقاطُع الطُّرقات، على واجهاتٍ مع أعمدةٍ ومجمَّعات أنقاض، رجال يهربون ويتلاحقون وقد استطالت ظلالُهم، حاملين المسدَّسات، مُميلينَ قبّعاتِهم، مرتدينَ المعاطف الكبيرة كمِعطف بيرالبو.

لكنّ هذه الذكرى الّتي ازدادت خطرًا بسببِ الوحدة والموسيقى، أنا واثقٌ أنّها لا تنتمي إلى حياتي، بل إلى فيلم سينمائيّ ربّما رأيتُه في طفولتي، ولكنّي لن أتمكّن أبدًا من تذكُّرِ عنوانه. عاودتني الذكرى مجدَّدًا لأنّ تلك الموسيقى احتوَت على الاضطهاد والرُّعب؛ وجميعُ الأشياءِ الّتي تبدَّتْ لي فيها، أو الّتي اكتشفتُها في نفسي، كانت محتواةً في تلك الكلمة الوحيدة، «بورما»، وفي بطءِ وسيط الوحي الّذي يلفظها به بيلي سوان: بورما أو بورمانيا، ولا أقصد البلد الّذي نراه في الخرائط أو المعاجم، بل صوتًا حادًّا أو رُقْيةً لشيءٍ ما. كنتُ أكرّر

مقطعَيها اللفظيَّين واجدًا فيهما - تحت قرع الطبول الّتي تُبرزهما في الموسيقى - كلمات أُخرى سابقة من لغة أوكِلَت بطريقة فظّة إلى الكتابات المحفورة على الصخر وعلى ألواح من الصَّلصال: كلمات قاتمة جدًّا لا يمكن فكُّ رموزها من دون تدنيس المقدَّسات.

كانت الموسيقى قد توقّفت. عندما قمتُ لأعيد الأسطوانة ثانيةً، شعرتُ، من غير أن أفاجأ، بالدُّوار وبأنّي سَكران. على الطاولة، قرب قنينة الدجِنْ، بدت على رُزمة الرسائل هيئةُ الصبر الثابت الخاصِّ بالأغراض المنسيّة. حللتُ العقدة الّتي تربطها، وعندها ندمتُ على ما فعلت. تبعثرتِ الرسائل بين يديّ. من غير أن أفتحها، أخذتُ أنظر إليها، تفحّصتُ تواريخ أختام الطوابع، اسم المدينة - برلين - من حيث أُرسِلَت، والتغيُّراتِ في لون الحبر وفي الخطّ على الغُلُف. إحدى الرسائل، الأخيرة، لم تُرسَل في البريد. كُتب عليها على عجَل عنوانُ بيرالبو، والطوابع الملصَقة لم تُمَسَّ. كانت رقيقة أكثر من أيِّ رسالة أُخرى. عندما شربتُ نصفَ كأسي الثانية من الدجِنْ تغاضيتُ عن الإحساس بواجب عدم رؤية ما في داخلها. لم يكن هناك شيءٌ. رسالة لوكريثيا الأخيرة كانت ظرفًا فارغًا.

الفصل الثالث

لم نكن نلتقي دائمًا في الميتروبوليتانو أو في فندقه. عندما سلّمني الرسائل، مضى بعضُ الوقت قبل أن يرى واحدنا الآخر مجدَّدًا، وكأنّنا أدركنا أنّ ما فعله قد أوقعَنا في حالِ ثقة مفرِطة متبادَلة، لم يكن بوسعنا تخفيفها إلاّ بالتخلّي عن التّلاقي بضعة أسابيع. كنت أستمع إلى أسطوانة بيلي سوانْ وأنا أنظرُ من حين لآخر إلى الظروف المستطيلة، واحدًا واحدًا، والممزَّقة بسبب تلهّف مِنَ المؤكّد أنّ بيرالبو لم يعد يعرف نفسه فيه، ولم أشعر تقريبًا بأيٍّ رغبة في قراءة الرسائل، إلى درجة أنّي نسيتُها في بعض الأيّام بين فوضى الكتب والجرائد القديمة. لكنْ كان يكفي أن أنظر إلى الخطّ المتقن والحبرِ النفسجيِّ أو الأزرق المتآكِل، لكَي أتذكّر لوكريثيا، لا المرأة نفسَها ربّما الّتي أحبَّها بيرالبو وانتظرها ثلاث سنوات، بل المرأة الأُخرى الّتي رأيتُها من حين إلى آخر في سان سيباستيان، في حانة فلورو بلوم، عند شاطئ البحر، أو خلال نزهة بين أشجار التمر الهندي، بهيئتها الموحية بالضَّياع المتعمَّد، وبسمتها اللطيفة الّتي تتجاهلك، وفي الوقت نفسه تلفُّك، من غير سببٍ، بتأكيد تفضيلٍ حارٍّ، وكأنّك لا تعني لها شيئًا، أو كأنّك عينُ الشّخص الّذي تمنّت أن تراه في هذه اللحظة بالذّات. بدا لي أنّ ثمّة شبَهًا خفيفًا بين لوكريثيا وبين المدينة الّتي تعرَّفْنا فيها عليها، أنا وبيرالبو: نفس السكون الغريب وغير المجدي، نفس العزم على إظهار نفسيهما غريبتَين ومضيافتَين،

ذلك الحنان الخادع في بسمةِ لوكريثيا، وفي المساءِ الزهريِّ على زبد الخليج البطيءِ، وأغصانِ شجَرِ التمْرِ الهندي.

رأيتُها، أوّلَ مرّة، في حانة فلورو بلوم، ربّما في الليلة نفسها الّتي عزف فيها بيلي سوانْ وبيرالبو معًا. في تلك الفترة كنتُ أُنهي سهرتي بشكلٍ منتظِم في الليدي بيرد، يدفعني إليه الاقتناعُ الطفيف بأنّي هناك أحْظى بالنساء اللواتي أُرجِّحُ أنّهن سَيُوافِقن على تمضية الليل معي عندما تُطفأ الأنوار في سائر الحانات، وتَستولي عليّ الرغبةُ الملحّة مع بزوغ الفجر. لكنّ هدَفي في تلك الليلة كانَ أكثر تحديدًا. كنتُ على موعد مع بروسْ مالكولم، المسمّى في بعض الأماكن «الأميركيّ». كانَ مراسِلاً لمجلّتَي فنونٍ أجنبيَّتين، ويعمل أيضًا – بحسَب ما قيل لي – في التصدير غيرِ الشرعيِّ للوحات فنّية وقِطع قديمة. في تلك الفترة، كنتُ أُعاني ضائقةً ماليّةً، ولدَيَّ في البيت بعضُ اللوحات المعتِمة جدًّا، رسوم دينيّة، وقد قالَ لي صديقٌ مرّ بأزمة مماثلة، إنّ ذلك الأميركيّ، مالكولم، بوسْعه أن يشتريَها منّي بسعرٍ جيّد وأن يدفع بالدولار الأميركيّ. اتّصلتُ به، جاءَ إلى البيت، تفحَّص اللوحات بمُكبِّرِه، نظّفَ الأماكن الأكثر عتمةً بقُطنٍ مبلولٍ فاحت منه رائحة الكحول المعقِّم. كان يتكلّم الإسبانيّة بلَهْجَةِ أميركا الجنوبيّة، وبصَوتٍ مُقنعٍ وحادّ. التقطَ صوَرًا متْقَنة للّوحات، واضعًا إيّاها أمام نافذة مفتوحة. وبعد بضعة أيّام اتّصل بي ليخبرني عن استعدادهِ أن يدفع لي ألفًا وخمسمائة دولارٍ مقابل هذه اللوحات: سبعمائة عند التّسليم، والباقية عندما يتسلّمها شركاؤه أو رؤساؤه

في برلين.

عيَّن لي موعدًا للدّفع في الليدي بيرد. على طاولة محايدة، سلّمَني سبعمائة دولار بأوراق نقديّة مستعمَلة بعد أن عدَّها ببطءِ أمينِ صندوقٍ ڤيكتوريّ. لم أرَ الثّمانمائةِ المتبقّية إطلاقًا. من الأرجح أنّه كانَ سيَخدعُني حتّى لو وفى بوَعدهِ، لكنّ هذا أمرٌ لم يعُد يهمُّني منذ عدّة أعوام. المهمُّ هو أنّه لم يصل وحدَه تلك الليلة إلى الليدي بيرد. كانت ترافقه شابّةٌ طويلة القامة ونحيفة جدًّا، تميل قليلًا حين تمشي، وتفترُّ شفتاها حين تبتسمُ عن أسنانٍ ناصعة جدًّا ومتباعدة قليلًا. شَعرها أملسُ، مقصوص على مستوى كتفَيها، وجْنتاها عريضتان، أو قلْ طفوليّتان، أنفُها محدَّد بخطٍّ غير منتظم. لا أدري إن كنتُ أتذكّرها الآن كما رأيتُها تلك الليلة، أو أنّ ما أراه وأنا أصِفها هو إحدى تلك الصوَر الّتي وجدتُها بين أوراق بيرالبو. كانا واقفَين، بلا حراك، أمامي، ظهْراهُما إلى المسرح حيث لم يحضر الموسيقيّون بعدُ. جذبها مالكولم الأميركيّ من ذراعها بحركةِ تملُّكٍ وفخرٍ حازمة وقالَ لي: «أريدُ أن أُعرِّفك على زوجتي، لوكريثيا».

عندما فرغَ الأميركيّ من عدِّ المال شربْنا نخْب ما دعاه – بفرح مشبوهٍ – نجاحَ أعمالنا. انتابني الشعورُ المزدوج والمزعج بأنّه تمّ الاحتيال عليّ، وبأنّي أمثّل في فيلم لم يُعطوني فيه التعليمات الكافية، لكن هذا ما يحصل لي عادةً عندما أشربُ مع غُرَباء. كانَ مالكولم يتكلّم ويشرب كثيرًا، يوبّخني على سجائري، يقدِّم ليَ النصائح لشراء اللوحات والإقلاع عن التدخين. المهمُّ هو الاتّزانُ الشخصيّ، قال

لي، مبتسمًا كثيرًا، مبعِدًا الدخان عن وجهه، كاتبًا لي على الفوطة أسماء بعض الأقراص الطبّية التي تعوِّض النيكوتين. كأسُ لوكريثيا كانت لا تزال على حالها قائمةً أمامها. بدتْ لي قادرة أن تحافظ على مناعتها وأن تبقى مماثِلة لنفسِها حيثما وُجدَت. لكنّي بدّلتُ ذلك الحكْم عندما بدأ بيانو بيرالبو العزفَ. عزفا وحدَهما، هو وبيلي سوان: غيابُ الكونترباصِ والدرامزْ منحَ موسيقاهُما ووَحْدَتهما في مسرح الليدي بيرد الضيِّقِ صفةَ التجريدِ الكُلّي، كرسمٍ تكعيبيٍّ خُطَّ فقط بقلَم الرَّصاص. في الواقع، أتذكّر الآن – بعد مرورٍ خمسٍ سنين – أنّي لم أنتبه آنذاك إلى أنّ الموسيقى قد بدأت إلاّ عندما أدارت لنا لوكريثيا ظهرَها لتنظرَ إلى مؤخَّرة الصالة، حيث عزف الرجُلان في الدُّخان وشبهِ العتمة. كانت حركة واحدة، بريقٌ سرّيٌّ ووجيزٌ جدًّا مماثِلٌ لوَميض برقٍ أو لتلكَ النظرة الّتي يفاجئها المرءُ في المرآة. تحت تأثير الويسكي وفكرة السبعمائة دولار في جَيبي – آنذاك، أيُّ مبلغ كبير من المال كانَ يبدو لي غير محدود، ويفرضُ عليّ سيّارة الأجرة الاعتباطيَّة والمشروبَ الفاخر – حاولت بدءَ حديث مع لوكريثيا أمام بسمة الأميركيّ الثّمِلة واللطيفة، لكنْ في اللحظة الّتي صدحَت فيها الموسيقى، استدارت لوكريثيا وكأنّنا أنا ومالكولم غيرُ موجودَين؛ زمَّت شفتَيها، أزاحت شعرَها عن وجهها، وجمعَت يدَيها الكبيرتَين بين رُكبتَيها. قالَ مالكولم: «زوجتي تعشق الموسيقى»، وسكبَ لي من القنّينة في كأسي الخالية من الثلج. من الأرجح ألّا يكون ما أقوله صحيحًا تمامًا: عندما سمعْنا بيرالبو، لم تتوقّف لوكريثيا عن النظر إليّ،

لكنّي أعلم أنّـه عندما حصلَ فيها تحوُّلٌ لاحظناهُ معًا، أنا ومالكولم. شيءٌ كانَ يحْدث، لا على المسرح حيث مدَّ بيرالبو يدَيه فوق لوحة المفاتيح، ورفعَ بيلي سوان بوقَه ببطءٍ وصمْت، لكنْ بينهما – بين لوكريثيا ومالكولم – حول تلك الطاولة المليئة بالكؤوس المنسيّة في السكوت الّذي حاولَت تجاهُلَه وكأنّه رفيقٌ غدا فجأةً مزعجًا.

كانَ الليدي بيرد مكتظًّا بالناس، جميعهم يصفِّقون، ومصوِّران راكعان يحاصران بيلي سوان بأضواء آلتَي التصوير. أسندَ فلورو بلوم إلى البار جسمَه العريض مثلَ جسم حطّابٍ سكاندينافيّ – كانَ سمينًا، أشقرَ، سعيدًا، وعَيناه صغيرتَين وزَرقاوَين – ونحن، أنا ولوكريثيا ومالكولم، مهتمّون بالموسيقى من غير نتيجة: كنّا الوحيدينَ الّذين لا يصفّقون. مسحَ بيلي سوان جبينه بمنديل وقالَ بالإنكليزية شيئًا ختمَه بقَهقهةٍ فاحشة أعادت بعض التّصفيق الخجول. مقرِّبًا فمَه من الميكروفون وبصَوتٍ تعبٍ، ترجمَ بيرالبو كلماتِ الآخَرِ وأعلن عن المقطوعة التالية. عندها نظرتُ إليه مجدَّدًا. كانَ مالكولم يعيد متأمّلاً قراءةَ الإيصال الّذي أعطيتُه إيّاه منذ لحظات، ومن خلال الدُّخان وجدَتني عَينا بيرالبو، لكنّهما لم تكونا تبحثان عنّي، بل تحدّقان في لوكريثيا، وكأنْ لا وجود لأحدٍ غيرها في الليدي بيرد، وكأنّهما وحيدان بين حشدٍ يترصّد حركاتهما. وهو ينظر إليها، ذكرَ بيرالبو في الإنكليزية، ومن ثَمَّ في الإسبانية، عنوانَ المقطوعة الّتي كانا على وشك عزفها. اختلجتُ عند سَماعها بعد وقتٍ طويلٍ في مدريد: كانت في تلك الأسطوانة لبيلي سوان، واستمعتُ إليها وأنا

بمفردي، بلا حراكٍ أمام كدسة رسائل عبرَت عرضَ أوروبا ولامُبالاة الزمن للوصول إلى يديَّ، يدَي غريب. «كلُّ الأشياء الّتي أنت هي» قالَ بيرالبو؛ وبين تلك الكلمات والأنغام الأولى للمقطوعة، سادَ سكوتٌ قصير ولم يجرؤ أحد على التّصفيق. لاحظتُ عندها، شأني شأنُ مالكولم، البسمةَ الّتي أنارت عينَي لوكريثيا من غير أن تبلُغ شفتَيها.

لاحظتُ أنّ الغرباء يفتقرون إلى الحدِّ الأدنى من الاهتمام بإلغاء صداقتهم أو لطْفهم الفيّاض من دون إنذارٍ مُسبَق. تحت نظرة بيرالبو – ومن البار، كان فلورو بلوم أيضًا يراقبُنا – قالَ مالكولم إنّه، ولوكريثيا، عليهما الرحيل، ومدّ لي يدَه. بكلّ رصانة، وهي لم تقف بعدُ، أجابته بشيءٍ في الإنكليزية، كلمات سريعة، مهذَّبة وباردة. رأيتُه يُمسك كأسَه ويضعها مرّة أخرى على الطاولة ضاغطًا عليها بأصابعه الملطَّخة بالألوان، وكأنّه يفكّر في كسْرها. لم يفعل شيئًا: لاحظتُ – فيما لوكريثيا تخاطبُه – أنّ رأس مالكولم كان مفلطحًا نوعًا ما وكأنّه عِظائيّ. لم تكن هي منزعجة: لم تبدُ أنّ بإمكانها أن تنزعج أبدًا. كانت تنظر إلى مالكولم وكأنّ الحِسَّ المشترَك كافٍ لتَهدِئته، والعناية الّتي وضعتها في لفظِ كلِّ كلمة ممّا تقوله أبرزتْ نعومة صوتها في ما يشبهُ التهكّمَ الخفيّ. عندما عاودَ مالكولم الكلام فعلَ ذلك بإسبانيّة رديئة. زاد الغضب من رداءةِ لفظِه، وردَّه إلى طبيعته كأجنبيٍّ في بلدٍ ولغةٍ تواطأا على عِدائهما له. قالَ من غير أن ينظر إليّ، أو أن ينظر إلى أحدٍ سوى لوكريثيا: «أنتِ تعرفين لماذا أردتِ المجيءَ إلى هنا».

لم يُبالِ أيٌّ واحدٍ منهما بوجودي.

قرّرتُ التّركيز على السجائر والموسيقى. قبِل مالكولم بهدنةٍ. مُخرِجًا من جَيب سرواله الخلفيّ رزمةً من النقود، اقترب من البار وتحدَّث بعض الوقت مع فلورو بلوم، ملوِّحًا بالمال في يدِه اليُمنى مع شيءٍ من التَّباهي أو من الغضب. كانَ ينظرُ شزْرًا إلى لوكريثيا الّتي لم تقف، وإلى بيرالبو الغائب عند الجهة الأخرى من البيانو، بعيدًا جدًّا عنّا. رفع بيرالبو عينيه أحيانًا، عندها كانت لوكريثيا تنتصبُ بشكلٍ غيرِ ملحوظ، وكأنّها تنظر إليه من فوق جدار. تركَ مالكولم المالَ ضاربًا البار ضربة حادّة، وابتعد نحو عتمة مؤخَّرة المكان. عندها وقفت لوكريثيا، مُلغيةً وجودي، ومُحَتْني ببسمةٍ، كمَن يطرد الدُّخانَ، واتّجهَت نحو فلورو بلوم لتقول له شيئًا. قطعَ بوقُ بيلي سوان الهواء مثل سكّين مشهَر. كانت لوكريثيا تحرِّك يدَيها في وجهِ فلورو بلوم النَّعِس، وبلمحة حملَت ورقة وقلمًا. وفيما كانت تكتب بسرعة، راحت تراقب المسرح والرُّواقَ المضاءَ باللون الأحمر الّذي اختفى فيه مالكولم. طوتِ الورقةَ، مدّت جسمها لتخبِّئها من الجهة الأخرى للبار، وأعادت القلم إلى فلورو. عندما عاد مالكولم، بعد دقيقة على الأكثر، كانت لوكريثيا تشرح لي كيفيّة الوصول إلى منزلهما، وتدعوني إلى الغداء معهما في أيّ يوم. كانت تكذب بهدوءٍ وحِدّة، وتقريبًا بحنان.

لم يصافحني أيٌّ منهما عندما انصرفا. أُسدِلت ستارةُ الليدي بيرد خلفَهما وبدا دويُّ التصفيق مخصَّصًا لهما. لم أُعاود رؤيتهما معًا

قطّ. لم أحصل على الثمانمائة دولار، ولم أرَ مالكولم مجدَّدًا، كما لم أعاود رؤية لوكريثيا نفسِها: لوكريثيا الّتي رأيتها في ما بعد كانت واحدةً أُخرى، شعرُها أطول، أقلّ هدوءًا، وأكثر شحوبًا، عزيمتها واهنة، وعلى وجهها ذلك التعبير الرصين والمباشَر لمَنْ شاهدَ العتمة الحقيقيّة ولم يخرج منها سالمًا ولا من غير عقاب. بعد خمسة عشر يومًا من ذلك اللقاء في الليدي بيرد، رحلتْ هي ومالكولم في باخرة نقلٍ أوصلَتهُما إلى هامبورغ. صاحبةُ بيتِهما قالت لي إنّهما تركاهُ من غير دفعِ إيجار ثلاثة أشهُر. وحْدَه سانتياغو بيرالبو كانَ على علم بأنّهما راحلان، لكنّه لم يرَ قاربَ صيّادي السمك يبتعد بعد أن صعِدا إليه خفيةً عند منتصف الليل. لوكريثيا قالت له إنّ سفينة الشحن كانت بانتظارهما في أعالي البحر، ولم تشأ أن يأتي إلى المرفأ ليودِّعها من بعيد. قالت إنّها ستُراسله، وأعطته ورقة عليها عنوان في برلين. احتفظَ بيرالبو بالورقة في جيبه وربّما، وهو يعود بسرعة إلى الليدي بيرد بسببِ تأخُّر الوقت، تذكّر ورقة أُخرى، رسالة أُخرى كانت بانتظاره في إحدى الليالي منذ أُسبوعين، عندما انتهى من العزف مع بيلي سوان وذهب إلى البار ليطلبَ من فلورو كأس دجِنْ أو بوربون.

الفصل الرابع

أيّامَ الآحاد، كنتُ أستيقظ متأخّرًا جدًّا وأُفطر على الجِعة، لأنّي كنتُ أخجل أن أطلب القهوة مع الحليب في الحانة عند منتصف النهار. تشهد صباحات الآحاد الشتويّة، في بعض الأماكن من مدريد، ضوءًا هادئًا وباردًا ينقّي – كما في الفراغ – شفافية الهواء، وصَفاءً يجعل أركان الأبنية البيض أكثر حِدّةً ويُعطي الخُطى والأصوات صدًى كأنّها في مدينة مهجورة. كنتُ أحبُّ أن أستيقظ متأخّرًا وأن أقرأ الصحيفة في حانة نظيفة وخالية، وأشربَ ما يكفي من الجعة لأبلغ وقت الغداء في تلك الحالة من الخمول الواعدِ الّذي يجعل المرءَ يرى كلَّ شيءٍ وكأنّه يدقّق، وبيَده مذكّرة، في داخلِ قفيرٍ جُدرانُه من الزجاج. حوالى الساعة الثانية والنّصف كنتُ أطوي الصحيفة بعناية وأرميها في سلّة المهمَلات، فيُشعِرني هذا بالخفّة الّتي تجعل الطريق هادئة إلى أحدِ المطاعم الثريّة والقديمة، حيث طاولةُ الشُّرب من الزِّنك وقناني النبيذ المكعَّبةُ الشَّكل، ويعرِفني النُّدُل، إنّما ليس إلى درجة الأُلفة المزعجة الّتي طالما جعلتْني أهرب من أماكنَ مماثِلة.

وذاتَ أحدٍ، وأنا بانتظار الطعام على طاولة في أقصى الداخل، وصل بيرالبو مع امرأة جذّابة جدًّا. تأخّرتُ بعضَ الشّيءِ في معرفة أنّها نادلة الميتروبوليتانو الشقراء. ظهَرا متمهِّلَين ومتبسّمَين وكأنّهما أفاقا توًّا معًا. انضمّا إلى المجموعة بانتظار دَورِهما قرب

البار. راقبتُهما بعض الوقت قبل أن أُقرِّر أن أُناديَهما. فكّرتُ أنّه لم يكن يهمُّني أن يكون شَعرُ النادلة مصبوغًا. سرّحَت شَعرَها من غير أن تقف مطوَّلاً أمام المِرآة. كانت ترتدي تنّورة قصيرة وجواربَ رماديّة، وكان بيرالبو – وهُما يتحادثان، ماسكَين السجائر وكووسَ الجعة – يداعبُ برِفقٍ خصرَها وظَهرَها. لم تكن قد انتهت من تسريح شَعرها لكنّها وضعتْ على شفتَيها حُمرةً زهريّة اللون، خبّازيّة تقريبًا. تصوَّرتُ أعقاب السجائر الملطَّخة بهذا اللون في المنفضة الّتي على منضدةِ سرير، وفكّرتُ بكآبةٍ وحقدٍ أنّي لم أَحظَ قطُّ بامرأة مثلِها. عندها وقفتُ لأنادي بيرالبو.

النادلة الشقراءُ – اسمهُا مونيكا – أكلَت بسرعة ومشت فورًا، قالت إنّ عليها نَوبةَ عمل بعد الظُّهر في الميتروبوليتانو. عندما ودَّعتني، جعلَتني أعِدُها بأن نتلاقى فيما بعد وقبَّلَت وجهي قريبًا جدًّا من شفتَيّ. بقينا وحدَنا، أنا وبيرالبو، نتبادل النظرات بارتباكٍ وقلّة ثقة من خلال دخان السجائر والقهوة، كلٌّ واحدٍ منّا على معرفة بما يفكّر فيه الآخَر، متجنّبَين الكلمات الّتي قد تُرجِعنا إلى نقطة الانطلاق الوحيدة، إلى ذكرى عدّة ليالٍ مكرَّرة وعبثية تُختصَر بلَيلة واحدة أو اثنتَين. عندما كنّا وحْدنا، ولو صمَتنا، كان يبدو كأنْ لم يوجد في حياتَينا إلاّ الليدي بيرد وليالي سان سيباستيان البعيدة؛ ووعْيُنا لهذا التَّشابُه، وإصرارُنا المتبادَل بزمنٍ مهمَلٍ أو ضائعٍ، كان يفرض علينا محادثات غير مباشرة، وحذَرَ السُّكوت.

لم يبقَ إلّا القليل من الناس في القاعة، وكانت الستائر المعدِنيّة

نصْف مسدَلة. بشكلٍ غير متوقَّع تكلّمتُ عن مالكولم، لكنّ هذا كانَ ذريعة لِلفْظ اسمِ لوكريثيا، وتمهيدًا يسمح لنا بعدم ذِكرِها بصَوتٍ عالٍ بعدُ. أخبرتُ بيرالبو، بسُخريَة، قصّةَ اللوحات والثمانمائة دولار الّتي لم أرها بتاتًا. نظرَ حولَه وكأنّه أراد التثبُّت من عدم وجود مونيكا معنا، ثمّ أغْربَ في الضحك.

– هذا يعني أنّ مالكولم خدَعك أنت أيضًا.

– لم يخدعني. أُقسِم لك أنّني كنتُ أعْلم تلك الليلةَ أنّه لن يدفع لي.

– لكنّه أمرٌ لم يكن يهمّك، إنّما في الحقيقة يهمّه كثيرًا. من المؤكَّد أنّه دفع ثمن رحلته إلى برلين من مالِكَ. كانا يريدان الرحيل، لكنْ لم يكن باستطاعتهما فعْل ذلك. فجأةً، وصلَ مالكولم قائلاً إنّه رشَا قُبطان سفينة الشحن ليدَعَهُما يسافران في العنبر. أنت دفعتَ ثمن الرحلة.

– أهَذا ما قالتْه لكَ لوكريثيا؟

ضحك بيرالبو مرّة أُخرى وكأنّه هو موضوع المزحة، وارتشف القهْوة. لا، لوكريثيا لم تقل له شيئًا، لم تقل له شيئًا حتّى النهاية، حتّى اليوم الأخير. لم يكونا يتحدّثان بأشياءَ واقعيّة، وكأنّ السكوت حول ما كانَ يجري في حياتهما – وهُما لَيسا معًا – يحميهما بطريقةٍ أفضلَ من الأكاذيب الّتي تختلقها لتذهب كي تبحث عنه، أو أفضل من أبواب الفنادق المغلقة الّتي كانا يقصِدانها للتّلاقي نصْف ساعة، لأنّه لم يكن لديها دائمًا الوقت الكافي للوصول إلى شقّة بيرالبو،

والدقائق القادمة كانت تذوب بسرعة بعد المعانَقة الأولى. كانت تنظر إلى الساعة، ترتدي ثيابها، تُخفي الآثار الزهريّة اللون الّتي بقيَت على عنقها ببعض مسحوق الوجه الّذي اشتراه بيرالبو مرّة بطلَبٍ منها، حيث نظروا إليه في الحانوت بريبة. مِن غير أن يرضخ لوَداعها أمام المصعد، كان ينزل معها إلى الشارع ويشاهدها وهي تودِّعه من النافذة الخلفية لسيّارة الأجرة.

كانَ يفكّر في مالكولم، واحتمالِ وجودِه وحْده، منتظِرًا، مستعدًّا للبحث في ثيابها أو في شَعرها عن رائحة جسم آخَر. كانَ يعود إلى البيت أو إلى الفندق، ويتمدّد على السرير، ميتًا من الغيرة والوحدة، فيتسكّع بين الأشياء، جاهدًا في المهمّة المستحيلة لاستعجال الوقت، ومعالجة فراغ كلِّ ساعة من السّاعات، وربّما الأيّام الكاملة المتبقّية قبل أن يرى لوكريثيا مجدَّدًا. ما كانَ يرى أمام عينَيه إلاّ ساعاتِ اليَدِ الجامدةَ وشيئًا قاتمًا وعميقًا، كوَرَم، كظِلٍّ لا يخفِّفه أيُّ نورٍ وأيُّ هدنة، هو الحياة الّتي قد تكون تعيشها في هذه الأثناء مع مالكولم، في بيت مالكولم، حيث هو – بيرالبو – دخلَ مرّة خلسةً للحصول على صوَر، لا للحنان الوجيز والخائف الّذي حصل عليه هناك من لوكريثيا – كانا خائفَين من رجوع مالكولم، ولو أنّه كان خارج المدينة، وكلُّ ضجّة يسمعانها كانت صوتَ مفتاحه في القفل – بل لحياتها الأُخرى، الّتي ارتسمَت من حينها في ذهن بيرالبو، بدقّة الأشياء الحقيقيّة الّتي تضاهي دقّة الآلات الجراحيّة. ربّما بيتٌ متخيَّلٌ فقط، لم يزرْه قطّ، ما كانَ ليُغذّيَ ألَمه بفعالية الذكرى الواضحة

الّتي كانت لديه الآن منه. فُرشاة وشفرة حلاقة مالكولم على رفٍّ زجاجيٍّ تحت المرآة في الحمّام، مِبْذَل مالكولم الأزرق ذو القماش غير الممتصّ للماء، المعلّق خلفَ باب غرفة النوم، خُفّاهُ تحت السرير، صورَته على المنضدة قربَ المنبِّه الّذي قد يسمعُه كلَّ صباح وهو قرب لوكريثيا... رائحة عطْر مالكولم المنتشر في الغُرَف، والعابق من مَناشِفه، البؤسُ الوضيع لتلك الحميميّة الذُّكوريّة الّتي كانت تنفِر من بيرالبو وكأنّه مغتصِب. مَرسم مالكولم، الوسِخ جدًّا، مع العُلب المليئة بفَراشي الرسم وأنابيب التِّرْبَنْتِين، ونُسَخ لوحات معلّقة على الحيطان منذ وقتٍ طويل. فجأةً انتصبَ بيرالبو – الّذي كان يحدّثني وهو مسنِد ظهره إلى كرسيِّه، مبتسمًا وهو ينفض رماد سيجارته في صحن فنجان القهوة – ونظر إليّ محدِّقًا لأنّه وجد توًّا في ذاكرتِه شيئًا لم يكن يتذكّره حتّى ذلك الحين، كتِلك الأغراض الّتي نعثر عليها أحيانًا حيث لا يجب أن تكون، ما يجعلنا ننظر حقًّا إلى ما لم نكن نراه.

– أنا رأيتُ تلك اللوحات الّتي بعتَه إيّاها، قال لي. – حينها أيضًا، ولِدَهْشته، كانَ يراها مجدّدًا، ويخشى أن تضيع منه دقّةُ الذكرى – في إحداها كانت امرأةٌ رمزيّةٌ، امرأة ذات عينَين معصوبتَين، تحمل شيئًا في يدها...

– كأسًا... كأسًا ذاتَ صليب.

– ... شَعرُها أسْود وطويل، وجْهها مستدير، ناصع البياض، أحْمر الوَجْنتَين.

كنتُ أردتُ أن أسأله إن هو يعرف شيئًا عن مصير تلك اللوحات، لكنّه لم يعد يهمّه كثيرًا ما أقوله له. كان يرى شيئًا بوضوح رفضَته ذاكرتُه حتّى الآن، رُكودَ الزمن، إذ رؤيةُ لوحة لم يجهد قطّ لِتذكُّرها ربّما كانت تُرجِع له ساعات كاملة من ماضيه مع لوكريثيا، وتدريجيًّا، في أقلّ من ثانيةٍ، كالضَّوءِ الّذي سُلِّط على وجْه شخص ثمّ امتدَّ ليُنير غرفة بكاملها، كانت عَيناه تكتشفان الأشياء الّتي رآها تلك الليلة حول اللوحة: قرب لوكريثيا، الخطر أن يعود مالكولم، ضوء آخِرِ أيلولَ المزعجُ السائد آنذاك في جميع الغرَف حيث كانا يلتقيان من غير أن يدريا أنّهما يستنفدان الوقتَ المتبقّي لهما قبل فراق ثلاثة أعوام.

– مالكولم كانَ يراقبنا، قال بيرالبو. كانَ يراقبني أنا. ومرّة رأيتُه يحوم حول مدخل بَيتي، كشُرطيٍّ أخْرقَ، واقفًا مع جريدة في الزاوية، أو شاربًا كأسًا في الحانة المقابِلة. أولئك الأجانبُ يثقون كثيرًا بالأفلام. في بعض الليالي، كانَ يذهب وحده إلى الليدي بيرد وينظر إليّ وأنا أعزف، وهو جالسٌ في أسفل البار، مدّعيًا أنّه مهتمّ كثيرًا بالموسيقى أو بمُحادثة فلورو بلوم. لم أكن أُبالي، حتّى إنّ ذلك كان يُضحكني قليلاً. لكن في إحدى الليالي نظرَ إليّ فلورو برصانةٍ وقال: انتبِه. هذا الرَّجُل يحمل مسدَّسًا.

– هل هدَّدك؟

– هدَّد لوكريثيا بطريقة مبهَمة. كان يتعرّض أحيانًا للمَخاطر في أشغاله. أعتقِد أنّهما لم يكونا ليذهبا بهذه السرعة لو لم يكن

مالكولم خائفًا من شيءٍ ما. كان يتعامل مع أشخاصٍ خطِرين، ولم يكن شجاعًا جدًّا كما بدا. بعد فترة وجيزة من شراء لَوحاتك قامَ برحلة إلى باريس. وقْتها ذهبتُ إلى بيته. عند عَودته قال لِلوكريثيا إنّ كثيرين يريدون خِداعه، وسحبَ مسدَّسه، ووضعَه على الطاولة وهُما يتناولان طعام العشاء، ثمّ تَظاهر بتنظيفه. قال إنّه ملأ مشطًا كاملاً لِمَن يريد خِداعَه.

– تبَجُّحٌ! قلتُ، تبَجُّحُ زوج مخدوع!

– قد أُقْسم أنّه لم يقم بتلك الرحلة إلى باريس. قال لِلوكريثيا إنّه ذاهب لرؤية لوحات؛ لا أدري أيّ لوحاتٍ في المتحف، لوحات لِسيزان، أذْكرُ ذلك. كذبَ عليها ليتجسَّس علينا. أنا على يقينٍ أنّه رآنا ندخل بيتَه وانتظرَ قريبًا مِن هناك. من المحتمَل أن تكون رغبة قد راودَته في الصُّعود ومفاجأتِنا، لكنّه لم يجروْ أن يفعل.

عندما أخبرني بيرالبو ذلك شعرتُ بقشعريرةٍ. كنّا على وشكِ أن نَفرَغ من شربِ القهوة، والنُّدُل الّذين كانوا قد أعدّوا الطاولات للعشاء، ينظرون إلينا من دون أن يُخْفوا نفاد صبرِهم. كانت الساعة الخامسة بعد الظُّهر وعبْر الراديو كان صوتٌ يعلّق بحماسة على مباراة كرة قدَم، لكنّي فجأةً رأيت، من فوق، كما نشاهدُ في الأفلام، شارعًا شعبيًّا في سان سيباستيان حيث رجلٌ واقفٌ على الرصيف، يرفع عينَيه إلى نافذة، ويداهُ في جَيبَيه، معه مسدّس ويتأبّط صحيفة، وهو يطأ الرصيف المُبْتلّ بقوّةٍ ليُزيل خدَر رِجليه. بعدها أدركتُ أنّ بيرالبو كانَ يخاف شيئًا من هذا القبيل عندما كان يُطلّ

من نافذة غرفته في الفندق في مدريد. رجُلٌ ينتظر، ويختبئ، ليس تمامًا بل بعض الشيءِ، بالقدر الّذي يكفي مَن عليه رؤيتُه أن يُدرك أنّه موجود فعلاً ولن يرحل.

وقَفنا. دفع بيرالبو الحساب، ورفض مالي قائلاً إنّه لم يعُد ذلك الموسيقيَّ البائس. خرجنا إلى الشارع، ولكنْ على الرغم من أنّ الشمس كانت لا تزال تنير الطبقات العليا من المباني، والنوافذ الكبيرة، وبُرج فندق فيكتوريا الشّبيه بالمنارة، سادت أواخِرَ الشارع عتمةٌ نحاسيّة، وبردٌ ليليٌّ في مداخل البيوت. اعتراني الشعور القديم بالقلق في المساءات الشتويّة، وكنتُ شاكرًا لبيرالبو حين اقترحَ بسرعةٍ للكأس الثانية مكانًا محدَّدًا، ليس الميتروبوليتانو، بل إحدى الحانات الهادئة الخالية ذاتِ البار المنجَّد. في مثل هذه الأمساء، ما من رفقة تخفّف الحزن، من بريق الكشّافات المضيئة على الإسفلت، والإعلانات المضاءة في أعالي عتمة الغسَق الّتي لا تزال تحافِظ في البعيد على حدود محمرّة. لكنّي كنتُ أُفضّل أن يكون معي أحد، وأن يُعفيَني هذا الوجودُ من خيار العودة، العودة إلى بيتي وأن أمشي على أرصفة مدريد العريضة.

– ذهَبا بسرعة وكأنّ أحدًا يلاحقهما، قال بيرالبو بعد حانتَين وكأسَي دجِنْ من غير فائدة؛ قال ذلك وكأنّ تفكيره قد توقَّف عندما انتهَينا من الأكل وكفَّ هو عن التكلّم عن لوكريثيا ومالكولم.

– إذ إنَّهما إلى ذلك الحين كانا يفكّران في الإقامة بشكلٍ نهائيّ في سان سيباستيان. كانَ مالكولم يريد أن يفتح صالة عرضٍ، حتّى إنّه

كانَ على وشكِ استئجار محلّ. لكنّه عادَ من باريس أو من حيث كان طَوال ذَيْنكَ اليَومَين، وقال لِلوكريثيا إنّ عليهما الذهاب إلى برلين.

– ما أراده هو إبعادُها عنك، قلتُ. كانت الكحول تزوّدني وعيًا سريعًا لكشْف حياة الآخرين.

كانَ بيرالبو يبتسم وهو ينظر مليًّا إلى مقياس الدجِنْ في كأسه. قبْل أن يجيبني أنْزَله حوالي السَّنتيمتر.

– في فترة من الزمان كانَ هذا كإطراءٍ لي، أمّا الآن فلم أعُد متأكّدًا منه. أعتقِدُ أنّ مالكولم لم يكن في الواقع يُبالي بأن تضاجعني لوكريثيا من وقتٍ لآخَر.

– أنت لا تعرف كيف كانَ ينظر إليك تلك الليلة في الليدي بيرد. كانت عَيناه زرقاوَين ومستديرتَين، هل تذكُر؟

– ... لم يكن الأمر يهمّه لأنّه كان يعرف أنّ لوكريثيا له وحْده دون سواه. كان بإمكانها أن تبقى معي، لكنّها رحلَت معه.

– كانت تخاف منه. رأيتُ ذلك تلك الليلة. قلتَ لي إنّه هدَّدها بالمسدّس.

– تسعة ملّيمترات، طويل. لكنّها كانت تريد الرحيل. بكلّ بساطة، استغلّت الفرصة الّتي هيّأها لها مالكولم. قارِبُ صيّادي سمَك أو مهرِّبين، سفينة شحنٍ ذات لوحة تسجيل في هامبورغ، كانت على الأرجح تحمل اسمَ امرأة، بيرتا أو لوتي، أو شيئًا من هذا القبيل. لوكريثيا قرأت الكثير من الكتب.

– كانت مغرَمة بك. أنا أيضًا رأيت ذلك. كانَ في وسع أيّ

شخصٍ نظرَ إليها تلك الليلةَ ملاحظةُ ذلك، حتّى فلورو بلوم. تركَت لك رسالة، لا؟ رأيتُها تكتبها.

على نحوٍ مضحكٍ كنتُ مصرًّا على أن أبرهِن لبيرالبو أنّ لوكريثيا كانت مغرمة به. بعدم اكتراث، وامْتنانٍ متحفِّظ، أكْمل الشرب وتركني أتكلّم. كانَ ينفثُ الدُّخان من فمه من دون أن يحرِّر السيجارة من شفتيَه، مغطِّيًا ذقنه وفمه باليَد الّتي تحملها. كنتُ أجهل دائمًا ما وراء بريقِ عينَيه اليقِظ. ربّما كان لا يزال يرى، لا ألَمه أو كلماتي الحازمة، بل الأشياءَ التافهة الّتي، ومن غير أن يدركها، كانت قد نسجَت حياتهما، تلك الرسالة مثلاً الّتي احتوَت على موعدٍ بساعتِه ومكانه، والّتي احتفَظ بها وقتًا طويلاً، حتّى عندما أصبحَت تبدو له بقيّةً من حياة رجُل آخَر، على غرار الرسائل الّتي عهِد بها إليَّ، والّتي لم أقرأها ولن أقرأها أبدًا. كانَ يقوم بحركاتٍ تدلُّ على نفادِ الصبر، ينظر إلى ساعته، قال إنّه لم يتبقَّ له الكثيرُ من الوقت، إذ عليه الذَّهاب إلى الميتروبوليتانو. تذكَّرتُ ساقَي النادلةِ الشقراء النحيلتَين، وابتسامتها وعطْرها. كنتُ أنا فقط المصِرَّ على متابعة الأسئلة. كنتُ أرى نظرة مالكولم في الليدي بيرد وأنسِبُها إلى رجلٍ ينتظر شيئًا ويتمشّى ببطءٍ تحت نافذة، أحيانًا بلا حراك، في مطر سان سيباستيان الخفيف.

في هذا الوقت، كانَ بيرالبو عند لوكريثيا في بيتها، حيث ضربَت له موعدًا، ربّما كانت هي مَنِ اقترحت على مالكولم قبل يومين أن يلتقيَني في الليدي بيرد... إذا كانَ يراقبها دائمًا، فبأيّ طريقة أُخرى

كانت لوكريثيا استطاعت ترْك تلك الرسالة لبيرالبو؟ أدركتُ أنّي كنت أحلّل في الفراغ: إذا كانَ مالكولم ضعيف الثقة إلى هذا الحدّ، وإذا كانَ يشعر بأدنى تغيُّر في نظرة لوكريثيا، وكانَ واثقًا أنّها ستعود لتلتقي بيرالبو ما إن يكفَّ عن مراقبته لها، فلماذا إذًا لم يأخذها معه عندما ذهب إلى باريس؟

الخميس، عند السابعة في بيَتي، اتَّصلْ بي هاتفيًّا، ولا تتكلّم قبل أن تسمع صَوتي. هذا ما جاءَ في الرسالة، والإمضاء، كما في الرسائل الأُخرى،كانَ حرفًا واحدًا: ل. كانت قد كتبتْها على عجَلٍ لدرجة أنّها نسيَت وضْع الفواصل، قال لي بيرالبو، لكنّ خطّها كانَ رائعًا كالمَوجود في دفتر فنِّ الخطّ. خطٌّ مائلٌ، دقيق، شبه ودود كدَليل تهذيبٍ، مشابِهٍ للابتسامة الّتي خصّتني بها لوكريثيا حين قدّمَنا مالكولم الواحدَ للآخر. ربّما ابتسمَت له بهذه الطريقة حين ذهبَت معه إلى المحطّة وودَّعَته مِن علىٰ الرصيف. ثمّ استدارت، وصعدَت في سيّارة الأجرة ووصلَت إلى البيت في الوقت المناسب لاستقبال بيرالبو. بنفس البسمة، فكّرتُ، وسُرعان ما شعرتُ بالنّدم: كان على بيرالبو، وليس عليّ، التفكير في هذه المسائل.

– هل رأته يرحل؟ سألتُ، هل أنت واثق أنّها انتظرَت حتّى رحلَ القطار؟

– وكيف تريدني أن أتذكّر؟ أعتقِد ذلك، وأنّه اقترب من نافذة القطار ليودّعها. لكنّه تمكّن من النزول في المحطة التالية عند حدود مدينة إيرون.

– متى عادَ؟

– لا أدري. أعتقِد أنّه غاب يومَين أو ثلاثة. لكنّي بقيتُ حوالى أسبوعَين من دون أن أعرف شيئًا عن لوكريثيا. طلبتُ إلى فلورو بلوم أن يتّصل ببَيتها لكنْ لا أحد كانَ يجيب، ولم تعد تترك لي رسائل في الليدي بيرد. في إحدى الليالي تجاسرتُ واتّصلتُ، رفع أحدٌ السمّاعة، لا أدري إن كان مالكولم أم هي، وأقفل الخطّ من غير أن يقول أيّ شيءٍ. كنتُ أجول في شارِعها وأُراقب مدخل بيتِها من المقهى المقابل، لكنّي لم أرَهُما يخرجان قطّ، وحتّى في الليل ما استطعتُ معرفة إن كانا في البيت، إذ إنّ دِرَف الشبابيك كانت مغلقة.

– أنا أيضًا اتّصلتُ بمالكولم لأُطالبَه بالثمانمائة دولار.

– هل تكلّمت معه؟

– كَلّا! طبعًا! هل كانا يختبئان؟

– أعتقِد أنّ مالكولم كان يخطّط لهروبهِما.

– ألم تُعطِك لوكريثيا أيَّ تفسير؟

– فقط قالت لي إنّهما ذاهبان. لم يتّسع لها الوقت لتقول لي المزيد.

كنتُ في الليدي بيرد، وكان الليل قد هبط، لكنّ فلورو لم يكن قد فتحَه بعد. كنتُ أتمرّن على البيانو وهو يجهّز الطاولات، عندها رنّ الهاتف. توقّفتُ عن العزف، مع كلّ رنّة كان قلبي يتوقّف. كنتُ موقِنًا هذه المرّةَ أنّها ستكون لوكريثيا وخشيتُ أن يتوقّف الهاتف عن الرّنين. تأخَّر فلورو بلوم كثيرًا في الرّد... تعرفُ كيف يمشي

ببطءٍ... عندما أجاب، كنتُ واقفًا في وسط الحانة. لم أجرؤ على الاقتراب. قال فلورو شيئًا، نظرَ إليّ، محرِّكًا رأسَه كثيرًا، قالَ «نعم» عدّة مرّات وأقفلَ الخطّ. سألتُه مَن اتّصَل؟ «مَن سيكون؟»، أجاب، «لوكريثيا. إنّها بانتظارك بعد خمس عشرة دقيقة في أرْوِقة ساحة الكونستيتوثيون».

كانت ليلةً من أوائل تشرين الأوّل، إحدى تلك الليالي السابقة لأوانِها، والّتي تفاجئُ المرءَ عندما يخرج إلى الشارع كمَن يُفيق في قطار أخذَه إلى بلدٍ حلَّ فيه فصلُ الشتاء. كان الوقت لا يزال مبكّرًا، وكان بيرالبو قد وصل إلى الليدي بيرد والضوءُ المتبقّي في الجوّ أصفرُ دافئٌ، لكن عندما خرج كان الليل قد هبط والمطر يشتدُّ بغيظٍ كغَيظِ البحر نفسِه على أرصفة المرفأ. أخذ يركض وهو يبحث عن سيّارة أجرة، لأنّ الليدي بيرد كان بعيدًا عن وسط المدينة، على حدود الخليج تقريبًا، وعندما وقفَ أخيرًا أحدُ السّائقين كان مبتلاً ولم يتمكّن من تسميَة المكان الّذي كان يقصِده. نظرَ في العتمة إلى ساعةِ لوحةِ القيادة المضاءة، ولمّا لم يكن يعرف في أيِّ ساعةٍ خرج من الليدي بيرد، وجد نفسَه تائهًا في الزمان، ولم يكن يعتقدُ إطلاقًا أنّه سيَصل إلى ساحة الكونستيتوثيون. فلو وصل، ولو وجدت سيّارة الأجرة طريقَها في فَوضى الشوارع والسيارات الأُخرى، وراءَ ستارةِ المطر الّتي سرعانَ ما تنغلق بعد أن تفتحها المسّاحات، فمِن الأرجح أن تكون لوكريثيا قد رحلت من خمس دقائق أو خمس ساعات، لأنّه لم يعد يعرف كيف يحسبُ تقدُّمَ الوقت.

لم يرَها عندما نزل من سيّارة الأجرة. الأعمدة الكهربائيّة لم تكن قادرة على إنارة داخلِ الأروِقة القاتم والرَّطب. سَمِع سيّارة الأجرة تبتعد وبقي بلا حراك بينما كان خَدَرُه يبدِّد عجَلته حتّى العدم. لِلحظةٍ بدا كأنّه لم يعد يذكر لماذا ذهب إلى تلك الساحة الخالية والمعتِمة جدًّا.

– عندها رأيتُها، قال بيرالبو، مِن دون أيّ مفاجأة، كما لو أنّي أُغمِضُ الآن عينيَّ وأفتحهما فأراك أنت. كانت مستنِدة إلى الجدار، قربَ أدراج المكتبة، تقريبًا في العتمة، لكنْ من بعيدٍ كان يمكن رؤية قميصها الأبيض. كان قميصًا صيفيًّا، لبسَت فوقه سُترةً كحْليّة اللون. فهِمتُ من طريقة ابتسامتها أنّنا لن نتعانق. قالت لي: «هل رأيتَ كم تمطر؟» أجبتُها: «دائمًا تمطر هكذا في الأفلام عندما يكون الناس على وشكِ الوَداع».

– أهكذا تكلّمتما؟ قلتُ – لكنّ بيرالبو لم يبدُ فاهمًا لتعجُّبي – بعد أسبوعين من الفراق، أهذا كان كلُّ ما لدَيكما لتقولاه؟

– هي أيضًا كان شَعرُها مبلَّلاً. لكنْ هذه المرّة لم يكن في عينَيها أيُّ بَريق. كانت تحمل كيسًا من البلاستيك لأنّها قالت لمالكولم إنّها ستجلبُ فستانًا، يعني أنّه لم يتبقَّ لدَيها سوى بعض الدقائق لتمضيَها معي. سألَتْني لماذا كنتُ أعرف أنّ ذلك اللقاء سيكون الأخير. «من الأفلام»، قلت لها. «عندما تمطر بهذا المقدار، هذا يعني أنّ أحدًا ما سيرحل إلى الأبد».

نظرتْ لوكريثيا إلى ساعتها – كانت هذه الحركةَ الّتي خشيها

بيرالبو دائمًا منذ تعارفا – وقالت إنّه لم يعد أمامها سوى عشر دقائق لتشرب القهوة. دخلا الحانة الوحيدة المفتوحة في الأروِقة، مكانًا وسخًا مشْبَعًا برائحة السّمك، بدا لبيرالبو أمرًا مهينًا – لا يُعوَّض – أكثرَ من سرعة الوقت وغرابة لوكريثيا. في بعض المناسبات يتأخّر المرءُ هُنَيهةً ليتقبّل الغياب المُباغِت لكلّ ما كان يمتلكه: كما النُّور أسْرع من الصوت، هكذا الإدراك أسرع من الألم، ويُبهرُنا كالبرق الّذي يلمع في السكوت. لذلك، تلك الليلة، لم يكن بيرالبو يحسّ بشيءٍ وهو يتأمّل لوكريثيا، ولم يكن يفهم كلّيًّا ما تعنيه كلماتُها ولا التعبيرُ الّذي يرتسم على وجهها. الألم الحقيقيُّ أتى بعد عدّة ساعات، حينها حاول عبثًا أن يتذكّر كلّ كلمة قالاها. عرف أنّ الغياب كان ذلك الشعورَ الحياديّ بالفراغ.

– لكنّها لم تقل لك لماذا رحلا بهذه الطريقة؟ لماذا في سفينة شحنِ المهرِّبين وليس في طائرة أو قطار؟

هزّ بيرالبو كتفَيه: لا، لم يخطر ببالِه أن يطرح عليها تلك الأسئلة. ورغْم معرفته جواب لوكريثيا، طلب إليها أن تبقى، طلب من غير أن يتوسّل، مرّة واحدة. «مالكولم قد يقتلني» قالت لوكريثيا، «أنت تعرف طباعَه. البارحة أراني ذلك المسدّس الألمانيّ مرّة أُخرى». بَيد أنّها كانت تقول ذلك بطريقة لا توحي بخَوفها أمام مَن يسمعها، وكأنّ إمكانيّة أن يقتلها مالكولم لم تكن مخيفة أكثر من الوصول متأخّرة إلى موعد. لوكريثيا كانت هكذا، قال بيرالبو بهدوءِ مَن فهِم أخيرًا: فجأةً كانت تنطفئ فيها كلُّ إشارة حماسيّة وكانت تنظر كما

لو لم يكن يعني لها شيئًا أن تخسر كلَّ ما حصلَت عليه أو رغبَت فيه.

بيرالبو أوضحَ: كما لو أنّي لم أعْنِ لها شيئًا البتَّة.

لم تذُق قهوتها. قاما معًا، جامدَين بلا حراك، تفصلُ بينهما الطاولة وضجّةُ الحانة، وكأنّهما باتا يسكُنانِ المكان المقبِل الّذي سيَنفيهما إليه البُعد. نظرَت لوكريثيا إلى ساعتِها وابتسمَت قبل أن تقول إنّها ذاهبة. للحظةٍ بدَت بسمتُها مماثلة لبسْمتها منذ خمسة عشر يومًا، عندما ودَّعَته قبل الفجر قرب بابٍ كُتِب عليه بأحرف ذهبيّة اسمُ مالكولم. كان بيرالبو لا يزال واقفًا، لكنّ لوكريثيا كانت قد اختفَت في منطقة الأروِقة المعتمة. وعلى ظَهر بطاقة التعريف الخاصّة بمالكولم كتبَت بالرَّصاص عنوانًا في برلين.

الفصل الخامس

ذلك اللحن، «ليشبونة»، كنتُ أسمعه وأعود مجدَّدًا إلى سان سيباستيان بتلك الطريقة الّتي يرجع فيها المرءُ إلى المدُن في الأحلام. المدينة تُنسى أسرع ممّا يُنسى الوجه: يبقى تأنيبُ الضمير أو الفراغ حيث كانت الذاكرة قبلاً، وكما الوجهُ، تبقى المدينة غير ممسوسة فقط هناك حيث لم يستطع الوعيُ هدْرَها. نحلم بها، لكنّنا لا نستحقّ دائمًا ذكرى ما نراه ونحن نيّامٌ. وفي كلّ الأحوال نخسرها بعد بضع ساعات، بل ما هو أسوأ، بعد بضع دقائق، ونحن ننحني تحت الماء البارد في المغسلة أو نحتسي القهوة. مِن آفة النِّسيان غير الكامل بدا سانتياغو بيرالبو منيعًا. كانَ يقول إنّه لم يكن يتذكّر سان سيباستيان إطلاقًا، وإنّه كانَ يتوقُ إلى أن يكون كأبطال الأفلام الّتي تبدأ سيرة حياتهم عندما تبدأ أحداث الفيلم، والّذين ليس لهم ماضٍ، بل صفات مميَّزة. ليلة الأحد الّتي أخبرني فيها عن رحيل لوكريثيا ومالكولم - كنّا قد عاودْنا الشربَ بإفراط وهو وصلَ متأخّرًا إلى الميتروبوليتانو شبهَ ثمِلٍ - قال لي لحظة الوداع: «تخيَّلْ أنّه رأى واحدُنا الآخرَ لأوّل مرّة هنا، لم ترَ أحدًا تعرفه، بل رجلاً واحدًا فقط كانَ يعزف على البيانو». مشيرًا إلى يافطة كانت تعلن عن أداء فرقته، أضاف: «لا تنسَ، أنا الآن جياكومو دولفين».

لكنّ تأكيده أنّ الموسيقى بلا ماضٍ كانت كذبًا خالصًا، إذ إنّ معزوفته، «ليشبونة»، لم تكن إلا الشعور المحْضَ بالوقت الشفّاف

وغير الملموس، وكأنّه محفوظ في قارورة من الزجاج محكَمةِ السَّدِّ. كانت ليشبونة، وكانت أيضًا سان سيباستيان، بالطريقة نفسها الّتي نرى فيها، في الحلم، رجلين مختلفَينِ في وجهٍ واحد، من دون أن يثير ذلك أيَّ غرابة. في البدءِ كانَ يُسمَع ضجيجٌ يشبه صوتَ إبرةٍ تدور في فترة صمتِ أسطوانة، وبعدَها نكتشفُ أنّ ذلك الضجيج هو صوتُ الفُرشاة الّتي تلمس بشكلٍ دائريٍّ الصحونَ المعدِنية للدرامزْ، وهو ضرباتٌ مماثِلة لنبضاتِ قلبٍ قريبٍ. وبعد فترة كان البوقُ يرسم لحنًا حذرًا. عزف بيلي سوان وكأنّه خائف أن يوقظ أحدًا، وبعد دقيقة بدأت تُسمع دقّاتُ بيانو بيرالبو الّذي يشير بتردُّد إلى طريقٍ، بدا يفقدُه في العتمة، ويعود بعدها في ذروة الموسيقى، ليَكشف عن صيغة اللحن الكاملة، وكأنَّ المرء يعلو، بعد أن يتيهَ في الضّباب، إلى قمّة هضبة يمكنه منها رؤية مدينة وسَّعَها النور.

لم أذهب البتَّةَ إلى ليشبونة، ولم أعُد أذهب إلى سان سيباستيان منذ سنوات. أحتفظُ بذكرى واجهاتٍ ذات لونٍ حديديٍّ، وشُرُفاتٍ من حجرٍ سوَّدَها المطر، وكورنيش بحريٍّ أحاطَ بتلَّةٍ مشجَّرة، وجادةٍ شبيهة ببولفارٍ باريسيٍّ حدَّدها صفّانِ من أشجار التمر الهندي العارية في الشتاء، متوَّجةً في شهر أيّارَ بعناقيدَ غريبة من الأزهار ذات اللون الزهريّ الباهت، مماثِل جدًّا لِلَونِ زبَد الأمواج في أَمْسية الصَّيف. أذكرُ الفيلاّتِ المهجورة قبالةَ البحر، الجزيرةَ والمنارة في قلبِ الخليج، والأضواءَ الخافتة الّتي تطوِّقها في الليل فتعكسُها المياهُ باختلاج كنجومٍ غوّاصة. بعيدًا، في العمق، بانت لافتةُ الليدي بيرد

الزرقاء والزَّهرية، مع خطِّها من النِّيون، والمراكبُ الشراعية الراسية وعلى صدورها أسماءُ نساءٍ أو أسماءُ بلاد، وزوارقُ الصيد الّتي فاحت منها الرائحة الحادّة للخشب المبلول والبنزين والطُّحلب.

إلى أحد تلك الزوارقِ صعد مالكولم ولوكريثيا، ربّما وهُما خائفان من فقدانِ اتّزانهما وهما يحملان حقائبَهما فوق طقطقة المعبر واهتزازه. حقائب ثقيلة جدًّا، مليئة باللوحات القديمة والكتب، وبكلِّ تلك الأشياء الّتي لا يعزم المرءُ على تركِها عندما يقرّر الرحيل إلى الأبد. وبينما كانَ الزورق يدخل العتمة، لا بدَّ أنّهما سمِعا بارتياح ارتجاجَ المحرِّك في المياه. ربّما الْتَفتا لرؤيةِ منارة الجزيرة من بُعد، وآخر ظلّ للمدينة المضاءة، الغارقة ببطءٍ وراء البحر. أعتقِد أنّه في تلك الساعة بالذّات كانَ بيرالبو يشرب البوربون الصِّرف بلا ثلجٍ على بار الليدي بيرد، قابلاً من فلورو بلوم تضامنَه الرجوليّ الكئيب. تساءلتُ إنْ تمكّنَت لوكريثيا من تمييز أضواء الليدي بيرد البعيدة، أو حاولتْ أن تفعل ذلك.

من دون شكٍّ بحثَتْ عنها عندما عادت إلى المدينة بعد مرور ثلاث سنين وسُرَّت عندما وجدَتها لا تزال مضاءة، لكنّها لم تعُد تريد الدخول هناك، لم تكن تستهويها زيارةُ الأماكن الّتي مكثَت فيها، ولا رؤيةُ الأصدقاء القدامى، ولا حتّى فلورو، شريكها الهادئ في أعذارها ومواعيدها السابقة، ساعي البريد الجامد.

لم يعد بيرالبو يعتقد أنّها قد تعود أبدًا. غيّر حياته خلال تلك السنوات الثلاث. ضاق ذرعًا بخِزْيِ العزف على الأُرغن الكهربائيّ

في حانة ڤيينّا وفي أعياد الضواحي البائسة. حصل على عقدِ أستاذ موسيقى في مدرسة كاثوليكية للبنات، لكنّه استمرّ يعزف بعضَ الليالي في الليدي بيرد، رغم أنّ فلورو بلوم – الّذي استسلم بوَداعة للإفلاس بسبب عدم وفاء الشِّرّيبة الليليّين – كانَ بالكدّ يستطيع أن يدفع أجره، حتّى كؤوس البوربون. كانَ يستيقظ عند الساعة الثامنة، يشرح السولفيج، يتكلّم عن ليزت وشوبان وعن «السوناتا في ضوء القمر» في صفوف مليئة بمراهقين ذوي بِزّاتٍ زرقاءَ، وكانَ يعيش وحيدًا في بناية على ضفّة النهر، بعيدًا عن البحر. كانَ يذهب إلى وسط المدينة في قطار الضواحي الّذي يدْعونه «الخُلد» وينتظر رسائل لوكريثيا. في تلك الفترة لم أره تقريبًا البتّة. سمعتُ أنّه ترك الموسيقى، وأنّه كانَ يريد مغادرة سان سيباستيان، وأنّه امتنع عن شرب الخمر، وأنّه أصبح مدمنًا الخمر، وأنّ بيلي سوان طلب إليه أن يعزف معه في عدّة ملاهٍ ليليّة في كوبنهاغن. صادفتُهُ في إحدى المرّات وهو ذاهبٌ إلى عمله: كانَ شعره مبلّلاً ومسرَّحًا بسرعة، وبَدا وديعًا أو ضائعًا بحسب طريقة عقدِه لربطة العنق أو حمله حقيبة بسيطة حفظ فيها مسابقاتٍ ربّما لم يكن قد صحّحها. كانَ عليه مظهرُ الفارِّ الرّديءِ ويتمشّى دومًا وعيناه محدِّقتان إلى الأرض، على عجلة من أمره، وكأنّه متأخّر، وكأنّه يهرب بلا اقتناع من يقظة مزعجة. التقَيتُهُ مصادفة ذات ليلة في حانة بالجزء القديم من المدينة، في ساحة الكونستيتوثيون. كانَ ثملاً بعض الشيءِ، ودعاني إلى كأس وقال لي إنّه كانَ يحتفل بعيد مولده الواحد والثلاثين، وإنّه ابتداءً من سنٍّ

معيّنة يجب على المرءِ الاحتفالُ بأعياد مولده وحيدًا. حوالى منتصف الليل دفع وانصرف بلا ضجيج، كانَ عليه أن يستيقظ باكرًا، شرح لي زاجًّا رأسه في قَبّة معطفه وهو يُغرق يدَيه فيه ويتأبّط حقيبته. كانت له حينها طريقةٌ في الانصراف غريبةٌ ونهائية: عند الوداع كانَ يغرق فجأة في الوَحدة.

كانَ يكتب الرسائل وينتظرها. ابتنى تدريجيًّا حياة خفيّة لا يتدخّل فيها مرور الوقت ولا الواقع. كلّ مساء، عند الخامسة، حين ينتهي من التدريس، كانَ يصعد في «الخلد» ويعود إلى منزله وربطةُ عنقِه القاتمةُ اللون معقودة، كجابٍ، وحقيبته تحت ذراعه، يقرأ الجريدة خلال الرحلة القصيرة، أو ينظر إلى الأبنية العالية والمزارع المبعثرة على الهضاب. بعدها كانَ يقفل باب منزله بالمفتاح ويستمع إلى الأسطوانات. كانَ قد اشترى بيانو عموديًّا بالتقسيط، لكنّه نادرًا ما يعزف عليه. كانَ يفضّل أن يستلقيَ ويدخّن وهو يسمع الموسيقى. لم يُعِد سماع هذا العدد من الأسطوانات ولا كتابةَ هذا العدد من الرسائل قطّ. قبل أن يسحب مفتاح باب المدخل، كانَ ينظر، وهو لا يزال في الشارع، إلى صندوق البريد الّذي ربّما يحتوي على رسالة، وكان يضطرب عند فتحه. خلال السنتَين الأوليَين كانت تصلُه رسائل لوكريثيا كلّ أسبوعين أو ثلاثة، لكنْ كلّ مساء كانَ ينتظر أن يجد رسالة عندما يفتح العلبة، ومن لحظة استيقاظه في الصباح يعيش للوصول إلى تلك اللحظة: كانَ عادةً يحصد رسائل من المصرِف، استدعاءات من المدرسة، أوراق دعايات كانَ يرميها

بكُرهٍ مع شيءٍ من الحقد. وكلّ مغلّفِ بريدٍ جوّيٍّ مخطّطٍ كانَ تلقائيًّا يغمره بالسعادة.

لكنّ الصَّمتَ النهائيّ حصل بعد سنتَين وهو لم يكن يستطيع الادّعاءَ أنّه لم يتوقّعه. بعد انقضاء ستّة أشهر، لم يمرَّ يومٌ خلالها من دون أن يعيش حالة انتظار، وصلت آخِر رسالة من لوكريثيا. لم تصل بالبريد: أتى بها بيلي سوان بعد مرور عدّة أشهر من تاريخ كتابتها.

لم أنسَ عودة بيلي سوان إلى المدينة. أعتقِد أنّ ثمّة مدُنًا يعود إليها المرءُ دائمًا، كما أنّ ثمّة مدنًا ينتهي فيها كلّ شيء. سان سيباستيان كانت من الأولى، رُغْمَ أنّ المرءَ عندما يرى مصبَّ النهر مِن على الجسر الأخير، في ليالي الشتاء، ويرى المياه وهي تتراجع وبريقَ الموج الأبيض المقترب كالعُرف في الظلام، يشعر بأنّه قابعٌ في نهاية العالم. عند طرفَي ذلك الجسر – الّذي يدعونه كورسال، وكأنّه موجود فوق منحدَرٍ في أفريقيا الجنوبية – انتصب مصباحان بنورٍ أصفرَ مثل منارتَين على شاطئ مستحيل تُعلنان عن غرق السفن. لكنّي أعرف أنّ هذه المدينة يعود إليها المرءُ، وأنّي سأُثبت ذلك في أحد الأيام، وأنّ أيّ مكان آخر، مدريد مثلاً، معْبرٌ لا غير.

عاد بيلي سوان من أميركا على ما يبدو ليتحاشى حكمًا متعلّقًا بالمخدّرات، ربّما هاربًا خاصّةً من انحدار شهرته البطيء، إذ إنّه دخل، في الوقت نفسه، الأُسطورةَ والنسيانَ: أخبرني بيرالبو أنّ قلّة من الّذين كانوا يسمعون أسطواناته القديمة، كانوا يظنّونه على قيد الحياة. في الوحدة المستمرّة، وعتمة الليدي بيرد، عانق فلورو

بلوم وسأله عن بيرالبو. تأخّر قليلًا ليُدرك أنّ فلورو لم يكن يفهم هتافاته بالإنكليزية. كانَ قد وصل مع حقيبة تالفة، وغلافٍ من الجلد الأسود ذي طبقتَين يضع فيه بوقه. مشى بخُطًى واسعة بين طاولات الليدي بيرد الخالية، داس بقوّة على خشبة المسرح حيث البيانو ونزع عنه الغلاف، وبرقّة شبيهة جدًّا بالحياء عزف مقدّمة موسيقية للَحن «بلوز». كانَ قد خرج توًّا من مستشفى في نيويورك. بإسبانيّة تتطلّب من سامعها أكثر من الانتباه، بل صفات تكهُّنية، طلب إلى فلورو بلوم أن يتّصل هاتفيًّا ببيرالبو. منذ أن خرج من المستشفى كانَ يعيش في حالة طوارئ دائمة: كانَ على عجلة من التحقُّق أنّه ليس ميتًا، لذلك عاد بسرعة إلى أوروبا. «هنا ما زال للموسيقيّ اعتبار» قال بيرالبو، «لكن في أميركا هو أقلّ من الكلب. في الشهرين اللذَين أمضيتُهما في نيويورك لم يهتمّ بأمري إلاّ مكتب مكافحة المخدّرات».

عاد ليستقرّ نهائيًّا في أوروبا، وكان لدَيه مشاريع كبيرة ومبهَمة أشْرك فيها بيرالبو. سأله عن حياته في الآونة الأخيرة. لم يعرف عنه شيئًا منذ أكثر من سنتين. عندما أخبره بيرالبو أنّه لم يعد يعزف تقريبًا أبدًا، وبأنّه أصبح أستاذ موسيقى في مدرسة راهبات، اغتاظ بيلي سوان: أمام قنّينة من الويسكي، ومِرفَقاه مرتكزان بثباتٍ على خشبة البار، تنكّر له بالغضب المقدّس الّذي يحمّس أحيانًا الكحوليّين القدامى وجعله يتذكّر الأيام الغابرة، عندما كانَ في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين من عمره وهو، بيلي سوان، وحده يعزف لقاء

سندويشات وجِعَة في ملهى في كوبنهاغن، عندما كانَ يريد أن يتعلّم كلّ شيءٍ ويُقسم أنّه لن يكون سوى موسيقيّ، وأنّ الجوع والحياة الشاقّة لا يهمّانه إذا كانا الثمن للوصول إلى هدفه.

أخبرني بيرالبو أنّه قال له: انظرْ إليّ، لقد كنتُ دومًا من الكبار، قبل أن يعرف ذلك أولئك الأشخاصُ «ذوو الفِطنة» الّذين يكتبون الكتب، وأيضًا بعد أن توقّفوا عن قول ذلك، وإذا متُّ غدًا لن تقع في جَيبي على ما يكفي من المال لدفع أتعاب دفني. لكنّني بيلي سوان، وعندما أموت، لن يكون هناك أحد في هذا العالم يمكنه أن يعزف على هذا البوق كما أفعل أنا.

عندما كانَ يضع مِرفقَيه على البار، يُرجِع كُمَّي قميصِه كاشفًا عن مِعصمَين ضعيفَين عظميَّين ومعروقَين. انتبهَ بيرالبو إلى أطراف الكمَّين الوسخة جدًّا ولاحظَ بانشراح – تقريبًا بامتنانٍ – أنّ زرَّي الكمَّين الفخمَين الذهبيَّين اللذَين لطالما رآهما، في زمنٍ آخرَ، يَبْرقان تحت أنوار المسارح عندما كانَ بيلي سوان يرفع بوقَه، ما زالا في الكمَّين. لكنّ بيرالبو لم يعُد يريد أن يستحقّ اعتبارَه، فقط كانَ يخشى كلماته، وبريق عينيه الرّطب خلفَ نظّارته. بشعورٍ مبهَم بالذَّنْب أو بالاحتيال انتبهَ فجأة إلى أيّ حدٍّ كانَ قد تغيَّر واستسلمَ خلال الأعوام الأخيرة: كحجرٍ مرميٍّ في قاع بئر، كانَ وجودُ بيلي سوان يهزُّ جمودَ الوقت. قُبالتهما، عند الجهة الأُخرى من البار، كانَ فلورو بلوم يوافق بهدوءٍ من غير أن يفهم كلمة واحدة، محاوِلاً ألاّ تبقى كأساهما فارغتَين. لكنّه ربّما يفهم كلّ شيءٍ، فكّر بيرالبو

عندما لاحظَ إحدى نظراتِ عينيه الزرقاوين. كانَ فلورو بلوم قد فاجأه وهو ينظر بخشية إلى ساعتهِ، حاسبًا الساعاتِ القليلةَ المتبقّية للوصول إلى عمله. مستغرقًا في شيءٍ ما، أفرغ بيلي سوان كأسه، فرْقَع لسانَه ومسح فمَه بمِنديلٍ وسخ نوعًا ما.

– ليس لديّ المزيد لأقوله لك، ختم بجفاف. اُنظرِ الآن إلى الساعة مرّة أُخرى وقلْ لي إنّ عليك الذهاب لتنام، فأكسرَ فمك بلَكمة.

لم يذهب بيرالبو: عند الساعة التاسعة صباحًا اتّصل بالمدرسة ليُبلغ أنّه مريض. برفقة فلورو بلوم الصامتة، استمرّا في الشُّرب يومَين. في اليوم الثالث دخل بيلي سوان مستشفى خاصًّا مكث فيه أسبوعًا يتعافى. عاد إلى فندُقه بعزّة النفس المتردِّدة الخاصّة بمَن أمضى بضعة أيّام في السجن، ويَداه عظميّتان أكثر من ذي قبل وصَوتُه أكثر غموضًا. عندما دخل بيرالبو غرفته ورآه ممدَّدًا على السرير تعجَّب كيف لم يلاحظ حتّى تلك اللحظة هيئة الميت الّتي بدت عليه.

– غدًا يجب عليّ الذّهاب إلى ستوكهولم، قال بيلي سوان. لديّ هناك عقدُ عملٍ جيّد. بعد شهرين سأتّصل بك. ستعزف معي ونسجّل أسطوانة معًا.

عند سَماعهِ ذلك، لم يشعر بيرالبو بالفرح، ولا بالامتنان، بل بالتوهّم والخوف فحسب. ظنّ أنّه إذا ذهب إلى ستوكهولم سيخسر عمله في المدرسة، ومن الممكن أن تصِله في فترة غيابه رسالةٌ من لوكريثيا ستظلّ حينها عدّة أشهُر متروكة في علبة البريد، بلا فائدة.

أستطيع أن أتصوّر قسمات وجهِه في تلك الأيّام: رأيته في صورة له في الصحيفة حيث نُشِر خبرُ وصولِ بيلي سوان إلى المدينة. ظهرَ فيها كرجُلٍ شيخٍ طويل، وهرِمٍ، وجْهُه ذو زوايا نصفِ مغطّاة بحرف إحدى تلكَ القبّعات الّتي يستعملها الممثّلون الثانويّون في الأفلام القديمة. كانَ سانتياغو بيرالبو بجانبه، أقلّ طولاً، حائرًا وفتيًّا جدًّا، لكنّ اسمه لم يكن واردًا في خبر الصحيفة، الخبر الّذي منه عرفت أنّ بيلي سوان قد عاد. بعد ثلاثة أعوام، في مدريد، تحقّقتُ أنّ بيرالبو احتفظ بين أوراقه بتلك القُصاصة الّتي باتت صفراء وغير واضحة، مع صورة بدت فيها لوكريثيا مختلفة جدًّا عمّا كنت أذكرها: شعرها قصير جدًّا، وتبتسم وشفتاها مزمومتان.

– ذهبتُ إلى برلين في كانون الثاني، قال بيلي سوان. رأيت حبيبتك هناك.

تأخّر قليلاً في متابعة حديثه: لم يكن بيرالبو يجرؤ أن يسأله شيئًا. رأى ما كانَ يعيشه مجدّدًا بسبب عودة بيلي سوان: ليلة عمرُها أكثر من سنتَين، في الليدي بيرد، عندما اعتلى المسرح ليعزف وهو يبحث عن وجه لوكريثيا بين رؤوس الشِّرّيبة القائمة ووجده في أقصى القاعة – غير واضح بين الدُّخان والأضواء الزهريّة – رصينًا وحازمًا، إلى تلك الطاولةً وبجانبها مالكولم ورجلٌ آخرُ بدا له مألوفًا من غير أن يعرف في البدءِ أنّه أنا.

– كنت أعزف منذ ليلتَين في الساتشمو، وهو مكان غريب يشبه بارَ مومسات... تابعَ بيلي سوان. عندما دخلتُ الكواليس

كانت بانتظاري. أخرجَت من حقيبة يدها رسالة وطلبت إليّ أن أرسلها لك. كانت عصبيّة جدًّا، وذهبَت فورًا.

كان بيرالبو لا يزال صامتًا: أن يتكلّم أحد معه عن لوكريثيا بعد مرور كلّ هذا الوقت، أن يكون بيلي سوان قد التقاهما في برلين، أثارا فيه حالة من الخدَر، من الخوف تقريبًا ومن الذُّهول. لم يسأل بيلي سوان عن مصير الرسالة، ولم يخطر بباله حتّى أن يستفسر لماذا لم ترسلها لوكريثيا بالبريد. بحسَب ما أخبره بيلي سوان، كانَ قد رحل من برلين منذ حوالى ثلاثة أشهر أو أربعة، عاد إلى أميركا، اعتبروه في عِداد الأموات بذلك المستوصف في نيويورك، حيث تأخّر أسابيع في العودة إلى وعْيِه. لم يكن يريد أن يسأله عن شيءٍ خشية أن يقول: «نسيتُ الرسالة في الفندق في برلين، ضاعت الحقيبة الّتي وضعتُها فيها في أحد المطارات». كانَ يتمنّى قراءتها لدرجة أنّه ربّما فضّلها في تلك اللحظة على ظهورٍ مفاجئٍ للوكريثيا.

– لمْ أفقدها، قال بيلي سوان، ونهض ليفتح غلاف بوقِه على منضدة السرير. يداه ما زالتا ترتجفان، وقع البوق على الأرض وانحنى بيرالبو ليلمّه. عندما وقف كان بيلي سوان قد فتح طبقة الغلاف التحتيّة مادًّا يده ليعطيه الرسالة.

نظر إلى الطوابع، إلى العنوان، إلى اسمه المكتوب بذلك الخطّ الّذي لن تؤذيه أبدًا الوحدة ولا النكبة. للمرّة الأولى لم يكن اسم المرسِل بحرف كبير، بل اسم كامل، لوكريثيا. تلمَّسَ الظرف وبدا له رقيقًا جدًّا، لكنّه لم يقرّر فتْحه، أحسَّه تحت أنامله أمْلس

ناعمًا كعاجِ مفاتيح البيانو الّتي لمّ يقرّر بعدُ أن يضغط عليها. عاد بيلي سوان لَيَستلقيَ على سريره. مع أنّه كانَ أحد أَمْسية أواخر أيّار، استلقى – ببدلته السوداء وحذائه الضخم – مغطًّى حتّى العنق بملاءةِ السرير لأنّه شعر بالبرد عندما نهض. كانَ صوتُه بطيئًا وأنفيًّا جدًّا، تكلّم كأنّه يعيد بشكل دائريّ الأبيات الأولى لأغنية من «البلوز».

– رأيت حبيبتك. فتحتُ الباب ووجدتُها جالسة في مقصورتي الصغيرة جدًّا. كانت تدخّن، ملأَتها دخانًا.

– لوكريثيا لا تدخّن، قال بيرالبو.

كانَ نوعًا من التَّرضية تأكيدُ هذه الخاصّة، المحدَّدة كدِقّةِ حركة: وكأنّه فعلاً يتذكّر فجأة لون عينيها أو الطريقة الّتي بها تتبسّم.

– كانت تدخّن عندما دخلْت. – كانَ بيلي سوان يتكدّر إن شكّ أحدٌ في ذاكرته. – قبل أن أراها شممتُ رائحة السجائر. أستطيع تمييزها من رائحة الماريجوانا.

– هل تذكر ما قالت لك؟ – الآن تجرّأ بيرالبو. أدار بيلي سوان ببطءٍ كبير رأسه الشّبيه برأس القرد والمقطوع ببياض ملاءة السرير، وازدادت تجاعيده عندما بدأ يضحك.

– لم تقل شيئًا تقريبًا، كانت متخوّفة من ألّا أذكرها، كأولئك الأشخاص الّذين ألتقيهم من وقتٍ لآخر، ويقولون لي: «بيلي، ألا تذكُرني؟ عزفنا معًا في بوستون عام 54». تكلّمَت معي بنفس الطريقة، لكنّي كنت أتذكّرها. تذكّرتُ عندما رأيتُ ساقَيها. أستطيع التعرُّف إلى امرأة من بين عشرين بالنظر فقط إلى ساقَيها.

حول طاولات المسارح حيث الضوءُ خفيف، لا تستطيع أن ترى وجوهَ النساء الجالسات في الصفّ الأوّل، لكنّك ترى سيقانهنّ. أحبّ أن أنظر إليهنّ وأنا أعزف. أراهُنّ وهنّ يحرّكن رُكَبهنّ ويضربن بكعوبهنّ الأرض على وقع الموسيقى.

– لماذا أعطتك الرسالة؟ لقد ألْصقَت عليها الطوابع.

– لم تكن تنتعل حذاءً بكعبٍ، بل جزمة ملطَّخة بالوحل: حذاء فقيرٍ. لكنّها بدت بهيئة أفضل من هيئتها حين عرّفتَني عليها هنا.

– لماذا كانَ عليك أن تكون أنت مَن يسلّمني الرسالة؟

– أعتقِد أنّي كذبت عليها. كانت تريد أن تصِلك الرسالة في أسرع وقت. أخرجَت من حقيبة يدها السجائر، قلم الحُمرة، منديلاً، وكلّ تلك الأشياء العبثيّة الّتي تحملها النساء. وضعَتها كلّها على طاولة المقصورة لكنّها لم تكن تجد الرسالة. حتّى كانَ لدَيها مسدّس. تداركتِ الأمر قبل أن تُخرِجه لكنّي رأيتُه.

– كانَ لديها مسدّس؟

– من عيار ثمانية وثلاثين. جديد يلمع. لا يوجد شيءٌ لا تستطيع المرأة أن تدسّه في حقيبة يدها. أخيرًا أخرجتِ الرسالة. أنا كذبتُ عليها. هي أرادت ذلك. قلت لها إنّي سأراك بعد أسبوعين. لكنّي بعدها تركتُ النادي وحدث كلُّ ما حدث في نيويورك... ربّما لم أكذب عليها في حينها. أعتقِد أنّي فكّرتُ أن آتي لأراكَ لكنّي أخطأت الطائرة. غير أنّي لم أضيّع رسالتك، يا صاحِ، وضعتُها – كالعادة – في الطبقة التحتيّة من غلاف البوق...

في اليوم التالي ودّع بيرالبو بيلي سوان وهو في حَيرة بين اليُتم والارتياح. في بهْوِ محطّة القطار، في المشرب، على رصيف المحطّة تبادَلا الوعود الكاذبة: أن يوقف بيلي سوان موقّتًا شربَ الكحول، أن يكتب بيرالبو رسالة تجديفيّة ليتخلّص من الرّاهبات، أن يَلتقيا مجدَّدًا في ستوكهولم بعد أسبوعين أو ثلاثة، ألاّ يعاود بيرالبو كتابة الرسائل إلى برلين، لأنّ أفضل علاج لحُبّ النساء هو النِّسيان. لكنْ عندما ابتعد القطار، دخل بيرالبو ثانيةً المشربَ وقرأ – مرّة سادسةً أو سابعةً – رسالة لوكريثيا متحاشيًا، عبثًا، الشعورَ بالكآبة الّذي سبّبَتْه بُرودتُها المعجِّلة: عشرة أسطر أو اثنا عشرَ سطرًا مكتوبة على ظهر خريطةٍ لليشبونة، أكّدَت فيها لوكريثيا أنّها ستعود قريبًا واعتذرَت لأنّها لم تجد ورقة أُخرى لتكتبَ عليها. كانت الخريطة صورة باهتة وجدَ عليها، نحو الجهة الشّماليّة، نقطة ملوَّنة بالأحمر وكلمة مكتوبة بخطٍّ لم يكن خطَّ لوكريثيا: بورما.

الفصل السادس

ألّا يكونَ فلورو بلوم قد أقفل الليدي بيرد بعد أمرٌ لا يمكن تفسيره إذا كنّا نجهل كسَله المُزمن ومَيله إلى أشكال الوفاء غير المجدية. يبدو أنّ اسمه الحقيقيّ كان فلوريال، وأنّه انتمى إلى عائلة من الجمهوريّين الفيديراليّين، وأنّه كانَ سعيدًا في مكان ما في كندا حوالى عام 1970، حيث وصل هاربًا من اضطهادٍ سياسيٍّ لم يكن يتكلّم عنه بتاتًا. في ما يتعلّق بهذا اللقب، بلوم، لديّ أسباب تجعلني أعتقد أنّ سانتياغو بيرالبو كان مَن أطلقَه عليه، لأنّه كانَ سمينًا ومتمهّلًا وتعلو وجنتَيه امتلاءةٌ زهريّة اللون مشابِهةٌ جدًّا لِلَون التفّاح. كانَ سمينًا وأشقر، فبدا كأنّه وُلد حقًّا في كندا أو في السويد. كانت ذكرياتُه كما حياتُه الظاهرة بسيطةً ومريحة – أنْ يشرب كأسَين كانَ يكفي لكي يذكر مطعمًا في كيبيك عملَ فيه بضعة أشهر، وهو نوع من مَحْطَبٍ صغير في وسط الغابة كانت تأتي إليه السناجبُ لتلحس الصحون ولم تكن تخاف منه عندما تراه: كانت تحرِّك أنوفها الرّطبة ومخالبها الصغيرة وأذنابها، ذاهبة بعدها بقفزات قصيرة على العشب، وهي تعلم تمامًا الساعة الّتي يجب أن تعود فيها ليلاً لتستنفد بقايا العشاء. في بعض الأحيان، كانَ سنجابٌ يحطُّ على طاولة الشخص وهو يأكل. في بار الليدي بيرد، كان فلورو بلوم يتذكّرها وكأنّه يراها أمام عينَيه الزرقاوَين الدامعتَين. لم تكن تخاف، كانَ يقول، وكأنّه يروي معجزة. كانت تلحس يدَه وهي تحرّك أنوفها كالهررة الصغيرة،

كانت سناجبَ سعيدة. لكنْ بَعدها، كانَ فلورو بلوم يعتمد الحركة الوقورة الخاصّة برمز الجمهوريّة الّذي كانَ يحفظه في الغرفة الخلفيّة من الليدي بيرد ويقوم بالتنبّؤ: «هل تتصوّر أن يقترب سنجاب هنا من طاولة مطعم؟ يقطعون رأسه. أكيد، يشكّونه بالشَّوكة».

في ذلك الصَّيف، مع وجود الأجانب، عرف الليدي بيرد عصرًا فضّيًا ضعيفًا، شهد عليه فلورو بلوم مع شيءٍ من السأم: قلِقًا ومتعَبًا، تحرَّك ليَعتني بالطاولات والبار، لم يعد لديه الوقت تقريبًا لمحادثة الزبائن، أعني نحن الّذين لم نكن ندفع إلاّ من وقتٍ إلى آخَر. من الجهة الأُخرى للبار كانَ ينظر بدهشةِ مَن يرى منزلَه مجتاحًا من مجهولين، متغلّبًا على استنكاره الداخليّ وهو يضع الأسطوانات الّتي طُلبت منه، ويستمع بلامبالاة تامّة إلى اعترافات السّكارى الّذين تكلّموا بالإنكليزيّة فقط، ربّما كان يفكّر في سناجب كيبيك المطيعة عندما كانَ يبدو أكثر ضَياعًا.

استخدمَ نادلاً، وأمام الصندوق رسم على وجهه علامة الانشغال الّتي كانت تُعفيه من الاهتمام بمَن لم يكن يهمّه. خلال شهرين، حتّى أوائل أيلول، عاودَ سانتياغو بيرالبو العزف على البيانو في الليدي بيرد متنعّمًا بقدر غير محدود من زجاجات البوربون. الخجل والشعور المسبق بالفشل منَعاني دائمًا من دخول الحانات الخالية. في ذلك الصيف عُدت أنا أيضًا إلى الليدي بيرد. كنت أختار زاوية نائية من الباب، أشربُ وحدي، وأتكلّم مع فلورو بلوم عن «قانون المذاهب» في الجمهوريّة الإسبانية. عندما يفرَغ بيرالبو من

العزف كنّا نشرب معًا الكأس ما قبل الأخيرة. عند الفجر كنّا نتمشّى نحو المدينة تابعَين منحنى أضواء الخليج. في إحدى الليالي، عندما حصلتُ على مقعدي وكأسي في الليدي بيرد، اقتربَ منّي فلورو بلوم ومسح الغبار وهو ينظر إلى نقطة غير محدَّدة في الهواء.

– استدِر وانظرْ إلى الشقراء، قال لي، لن تستطيع نسيانها.

لكنّها لم تكن وحدها. انسدلَ على كتفَيها شعرٌ طويل أمْلس كانَ يشعّ تحت الضَّوءِ ببريق ذهبٍ باهتٍ. بشَرةُ صدغَيها بدَت شفّافة زرقاويّة. كانت عيناها زرقاوَين وهادئتَين، النظرُ إليهما كان كالاستسلام – من دون تأنيب – لبُرودة نكبة. كانت يداها المُستريحتان على فخذَيها تتحرّكان على إيقاع المقطوعة الّتي يعزفها بيرالبو، لكنّ الموسيقى لم تتمكّن من جذْب اهتمامها، ولا نظرات فلورو بلوم، ولا نظراتي، ولا وجود أيّ أحد. جلست متأمّلة بيرالبو كما يمكن أن يتأمّل البحرَ تمثالٌ. كانت تشرب من كأسها من حين إلى آخَر، أو تجيب الرجُلَ الّذي برفقتها، بشيءٍ تافهٍ كتفسير كلامٍ مسجَّلٍ.

– يأتيان بانتظام منذ ليلتين أو ثلاثٍ، أخبرني فلورو بلوم. يجلسان، يطلبان كأسَيهما وينظران إلى بيرالبو، لكنّه لا يعيرهما أيَّ انتباه. هو مشوَّش التفكير. يريد الذَّهاب إلى ستوكهولم مع بيلي سوان، لا يفكّر إلاّ في الموسيقى.

– وفي لوكريثيا، قلت.

فالمرءُ لا تنقصه بصيرة ليتصوَّر حياة الآخرين.

– كلُّ امرئٍ يعرف، قال فلورو بلوم. لكن انظرْ إلى الشقراء، انظرْ إلى الرجُل الّذي أتى معها.

كانَ كبيرًا وفظًّا لدرجة أنّه كانَ يَلزمنا بعضُ الوقت لنَنتبه إلى أنّه أيضًا أسْود اللّون. كانَ يبتسم دائمًا، ليس كثيرًا، بل ما يكفي لكي لا تبدو بسْمته مثارًا للتحدّي. كانَ والشقراءَ يُكثران من الشُّرب وينصرفان عندما تتوقّف الموسيقى وهو يترك دائمًا على الطاولة بخشيشًا سخيًّا جدًّا. في إحدى الليالي أتى إلى البار ليَطلبَ شيئًا وبقيَ معي. كانَ يضع بين أسنانه سيجارًا، وللَحظةٍ غمرَتني رائحة الدُّخان الّذي نفثَه بقوّة من أنفِه. وإلى طاولةٍ في الداخل، مستندة إلى الجدار، انتظرتْه الشقراء ضائعةً في السّأم والملل والوَحدة. حدّق بي وكأساه في يدَيه وقال إنّه يعرفني، صديق مشترَك أخبره عنّي. «مالكولم» قال، وبعدها مضغ سيجارَه ووضع الكأسين على البار وكأنّه يمنحني وقتًا كي أتذكّر. «بروس مالكولم» كرّر باللكنة الأكثر غرابة الّتي سمعتُها في حياتي، وأبْعدَ بحركة من يدهِ الدُّخان عن وجهه. «لكنْ أعتقِد أنّهم هنا يدْعونه الأميركي».

تكلّم وكأنّه يتمرّن على تحريف اللكنة الفرنسيّة. تكلّم تمامًا كالسّود في الأفلام وكانَ يقول «أميهيكي» وهو يبتسم لفلورو بلوم ولي وكأنّما كانت تربطنا صداقة أقْدمُ من ذكرياتنا. سألَنا مَن منّا يعزف على البيانو، وعندما قُلنا له كرّر بإعجاب: بيهالبو. ارتدى سترة من الجلد. بشَرة يدَيه كانت شاحبة ومَلساء كالجِلد البالي. شَعرُه كانَ قطًّا ورماديّ اللون، ولم يتوقّف عن استحسان كلّ ما رأته

عَيناه البقريَّتان. محرِّكًا رأسَه كثيرًا استأذن منّا وأخذ كأسين. باعتزازٍ واضح، وبتواضُع، قال لنا إنّ سِكرتيرته كانت بانتظارِه. كانَ بلا شكٍّ أمرًا خارقًا أن يضع على البار بطاقة زيارة، من غير أن يُفلت من يدَيه أيًّا من كأسَيه أو أن ينزع السيجار من فمِه. تفحَّصناها، أنا وفلورو بلوم، في نفس الوقت: توسين مورتون، كُتب عليها، لوحات و كُتُب قديمة، برلين.

– لقد تعرّفتَ على الجميع، قال لي بيرالبو في مدريد. تعرّفتَ على مالكولم ولوكريثيا، حتّى على توسين مورتون.

– لا أهمّية لذلك، قلتُ. – لم يكن يهمُّني أن يسخر منّي بيرالبو، مع بسمةِ مَن يعرف كلّ شيءٍ. كنّا نعيش في المدينة عَينها ونذهب إلى الحانات نفسها.

– كنّا نعرف نفس النساءِ. هل تذْكر السكرتيرة؟

– فلورو بلوم كانَ على حقٍّ. عندما تراها لا يمكن أن تنساها. لكنّها كانت كتِمثالٍ من الثلج. كان من الممكن رؤيةُ شرايينها الزُّرق تحت جِلدها.

– كانت ابنةَ عاهرة! قال فجأة بيرالبو. – لم يكن من عادتِه استعمالُ هذا النوعِ من الكلام. – هل تذْكر نظْرتها في الليدي بيرد؟ هكذا نظرتْ إليّ عندما كانَ مُديرها ومالكولم على وشكِ قتلي. لم يمضِ على ذلك سنة، في ليشبونة.

فَورًا بدا نادمًا على ما قاله. كانت هذه استراتيجيّة أو عادة فيه: يقول شيئًا وبعدها يبتسم وهو ينظر إلى ناحية أُخرى، وكأنّ النظرة

أو الابتسامة تسمحان لِمَن يسمعه بألاّ يصدّق ما قاله. كانَ يتبنّى عندها نفسَ التعبير الّذي كانَ لدَيه عندما يعزف في الميتروبوليتانو، هيئة استرخاء أو ازدراء، بُرودة هادئة هدوءَ شاهِد على موسيقاه أو كلماتِه، غيرِ القابلة للشكّ والعابرةِ كلحنٍ عُزف مِن هُنَيهة. لكنَّه تأخَّر بعضَ الوقت ليُكلّمني مجدَّدًا عن توسين مورتون وسكرتيرته الشقراء. عندما فعلَ ذلك، حين التقَينا في الليلة الأخيرة، في غُرفته بالفندق، كانَ يحمل مسدَّسًا في يدِه ويراقب شيئًا من وراء ستائر الشرفة. لم يبدُ خائفًا. فقط كانَ ينتظر، بلا حراكٍ، متأمّلاً الشارع، زاويةَ تيليفونيكا، مستغرقًا في الانتظار كما فعلَ وهو يعُدّ الأيّام الّتي تمرُّ منذ رسالة لوكريثيا الأخيرة.

لم يكن يعرف عندها، لكنّ وصول بيلي سوان كانَ أوّل دلائل عَودته. بعد عدّة أسابيع من رحيل بيلي، أطلّ توسين مورتون، وهو أيضًا أتى من برلين، تلك المنطقة الغريبة في العالم حيث لم تزل لوكريثيا شخصًا حقيقيًّا.

في ذاكرتي، اقتصرَ ذلك الصيف على بعض الأمساء الخاملة، والسماوات الأرجوانيّة والزهريّة اللون على البحر البعيد، والليالي الطويلة حيث كانَ للكحول الدِّفءُ عينُه الّذي يتميّز به الرَّذاذُ عند الفجر. حاملات حقائبَ البحر وصنادل الصيف، مع زغبِ أفخاذهنّ الموشَّحة بالملح، والبشَرة المحمرّة بعض الشيءِ، كانت تأتي الأجنبيّات النحيفات إلى الليدي بيرد عند حلول المساء. من البار، كانَ فلورو بلوم، وهو يقدّم الكؤوس، يميّزهنّ بصمتٍ، برقّةِ إلَهِ

الريف، وينتقي بمخيِّلته، ويشير إلى جانبيّة وجْه إحداهنّ أو نظْرتِها، لربّما كانت إشارات مؤاتيَة. أتذَكّرُهنّ الآن جميعًا، حتّى اللواتي بقينَ ليلة أو ليلتين مع فلورو بلوم ومعي عندما أُقفل الليدي بيرد، كمسوَّداتٍ غير دقيقة لقالبٍ احتوى على محاسن متفرّقة في كلّ واحدة منها: سكرتيرة توسين مورتون الهادئة، الطويلة، الجامدة.

في البدءِ، لم يلاحظها بيرالبو، وقْتها لم يكن يركّز كثيرًا على النساءِ، وعندما كنّا نطلب إليه – أنا وفلورو – أن يراقب إحداهنّ الّتي كانت تعجبنا بشكلٍ خاصّ، كانَ يجد متعة في الإشارة إلى أدنى عيوبها: أنّ يدها قصيرة، مثلاً، أو أنّ كاحلَيها غليظان. في الليلة الثالثة أو الرابعة – كانت تصلُ، هي وتوسين مورتون، دائمًا في الساعة نفسها ويجلسان إلى الطاولة نفسها قرب المسرح – وهو يستعرضُ وجوهَ الشّرّيبة المعتادين. فاجأهُ اكتشافُ حركة في تلك المجهولة، حركة ذكّرتْه بلوكريثيا، جعلتْه ينظر إليها عدّة مرّات باحثًا عن تعبيرٍ لم يتكرّر، ربّما لم يتكوّن قَطُّ، لأنّه كانَ من مخلَّفات الوقت الّذي كانَ يبحث فيه لدى جميع النّساءِ عن علامة تدلُّ على ملامح لوكريثيا، على نظْرتها أو على مشْيتها.

في ذلك الصيف، كما شرح لي بعد مرور سنتَين، بدأ يُدرك أنّ على الموسيقى أن تكون شغفًا هادئًا ومُطْلقًا. كانَ قد عاود العزف بشكلٍ منتظم، ودائمًا تقريبًا وحده وفي الليدي بيرد، ملاحِظًا في أصابعه سلاسة الموسيقى الشبيهة بتيّار رصينٍ وغير مُتَناهٍ كمُرور الزمن؛ كانَ يستسلم له كمَن يستسلم لسيّارة تتزايد سرعتُها أكثر في

كلّ لحظة، ولدافعٍ موضوعيّ من الظلام والبُعد، مسيَّرًا بالذّكاءِ فقط، وبغريزةِ الابتعاد والهروب من دون معرفة مَسافة أكثر من الّتي كانت تضيئها المصابيح. كانَ الأمر شبيهًا بقيادة سيّارة وحده على طريق مجهولة عند منتصَف الليل. حتّى ذلك الحين كانت موسيقاه دائمًا اعترافًا موجَّهًا إلى أحدٍ، إلى لوكريثيا، إلى نفسه. أمّا وقتها، فشعرَ بأنّها كانت تتحوّل إلى أسلوبٍ للتكهُّن، فقدَ تقريبًا الشعور العفويّ بمُساءَلة نفسه وهو يعزف ما قد تفكّر فيه لوكريثيا لو كانَ بإمكانها أن تسمعه. ببطءٍ، أخذَت وحْدته تخلو من الأشباح، أحيانًا، بعد برهة من استيقاظه، كانَ يندهش عندما يكتشف أنّه عاش عدّة دقائق من دون أن يذكرها. حتّى في أحلامه لم يكن يراها، فكانت دائمًا تتراءى له مِن خلْف، أو بعكس الضَّوء، فيَغدو وجهُها ممنوعًا عنه دائمًا، أو يكون وجهَ امرأة أُخرى. تكرارًا، كانَ يتجوّل في أحلامه، في شوارع برلين الليل والتعسُّف بين ناطحات السحاب المضاءة والمنارات الحمر والزرق على الأرصفة المصقولة بالجليد، مدينة اللاأحد حيث أيضًا لوكريثيا لم تكن موجودة.

كتبَ لها رسالة أوائلَ حزيران، كانتِ الأخيرة. بعد مرور شهر، عندما فتحَ علبة البريد، وجد ما لم يكن يراه منذ وقت طويل، ما كانَ ينتظره فقط بسبب عادةٍ راسخة أكثر من عزيمته. هو ظرفٌ كبير ذو حروف مخطَّطة، كُتبَ عليه اسم لوكريثيا وعنوانُها. فقط بعد أن مزَّقه بشراهة، أدرك أنّها كانت الرسالة نفسَها الّتي كتبها هو قبل عدّة أسابيع. كانت تحمل شطبًا أو توقيعًا بالأحمر واعترضت

ظهْرَها جملة مكتوبة باللغة الألمانيّة. ترجمها له أحد الأشخاص في الليدي بيرد: غير موجود على هذا العنوان.

عاودَ قراءة رسالته الّتي سافرت بعيدًا لتعود إليه. فكّر من غير مرارة أنّه قد انقضى حوالى ثلاث سنين وهو يكتب لنفسِه، وأنّه قد حانَ الوقت كي يعيش حياة مختلفة، ولأوّل مرّة منذ أن تعرَّف على لوكريثيا، جروءَ على التخيُّل كيف يمكن أن يكون العالم لو لم تكن موجودة فيه، لو لم يتعرّف عليها قطّ. لكنّه فقط عندما يشرب الدجِنْ أو الويسكي وعندما يصعد بعدها للعزف على البيانو في الليدي بيرد، كانَ يدخل بلا شكٍّ في النِّسيان، في حماسته الفارغة. في إحدى ليالي تمّوز بانَ أمامه وجهٌ: حركة عرَضيّة عملَت في ذاكرتِه كاليَد الّتي عندما توضع على ندبةٍ تؤجِّج من غير عمدٍ ألم الجرح الشديد.

كانت سكرتيرة توسين مورتون تنظر إليه وكأنّ أمامها حائطًا أو منظرًا جامدًا. رآها ثانيةً بعد بضع ساعات، في نفس تلك الليلة، في محطّة «الخلد». كانَ مكانًا وسخًا وقليل الإضاءة، مع هيئة الإتلاف الخاصّة برُدهات المحطّات قبل الفجر، لكنّ الشقراءَ كانت جالسة على المقعد وكأنّه أريكة في صالة رقص، سالمة وهادئة، وعلى رُكبتَيها حقيبةُ يدٍ من الجلد وحافظةُ أوراق. بجانبها، كانَ توسين مورتون يمضغ سيجارة ويبتسم لجُدران المحطّة الوسخة، ولبيرالبو الّذي لم يتذكّر أنّه رآه في الليدي بيرد. كانت تلك الابتسامة سلامًا ربّما، فضّل أن يتجاهله، كانت تزعجه وُدّيّةُ المجهولين. اشترى

بطاقةً وانتظرَ على رصيف المحطّة وهو يسمع المرأة والرجُل يتكلّمان وراءه، بكثير من الهدوءِ، بمزيج من الفرنسيّة والإنكليزية بدا له غير مفهوم بتاتًا. من وقتٍ إلى آخَر كانت تقطع تلك التّمتمةَ الشبيهةَ بالّتي تُسمَع في أرْوِقة المستشفيات، ضحكةٌ ذكوريّة قويّة يتردّد صداها في المحطّة الخالية. مع بعض التخوُّف شكَّ بيرالبو في أنّ الرجُل كانَ يضحك منه، لكنّه لم يستدر. ساد صمتٌ طويل: علم أنّهما كانا ينظران إليه. لم يتحرّكا عندما رحلَ القطار. وهو في داخله، نظرَ بيرالبو إليهما بشكلٍ واضح من وراءِ النافذة ورأى بسمةَ توسين مورتون الفاحشة، وهو يهزُّ رأسه وكأنّه يودِّعه. رآهما يقفان عندما كانَ «الخلد» يغادر المخطّة ببطءٍ. على الأرجح أنّهما صعِدا إلى العربة الثانية أو الثالثة خلفَ بيرالبو، لأنّه لم يعاود رؤيتَهما تلك الليلة. اعتقدَ أنّهما ربّما أكْملا رحلتهما إلى حدود إيرون: قبْل أن يفتح بابَ بيتِه كانَ قد نسيَهما.

لبعضِ الرجال مناعةٌ ضدّ الهُزءِ وضدّ الحقيقة لدرجة أنّهم يَبدون مكرَّسين بحزمٍ لتجسيد المهزلة. في ذلك الوقت كنتُ أعتقد أنّ توسين مورتون كانَ واحدًا منهم: طويل القامة، كانَ يُبالغ في طول قامته منتعلاً جزمة ذاتَ كعبٍ، ولابسًا سُترة من الجلد وقُمصانًا زهريّة اللون قبّاتها واسعة مروَّسة تصلُ تقريبًا إلى كتفَيه. خواتمُ ذاتُ أحجارٍ غيرِ موثوقة المصدر وسلاسلُ ذهبيّة كانت تبرقُ على بشَرتهِ الدّاكنة اللون وعلى زغَب صدره. مضْغُه سيجارًا نتِنًا وسَّع بسْمته، كانَ يحمل دائمًا في جَيب سترتِه الأعلى مِسْواكًا من الذّهب اعتاد

أن ينظّف به أظفاره الّتي كانَ يشمُّها بتحفُّظٍ كمَن يتنشّق التبغ. رائحة غير محدَّدة كانت تُعلن عن وجودهِ قبل أن يتمكّن أحد من رؤيته أو عقِبَ انصرافه: كانت خليطًا من دخان تبْغهِ البرّي ومن العطر الّذي يغمر سكرتيرته وكأنّه فَوحة شاحبة وباردة تنبعثُ من شعرها الأملس، من جمودها ومن بشَرتها الزهريّة الشفّافة.

الآن، وبعد مرور حوالى السَّنَتين، عُدتُ أتعرّفُ تلك الرائحة الّتي ستظلّ دومًا رائحةَ الماضي والخوف. سانتياغو بيرالبو شمَّها أوّل ما شمّها في أحد أمساء الصيف، في سان سيباستيان، في بهْو المبنى الّذي كانَ يعيش حينها فيه. كانَ قد أفاق متأخّرًا جدًّا، وأكلَ في مطعم قريب من غير أن يفكّر في الذهاب إلى وسط المدينة لأنّ الليدي بيرد تلك الليلة - كانت ليلة الأربعاء - قد يكون مقفلاً. كانَ يتّجهُ نحو المصعد، وهو لا يزال ممسكًا مفتاح علبة البريد - لم يتوقّف عن زيارتها عدّة مرّات يوميًّا في حال تأخَّرَ الساعي - عندما جعله شعورٌ عميق بالألفة والغرابة ينتصب وينظر حوله: قبْل ثانية من أن يتعرّف إلى الرائحة رأى توسين مورتون وسكرتيرته جالسَين بكلّ هدوءٍ على كنبة البهو. على رُكبتَي السكرتيرة المضمومتَين والعاريَتين كانت حقيبة اليدِ نفسُها وحافظةُ الأوراق الّتي حملتْها قبل ليلتَين أو ثلاثٍ في محطّة «الخلد». أحاط توسين مورتون بيدَيه كيسًا من الورق بانَ منه عنقُ زجاجة ويسكي. كانَ يبتسم بطريقة وحشيّة تقريبًا، ضاغطًا على السيجار عند جهةٍ من فمِه، نزعه فقط عندما وقفَ ليَمدّ إلى بيرالبو إحدى يدَيه الكبيرتَين: كانت لها

صلابة الخشب المصقول من كثرة الاستعمال. السكرتيرة – الّتي علِم بيرالبو بعدها أنّها تُدعى دافني – قامت بحركة شبهِ إنسانيّة عندما نهضتْ، حانيةً رأسها إلى جهة، وأزاحت الشَّعر عن وجهِها وابتسمَت لبيرالبو بشفتَيها فقط.

كانَ توسين مورتون يتكلّم الإسبانيّة كمَن يقود بسرعة كبيرة جاهلاً قانون السَّير وساخرًا من الشُّرطة. لا قواعدُ اللغة ولا اللياقة أعاقَت سعادته، وعندما لم يكن يجد كلمة يعضُّ شفتَيه ويقول «تَبًّا» وينتقل إلى لغة أُخرى برشاقةِ محتال يعْبر الحدود بجواز سفرٍ مزيّف. اعتذرَ إلى بيرالبو على تدخُّله: أعْلن عن حماستِه لموسيقى الجاز، وآرْت تاتوم وبيلي سوان، وسهرات الليدي بيرد الهادئة؛ قال إنّه يؤْثِر أُلفة الصالات الصغيرة على غباوة الحشود – الجاز كالفلامنكو، هو شغَفُ الأقليّة –، ذكرَ اسمَه واسمَ سكرتيرته، وأكّد انّه يدير في برلين تجارة تحف قديمة مزدهرة لكنْ حذرة، بالأحرى سرّيّة. وأضافَ: إذا أردتَ أن تفتح متْجرًا مع لافتةٍ مضاءة، تأكلكَ الضرائب بسرعة. أشار إلى حافظة أوراق سكرتيرته، وكيسِ الورق الّذي كانَ يحمله هو. في برلين، لندن، ونيويورك – حتمًا كانت قد وصلتْ بيرالبو أصداءٌ عن الـ «ناتان ليفي غاليري» –، توسين مورتون كانَ شخصًا مهمًّا في تجارة الصُّوَر المحفورة والكتُب القديمة.

كانت دافني تبتسم بوداعة مَن يستمع إلى صوت المطر. فتحَ بيرالبو باب المصعد وكانَ على وشكِ أن يذهب وحده إلى الطبقة الثامنة، طائشًا بعض الشيءِ، وهو وضعٌ لطالما شعرَ به عندما كانَ

يتحدّث مع أحد بعد أن يكون قد أمضى وحيدًا عدّة ساعات. عندها، أوقفَ توسين مورتون بشكلٍ واضح بابَ المصعد سانِدًا إليه رُكبتَه وقال، مبتسمًا، من غير أن ينزع السيجار من فمه:

– لوكريتيا كلّمتني عنكَ كثيرًا هناك في برلين. كنّا أعزَّ صديقَين. كانت تقول دائمًا: «عندما لا يبقى لي أحد، سيبقى سانتياغو بيرالبو».

لم يقل بيرالبو شيئًا. صعدوا معًا بالمصعد، محافظين على سكوت صعبٍ لطّفته بسمةُ توسين مورتون الّتي لا تنكسر، وتحديقُ عينَي سكرتيرته الزرقاوَين، الّتي كانت تنظر إلى الأرقام المضاءة المتتالية بسرعة، وكأنّها تشاهد المدينة المتنامية وهدوءَها البعيد. لم يدْعُهما بيرالبو للدّخول، توغّلا في ممرّ بيتِه بالاهتمام الفرِح الخاصّ بمَن يزور مُتحفًا ريفيًّا، متفحّصَين برِضًى اللوحات، والمصابيح، والكنَبة الّتي جلسا عليها فورًا. فجأة كانَ بيرالبو بلا حراك أمامهما من دون أن يعْلم ماذا يقول لهما، وكأنّه عندما دخلَ منزلَه وجدَهما وحدهما يتحادثان على كنَبة غرفة الطعام، ولم يكن ينجح في طرْدهما ولا في سؤالهما عن سببِ وجودهما. عندما كانَ يُمضي عدّة ساعات وحده، كانَ شعوره بالواقع يضعفُ بشكلٍ خاصّ. شعر لحظةً بضَياع يشبه الشعور ببعض الأحلام، ورأى نفسَه واقفًا أمام مجهولَين احتلّا كنَبته، حائرًا لا بالنسبة لسَبب وجودِهما بل بسببِ أحرُف الكتابة المنقوشة على ميداليّة الذّهب الّتي علّقها توسين مورتون بعُنقه. عرض عليهما كأسًا من الكحول، وتذكّر أنّه لم يكن لدَيه شيءٌ

للشُّرب. بكلّ سرور كشفَ توسين مورتون عن نصْف الزجاجة الّتي أحْضرها وأشار إلى النوع بسبّابتِه العريضة. فكّر بيرالبو أنّه كانَ لدَيه أصابعُ عازف كونترباص.

– كانت لوكريثيا تقول دومًا: «صديقي بيرالبو يشرب فقط أفضل أنواع البوربون». أتساءلُ هل هذا المشروب جيّد كفاية لكَ؟ دافني أتت به وقالت لي: «توسين، إنّه غالي الثمن، لكنْ حتّى في تينيسي لا يمكن أن تجد أفضل منه»، وهي لا تشرب ولا تدخّن أيضًا، بل تأكل خضرًا وسمكًا مسلوقة فقط. قولي له أنتِ، دافني، السيّد يتكلّم الإنكليزية. لكنّها خجولة جدًّا. تقول لي: «توسين، كيف بإمكانك أن تتكلّم بهذا القدر من اللغات؟»، «لأنّه عليّ أن أقول كلّ ما لا تقولينه أنت!» أُجيبها... ألا تقول لكَ لوكريثيا شيئًا عنّي؟

وكأنّ قوّةَ قهقهَتِه دفعَته إلى الخلف، أسْند توسين مورتون ظَهره إلى الكنبة، واضعًا يدَه الكبيرة الدّاكنة على الركبتَين البَيضاوَين لدافني الّتي ابتسمت قليلاً، هادئة ومنتصِبة.

جالَ توسين مورتون بنظرة جشِعة وسعيدة في غرفة الطعام الخالية تقريبًا، وكأنّه يشكر ضيافةً لَطالما رغبَ فيها، ثمّ قال: «يعجبني هذا المنزل، الأسطوانات، المفروشات، هذا البيانو. أمّي أرادت أن أتعلّم العزف على البيانو وأنا صغير. «توسين» كانت تقول لي، «ستشكرُني في أحد الأيّام». لكنّي لم أتعلّم. لَطالما حدّثتني لوكريثيا عن هذا البيت. ذَوق رفيع، رصانة. عندما رأيتُكَ في تلك الليلة قلتُ لدافني: «هو ولوكريثيا كالتَّوأمَين بالرّوح». بإمكاني معرفة الرجُل

من النظر إلى عينيه مرّة لا غير. النساء، لا. دافني سكرتيرتي منذ أربع سنوات، هل تعتقد أنّي أعرفُها؟ ليس أكثر من معرفتي برئيس الولايات المتّحدة.»

«لكنّ لوكريثيا لم تأتِ إلى هنا قطّ»، فكّر بيرالبو: ضحكة توسين مورتون وكلماتُه غير المنقطعة كانَ لها تأثير المنوِّم على وعْيه. كانَ لا يزال واقفًا. قال إنّه سيأتي بكؤوس وبعضِ مكعَّبات الثلج. عندما سألهما إذا كانا يريدان ماءً، خبّأ توسين مورتون فمَه متظاهرًا بأنّه لا يستطيع وقْف ضِحْكته.

– طبعًا نريد ماءً. دافني وأنا دائمًا نطلب الويسكي مع ماءٍ في الحانات. الماءُ لها، والويسكي لي.

عندما عادَ بيرالبو من المطبخ كانَ توسين مورتون واقفًا قرب البيانو يتصفّح كتابًا، أغْلَقه بسرعة، مبتسمًا، تظاهرَ عندها بالاعتذار. وبلمحةٍ، لاحظَ بيرالبو في عينَيه برودة فاحصة لم يتضمّنها تظاهُرُه: عينان كبيرتان ميتتان، محاطتان بإطارَين محمرَّين حول البؤبؤَين. السكرتيرة، دافني، كانت مادّةً يدَيها أمامها، راحتاها نحو الأرض، وتنظرُ إلى أظفارها: أظفار طويلة ولونها زهريّ، من دون طِلاءٍ، زهريّ باهت أكثر من لون بشَرتها.

– اسمحْ لي، قال توسين مورتون. أخذ من بيرالبو الصينيّة وملأ كأسَين من البوربون، حنى الزجاجةَ فوق كأس دافني متظاهرًا بأنّه تذكَّر فجأة أنّها لا تشرب. تركَ كأسَه على طاولة الهاتف بعد أن أصْدر صوتًا وهو يتذوّق الجرعة الأولى. غرِق أكثر في الكنَبة،

مرتاحًا، تقريبًا مضيافًا، مُشعلاً بسرورٍ كبير سيجارَه المنطفئ.

– كنتُ أعرف ذلك، قال. كنتُ أعرفُكَ قبل أن أراك. اسألْ دافني. كنتُ أقول لها دائمًا: «دافني، مالكولم ليس بالرجُل المناسب لِلوكريثيا، ما دام عازفُ البيانو الّذي بقي في إسبانيا على قيد الحياة». هناك في برلين، لوكريثيا كانت تحدِّثنا كثيرًا عنك... عندما لم يكن مالكولم موجودًا، طبعًا. دافني وأنا كنّا كعائلة لها عندما انفصلا. دافني يمْكنها أن تخبرك: في منزلي، كانَ دومًا سريرٌ وطعام بتصرُّف لوكريثيا، لم تكن مرحلة جيّدة لها.

– متى انفصلتْ عن مالكولم؟ قال بيرالبو. عندها نظرَ إليه توسين مورتون بنفس التعبير الّذي أقْلقه عندما كانَ عائدًا إلى غرفة الطعام مع الكؤوس والثلج، وسُرعانَ ما أفْرط في الضحك.

– هل رأيتِ دافني؟ يتظاهر السيّد بأنّه مفاجأ. هذا غير ضروريّ يا صاحبي، فلَيس عليكما أن تختبئا بعد الآن، ليس أمامي. هل تعْلم أنّي عدّةَ مرّات كنتُ أنا مَن يأخذ إلى البريد الرسائل الّتي تكتبها لك لوكريثيا؟ أنا، توسين مورتون. مالكولم كانَ يحبّها، هو كانَ صديقي، لكنّي كنتُ أعي أنّها كانت مولعة بك. دافني وأنا كنّا نتحدّث كثيرًا عن هذا الموضوع، وكنتُ أقول لها: «دافني، مالكولم صديقي وشريكي لكنْ لهذه المرأة الحقُّ في أن تُغرَم بمَن تشاء». هذا ما كنتُ أعتقِده أنا، اسألْ دافني، ليس لديّ أسرار أخفيها عنها.

كلمات توسين مورتون بدأت تثير في بيرالبو شعورًا باللاواقعيّة مُشابِهًا جدًّا لتأثير البوربون؛ من غير أن يدرك ذلك كانا قد شربا

نصف الزّجاجة، لأنّ توسين مورتون لم يكفَّ عن إحنائها بخشونة على الكأسَين، ماسحًا إيّاهما على الفور بمنديل ملوَّن كبيرٍ لدرجة أنّه بدا كمنديلِ مشَعوذ. بيرالبو، الّذي كانَ منذ البداية يشكُّ في أنه يكذب، بدأ يسمعه بانتباهِ صائغٍ غيرِ فاقدِ الحشمةِ كلّيًّا، ينقاد للمرّة الأولى إلى شراءِ بضاعة مسروقة.

– لا أعرف شيئًا عن لوكريثيا، قال. لم أرها منذ ثلاث سنوات.

– لا يثق بنا. – حرّك توسين مورتون رأسَه بأسًى وهو ينظر إلى سكرتيرته كمَن يبحث معها عن تخفيفٍ لنُكران الجميل – هل تَعينَ يا دافني؟ شأنه شأن لوكريثيا. لا تفاجئُني، يا سيّدي – الْتفتَ إلى بيرالبو بوَقار ورصانة. لكنْ بدت في عينيه نفسُ النظرة اللامُبالية لِلَعب التَّصنُّع – وهي أيضًا لم تثق بنا. قولي له، دافني، قولي له إنّها تركَت برلين من غير أن تقول لنا شيئًا.

– ألا تعيش الآن في برلين؟

لكنّ توسين مورتون لم يُجِبه. وقفَ بجهدٍ، مستندًا إلى ظَهر الكنَبة، وهو يلهث وسيجارُه في فمه المفتوح قليلاً. قلَّدَته سكرتيرتُه بطريقة تلقائيّة، حافظةُ الأوراق بين ذراعَيها وكأنّها تُهدهِدها، وحقيبةُ يدها على كتفها. كانَ عطرُها، عندما تتحرّك، ينشر في الجوّ إيحاءاتِ الرَّماد والدُّخان.

– جيّد يا سيّد، – قال توسين مورتون، مجروحًا، وتقريبًا بحزن. عندما رآه واقفًا، تذكَّر بيرالبو مدى طِولِه. – أفْهمُ ذلك. أفْهم ألّا تكون لوكريثيا تريد أن تعرف شيئًا عنّا. في هذه الأيّام، الأصدقاءُ

القُدامى لا يَعنون شيئًا. لكن قلْ لها إنّ توسين مورتون كانَ هنا وكانَ يتمنّى أن يراها. قلْ لها ذلك.

مندفعًا برغبة سخيفة في الاعتذار كرّر بيرالبو أنّه لا يعرف شيئًا عن لوكريثيا، وأنّها ليست في سان سيباستيان، وأنّها ربّما لم تعدْ إلى إسبانيا. عَينا توسين مورتون الهادئتان والسَّكِرَتان بقيَتا تحدّقان فيه وكأنّهما أمام دليل كذبةٍ، وخداعٍ غير ضروريّ. قبل أن يدخلا المصعد، وهُما على وشك الذّهابِ، ناولَ بيرالبو بطاقة؛ لم يكونا يفكّران في العودة إلى برلين بعد، قال له، سيَبقَيان بعض الأسابيع في إسبانيا إذا عدَلت لوكريثيا عن رأيها وأرادت أن تراهما، فإنّهما يتركان لها رقم هاتفٍ في مدريد. بقيَ بيرالو وحده في الرّواق، وعندما دخلَ مجدَّدًا منزلَه أقْفل الباب بالمفتاح. لم يعُد ضجيج المصعد يُسمَع، لكنّ دخان سجائر توسين مورتون وعطْرَ سكرتيرته ما زالا في الجوّ، بطريقة شبْه ملموسة.

الفصل السابع

– انظرْ إليه، قال بيرالبو. انظرْ كيف يبتسم.

اقتربتُ منه وأزَحتُ الستارة قليلاً للنظر إلى الشارع. على الرصيف المقابل، جامدًا وأطْول من الّذين يمرّون بجانبِه، كانَ توسين مورتون ينظر ويبتسم كأنّه يوافق على كلِّ شيءٍ: ليل مدريد، البرد، النساء الهادئات اللواتي يدخِّنَّ بجانبِه، على حافّة الرصيف، مستنِداتٍ إلى لوحة إشارات، على حائط تيليفونيكا.

– هل يعلم أنّنا هنا؟ ابتعدتُ عن الشُّرفة: بدا لي أنّ نظرة توسين مورتون كانت تصلُني من بُعد.

– طبعًا! قال بيرالبو، يريد أن أراه. يريدني أن أعرف أنّه وجدَني.

– لماذا لا يصعد؟

– لدَيه كبرياؤه. يريدُني أن أخاف. منذ يومَين وهو قابعٌ هناك.

– لا أرى سكرتيرته.

– ربّما أرسَلها إلى الميتروبوليتانو، تحسُّبًا لخُروجي من بابٍ آخَر. أعرِفه جيّدًا. لا يريد أن يقبض عليّ الآن. فقط يحاول أن أعرف أنّي لن أستطيع الهرب منه.

– سأطفئ النور.

– لا فرْق. سيعرِف أنّنا ما زلنا هنا.

أغلَقَ بيرالبو الستائر كلّيًا وجلسَ على السرير من غير أن يُفلت

المسدّس. كانت الغرفة تبدو لي صغيرةً ومعتمة أكثر فأكثر على ضوءِ قناديل مناضدِ السرير. عندها رنّ الهاتف: كانَ من طرازٍ قديم أسودَ، ذا زوايا، وشكلٍ مأتميّ. بدا وكأنّه صُنع فقط لنقْل أخبار الشؤم. كانَ بمُتناوَل يد بيرالبو: بقيَ ينظر إليه وبعدها نظر إليّ وهو يرنّ، لكنّه لم يرفع السمّاعة. كنتُ أتمنّى أن تكون كلُّ رنّةٍ له الرنّةَ الأخيرة، لكنّها كانت تتكرّر بعد ثانيةٍ من السكوت، أكثر حِدّةً وأكثر إصرارًا، وكأنّنا كنّا نسمعها منذ ساعات. في النهاية أجبتُ. سألتُ: مَن المتكلّم؟ لم يُجبني أحد، بعدها سمعتُ صفيرًا متقطّعًا وحادًّا. بيرالبو لم يكن قد تزحزحَ من السرير: كانَ يدخّن ولا ينظر إليّ، بدأ يصفر لحنًا بطيئًا وهو ينفث الدُّخان. أطْللتُ مِن على الشرفة. توسين مورتون لم يعد موجودًا على رصيف تيليفونيكا.

– سيَعود، قال بيرالبو. دائمًا يعود.

– ماذا يريد منكَ؟

– شيئًا لا أملِكه.

– ستذهب إلى الميتروبوليتانو هذه الليلة؟

– لستُ أرغب في العزف. اتَّصِل أنت مِن قِبَلي واسألْ عن مونيكا. قل لها إنّي مريض.

كانَ الجوُّ في الغرفة حارًّا بشكلٍ غير معقول، والهواءُ الساخن يهدر في المكيِّفات، لكنّ بيرالبو لم يخلع معطفه، بانَ بالفعل مريضًا. دائمًا أراه لابسًا المعطف في ذكرياتي عن تلك الأيّام الأخيرة، دائمًا مستلقيًا على السرير، أو وهو يدخّن خلفَ ستائر الشُّرفة، يده اليُمنى

في جَيب معطفه، باحثًا عن السجائر، أو ربّما عن مقبض مسدَّسه. كانَ يحفظ في الخزانة زجاجتَي ويسكي. كنّا نشرب بأكوابِ الحمّام غيرِ الشفّافة بطريقة منهجيّة، من غير انتباهٍ ولا لذّة. الويسكي بلا ثلج كانت تحرق شفتَيّ، لكنْ كنتُ أتابع الشرب وأكاد لا أتكلّم أبدًا، فقط أستمع إلى بيرالبو وأنظر من حينٍ لِحين نحو الرصيف الآخَر من الغران ڤيّا، باحثًا عن قامة توسين مورتون المديدة، مرتعشًا عندما أخلط بينه وبين أحد الرجال ذوي البشَرة السَّوداء ممّن يتوقّفون في الزوايا عند الغسَق. من الشارع كانَ يتناهى الخوفُ إليّ كصَوت صفّارات إنذار بعيدة: كانَ الشُّعور برَداءة الطقس، وبالوحدة وهواء شتاءٍ بارد، كأنّ جدران الفندق وأبوابه المغلقة لم يعد باستطاعتها حمايتي.

لكنّ بيرالبو لم يكن يشعر بالخوف: لم يكن يتمكّن من الشعور به، لأنّه لم يكن ليُبالي بما يجري في الخارج، في الجهة الأُخرى من الشارع، وربّما أقْرب بكثير من ذلك، في مماشي فُندقه، خلْف باب غرفته، عندها كانَ يسمع صوت المفاتيح وهي تدور في قفلٍ قريب جدًّا، والدّعسات الخافتة لضَيفٍ مجهول وغير مرئيٍّ، كنّا نسمعه بعدها يسعل في الغرفة المجاورة. مِرارًا كان ينظّف مسدّسه معيرًا إيّاه الانتباه المشتَّت لمَن يلمّع حذاءه. أذكرُ الماركة المسجّلة على المِغلاق: كولْتْ تروبر 38. كانَ له الجمال الغريب لسكّين مسنونٍ حديثًا، وفي شكلِه اللامع إيحاءٌ لاواقعيٌّ، وكأنّه لم يكن مسدّسًا قادرًا فجأة على إطلاق النّار أو القتل، بل رمزٌ لشيءٍ ما، قاتلٍ بحدّ ذاته، في ثباتِه

الحذِر، تمامًا مثل قارورة سُمٍّ محفوظة في خزانة.

كانَ ملْك لوكريثيا. كانت قد أتت به من برلين، وكان صِفة لوُجودها الجديد، كشَعرها الطويل ونظّارتها القاتمة، كعزيمتها الضِّمنيَّة للكِتمان والهروب الدائم. عادت عندما كانَ بيرالبو قد كفَّ عن انتظارها؛ لم تأتِ من الماضي ولا من برلين الخادعة في البطاقات البريديّة والرسائل، بل من النسيان التامّ، من الفراغ، حاملة هويّة مختلفة ضعيفةَ الأثر على وجهِها بقدْر ضعفِ اللهجة الأجنبيّة الّتي نغّمَت بها بعض الكلمات. عادت في أحد صباحات تشرين الثاني؛ رنّةُ الهاتف أيقظت بيرالبو، وفي البدءِ لم يتعرّف على ذلك الصوت، لأنّه أيضًا نسيَهُ، كما نسيَ لونَ عينَي لوكريثيا الحقيقيّ.

– في الساعة الواحدة والنّصف – قالت – في تلك الحانة على كورنيش البحر، لا غاڤيوتا. هل تذكُر؟

لم يكن بيرالبو يتذكّر، أقْفل الخطّ ونظرَ إلى المنبِّه وكأنّه يعود من حُلم. كانت الساعة الثانية عشرة والنصف من صباحٍ رماديٍّ زادَ من ندْرته غرابة مزدوِجة: عدمُ ذهابه إلى العمل، وسماعُ صوت لوكريثيا الّتي ما زالت حديثة، مستعادَة، شبْه مجهولة، غير مستحيلة بعد مرور الزمن ومع البُعد، إنّما كائنة في نقطة محدَّدة من الواقع، في دقيقة سهلة المنال وآتيَة، الواحدة والنصف – قالت – وبعدَها اسم الحانة ووَداع خفيف أثْبتَ دخولَها أراضيَ المواعيد الممكنة، والأوجُه غير الضروريّ تخيُّلُها لأنّ اتّصالاً هاتفيًّا يكفي لاستحضارها. الآن بدأ الوقت يتقدّم بالنسبة لسانتياغو بيرالبو بسرعةٍ كانَ يجهلها، جعلتْه

أخْرق وكأنّه يعزف مع موسيقيّينَ فائقي السرعة بالنسبة له. بُطوءه كانَ قد انتقل إلى الأشياء، بطريقة جعلت سخّانةَ الحمّام تبدو وكأنّها لن تشتغل أبدًا، والثيابَ النظيفة تختفي من الخزانة حيث وُجدت دائمًا، والمصعدَ مشغولاً فيتأخّر ساعات كي يصل، ولا يُعثَر على سيّارة أجرة في الحيّ، ولا في أيّ مكان من المدينة، لم يكن أحد ينتظر القطار في محطّة «الخلد».

لاحظَ أنّ تلك المجموعة من العوائق كانت تُلهيهِ عن التفكير في لوكريثيا: خمسَ عشرةَ دقيقة قبل أن يختم ثلاثة أعوامٍ على غيابها، وبينما كانَ بيرالبو يبحث عن سيّارة أجرة، كانت لوكريثيا أبْعد شيءٍ عن تفكيره. فقط عندما صعدَ إلى سيّارة الأجرة وأفصحَ عن وُجْهة ذَهابِه، تذكَّر، وهو يرتجف من الخوف، أنّه حقًّا على موعدٍ معها، وأنّه سيَراها كما كانَ يرى عينيَه الخائفتَين في المرآة. لكنْ لم يكن يرى وجهَه، بل وجهًا آخَر بدت له ملامحه غريبة، لأنّه كانَ الوجهَ الّذي ستنظر إليه لوكريثيا، الوجهَ الّذي ستحكم عليه، الّذي ستُدقِّق فيه باحثة عن علامات الوقت الّتي كانَ بيرالبو فقط يدركها الآن، وكأنّه تمكَّن من رؤية نفسه من خلال عينَي لوكريثيا.

حتّى قبْل أن يلاقيها كانَ وجودُها الخفيُّ يجذبه كالمغنطيس، لأنّ العجَلة والخوف كانا أيضًا لوكريثيا، والشعور باستسلامه لسرعة سيّارة الأجرة، كما في الماضي، عندما كانَ يذهب إلى موعد حيث خلال نصْف ساعة كانَ سيُخاطر سرّيًّا بحياته. فكّر أنّه خلال السنوات الثلاث الماضية كانَ الوقت شيئًا جامدًا كالمسافة عندما

يسافر ليلاً في سهول معتمة. قاسَ مُدّتَه من المسافة الّتي فصلَت بين رسائل لوكريثيا، لأنّ سائرَ أعمال حياته كانَ يتصوّرها من خلال ذاكرتِه المهمِلة كصوَر مساحة مسطَّحة، كشُقوقٍ أو بُقَع في الحائط الّذي كانَ ينظر إليه بتركيز عندما كانَ يأوي إلى الفِراش ولا ينام. الآن، في سيّارة الأجرة، لم يكن هناك أيّ تفصيل لم يكن فريدًا ومليئًا بالوقت ومتلاشيًا فيه: في هذا الوقت المُلِحّ الّذي، مجدَّدًا، كانَ عليه أن يقيسه بالدقائق بل بالثواني، في الساعة الّتي أمامه، إلى جانب المِقود، في ساعة الكنيسة الّتي مرّ بقربها في الواحدة والثُّلث، في الساعة الّتي كانَ يتخيّلها على معصم لوكريثيا، سرّية ومثابِرة كدقّات دمِه. بالطريقة نفسها الّتي استعادَ بها الأمان المدهش بِوُجود لوكريثيا، استعادَ الخوفَ من الوصول متأخّرًا: وكذلك من أن يكون قد سمِن وبَشِع، أن يكون خائنًا لذِكرياتها أو غير جديرٍ بتكهُّنات مخيِّلتها.

دخلت سيّارة الأجرة المدينةَ، مُحاذية طَريق النهر المحفوف بأشجار الحور، عبْر جادّة التَّمْر الهندي وأزِقّة الأحياء العتيقة الرّطبة. ووصلت فجأة كورنيشَ البحر في منتصَف نهارٍ لانِهائيٍّ ورماديّ مخدَّدٍ بِنوارسَ انتحاريّة تحت الرّذاذ. رجُلٌ جامد ووحيد، معطفه قاتم اللون، وقبّعة على وجهه، كانَ ينظر إلى البحر وكأنّه يتأمّل نهاية العالم. قُبالتَه، عند الجهة الأُخرى من السور، كانت الأمواج تتكسّر على الصخور مع ثوَران الزّبَد العالي. اعتقَد بيرالبو أنّه رأى الرجُلَ يحمي سيجارةً في باطنِ يدِه من الهواء. فكّر: هذا الرجلُ هو أنا. الحانةُ الّتي ضربَت له لوكريثيا موعدًا فيها كانت على منحدَرٍ شديد

متوغّل في البحر. رأى بريق أبوابها المزجَّجة وهو يسْلُك منعطفًا. فجأةً، حياة بيرالبو بأكْملها اختُصِرت في الدقيقتَين المتبقّيتَين لحِينِ تتوقّف سيّارة الأجرة. على قممِ الأمواج الرماديّة، تهدهدَت نوارسُ جامدة. عندما رآها من خلفِ النافذة تذكَّر بيرالبو رجُلَ المعطف القاتم: ما يجمعه بها كانَ الشعور باللامبالاة أمام الكارثة. لكنْ هذه كانت طريقةً كي لا يفكّر في الشيءِ المُرعب، بأنّه لم يتبقَّ له سوى بضع ثوانٍ كي يجتمع بِلوكريثيا. توقَّفت سيّارة الأجرة عند جانب من الكورنيش واستمرَّ ينظر إلى بيرالبو في المرآة. «لا غاڤيوتا» قال، تقريبًا بوَقارٍ. «لقد وصلْنا».

على الرُّغم من الأبواب المزجَّجة الكبيرة في الداخل، سادت لا غاڤيوتا عتمةُ اللقاءات السريّة، والويسكي في غير وقتِها، والإدمان الحذِر للكُحول. فُتحت الأبواب الأوتوماتيكيّة بصمتٍ أمام بيرالبو. رأى طاولات نظيفة وخاليةً أغْطيتُها مقطَّعة، وبارًا طويلًا لم يكن عليه أحد. في الجهة الأُخرى من الأبواب المزجَّجة كانت جزيرةٌ توَّجتها المنارة، وخلْفها البُعد الماديّ للمنحدَرات والبحر، والخُضرة القاتمةُ للهضاب الّتي قطَّعها الضباب. بهُدوءٍ تامٍّ، وكأنّه كانَ شخصًا آخَر، تذكَّر أغنية: «الطقس العاصف». فجعلَته يذكُر لوكريثيا.

ظنّ أنّه وصلَ متأخّرًا، أنّه أخطأ الساعة أو مكان الموعد. جانبيًّا في المشهد البعيد المعكَّر أحيانًا برشقات الزَّبَد، كانت امرأة تدخّن قبالة كأس عريضةٍ شبهِ شفّافة لم تكن تشرب منها. حجبَ وجْهَها شعرُها الطويل والنظّارةُ الدّاكنة. وقفَت، وتركَت نظّارتها على

الطاولة. «لوكريثيا» قال بيرالبو، من دون أن يتحرّك، لكنّه لم يكن يناديها، كانَ يلفظ اسمها، غيرَ مصدِّق أنّه يراها.

لا أتخيّل هذه الأشياءَ، لا أبحث عن التفاصيل في الكلمات الّتي قالها لي بيرالبو، وكأنّي أرى ذلك من بعيدٍ بعيدٍ بدقّةٍ ليس لها علاقة بالإرادة ولا بالذاكرة. أرى بُطءَ معانقتِهما من خلال أبواب لا غاڤيوتا المزجَّجة، في الضوءِ الخافت لتلك الظهيرة في سان سيباستيان، وكأنّي كنتُ أتمشّى في تلك اللحظة على الكورنيش، ورأيتُ بطرْفٍ خفيٍّ رجلاً وامرأة يتعانقان في حانة خالية. أرى كلّ ذلك من المستقبل، من ليالي الرّيبة والكحول في فندق بيرالبو، عندما كانَ يروي لي عن عودة لوكريثيا محاوِلًا تلطيفها بسُخريَة كذَّبَها تعبيرُ عَينَيه، والمسدّسُ الّذي حفظه في منضدة السرير.

عند معانقَتِه للوكريثيا لاحظَ في شعرها رائحة بدت له غريبة. ابتعَد عنها لينظُر إليها بإمعان، وما رآه لم يكن الوجهَ الّذي رفضتْه له ذكرياتُه، ولا لونَ العَينين الّذي لم يتمكّن أيضًا من تحديده، بل التأكيد التامّ للوقت: كانت أكثر ضعفًا من ذي قبلُ، وشعرُها القاتم وشُحوبُ وَجنتَيها المُتعبتَين رسما ملامح وجهِها. إنّما الوجه نبوءة تتحقّق دومًا. وجهُ لوكريثيا بدا له مجهولًا أكثر وأجملَ من أيّ وقتٍ مضى لأنّه بدا في تمام امتلائه، المعلن فقط منذ ثلاث سنوات، والمتحقِّق الآن، ما جعل حُبّ بيرالبو يتدفّق. في زمنٍ آخَر اعتادت لوكريثيا ارتداءَ ألوانٍ فاقعة، وقصَّ شَعرها دائمًا حتّى كتفَيها. الآن ارتدَت بنطلونًا أسود على مقدار جسمها أبْرز نحافتها، وسُترة مشمَّعة رماديّة عاديّة

جدًّا. الآن كانت تدخّن سجائرَ أميركيّة وتشرب بسرعة أكثر من بيرالبو، مُصفِّيةً الكؤوس بعزمٍ ذُكوريّ. كانت تراقب كلّ شيءٍ من وراءِ زجاج نظّارتها الداكن: ضحكت عندما سألها بيرالبو عن معنى كلمة بورما. لا شيءَ، قالت له، مكانٌ في ليشبونة: كانت قد استعملَت ظَهْرَ تلك الخريطة المنسوخة لأنّها رغبت أن تكتب له ولم تجد ورقًا.

– لم تعُد إليكِ تلك الرغبة، قال بيرالبو، مبتسمًا ليُخفّف من تذمُّره غير المُجدي، والملامةِ الّتي لاحظَها بنفسه في صوتِه.

– كلَّ يوم. – أرْجعت لوكريثيا شعرَها إلى الوراء، رافعة إيّاه ويداها تسندان صدغَيها. – كلَّ يوم وفي كلّ ساعة كنتُ أفكّر فقط في الكتابة لكَ. كنتُ أكتب ولو لم أكتب. كنتُ أروي لكَ جميع الأشياءِ بحسَب ما كانت تحْدث لي. كلَّ شيءٍ، حتّى المكدِّر منها. الأشياء الّتي لم أكن – حتّى أنا – أريد معرفتها. أنت أيضًا لم تعد تكتب لي.

– فقط عندما أرجَعوا لي رسالة.

– تركتُ برلين.

– في كانون الثاني؟

– كيف تعرف ذلك؟ ابتسمَت لوكريثيا، كانت تتلهّى بسيجارة غير مشتعلة، وبنظّارتها. في نظْرتها المتيقّظة كانَ بُعدٌ رماديٌّ أكثر حِدَّةً من بُعد المدينةِ الممتدّة في الخليج، مبعثَرة خلفَ الهضاب والضباب.

– رآكِ بيلي سوان وقْتها. تذكَّري.

– أنت تذكر كلّ شيء. دائمًا كانت تخيفني ذاكرتُك.

– لْمَ تقولي لي إنّك فكّرت في الانفصال عن مالكولم.

– لم أفكّر في ذلك: استيقَظنا ذات صباح وفعلتُ ذلك. لم يزل غيرَ مصدِّقٍ ذلك.

– ألا يزال في برلين؟

– أعتقِد. – كانَ في نظرة لوكريثيا عزمٌ يتجاهل لأوّل مرّة الشكَّ والخوف: والشفقة أيضًا، فكّر بيرالبو – لكنّي لم أعرف شيئًا عنه منذ ذلك الحين.

– إلى أين ذهبتِ؟ – كانَ بيرالبو يخاف أن يسأل. أيقنَ أنّه سيصِل إلى حدٍّ لن يجروء بعدَه على المتابعة. من غير أن تتفادى نظْرته لزمَت لوكريثيا الصمت: كانَ بإمكانها أن تنفيَ شيئًا من غير أن تقول كلمة لا ولا أن تحرِّك رأسها، فقط وهي تحدّق في العيون.

– كنت أريد الذهاب إلى أيّ مكان لم يكن موجودًا فيه، لا هو ولا أصدقاؤه.

– أحدهم كانَ هنا، قال بيرالبو ببطءٍ، توسين مورتون.

أبْدت لوكريثيا حركة خوفٍ مقتضَبة لم تتمكّن من التأثير في نظْرتها ولا في خطِّ شفتَيها الرفيع والزهريّ. لِلحظةٍ نظرَت حولها وكأنّها خائفة من رؤية توسين مورتون جالسًا إلى طاولة قريبة، ساندًا المرفقَين إلى البار، مبتسمًا وراءَ دخان أحد سيجاراته الزَّريّة.

– هذا الصيف، في تمّوز، تابعَ بيرالبو. اعتقدَ أنّكِ كنتِ في سان

سيباستيان. قال لي إنّكما أعزُّ صديقَين.

– هو ليس صديق أحدٍ، ولا حتّى مالكولم.

– كان واثقًا من أنّنا كنّا نعيش معًا، قال بيرالبو بكآبة وحشمة، وغيّر لهْجته فورًا. هل بينه وبين مالكولم علاقة تجاريّة؟

– يعمل وحده، مع سكرتيرته تلك، دافني. كانَ مالكولم بمنزِلة أجير، وفي الأهميّة نصْفَ ما يعتقد.

– هل هدَّدك؟

– مالكولم؟

– عندما قلتِ له إنّك ذاهبة.

– لم يقل شيئًا. لم يكن يصدّق ذلك. لم يكن ليُصدّق أنّ امرأة قد تتركه. حتّى الآن، ربّما لا يزال بانتظاري.

– بدا لبيلي سوان أنّك كنتِ خائفة من شيءٍ ما عندما ذهبتِ لرؤيته.

– بيلي سوان يشرب كثيرًا. – ابتسمَت لوكريثيا بطريقة كانَ بيرالبو يجهلها: مماثِلة لطريقتها في تصفية كأسٍ أو مَسْك سيجارة، دلائل الوقت، والغَرابة الفاترة، والوفاء القديم المُستنفَد في الفراغ. – لا يمكنك أن تتصوّر مدى فرحتي عندما علمتُ بوُجوده في برلين. لم أكن أريد أن أسمعه يعزف، بل أن يحدّثني فقط عنك.

– هو الآن في كوبنهاغن. اتّصل بي ذات يوم: هو لم يشرب منذ ستّة أشهُر.

– لماذا لستَ معه؟

- كانَ عليّ أن أنتظرك.
- لن أبقى في سان سيباستيان.
- ولا أنا. الآن أستطيع الرحيل.
- لم تكن حتّى لتعرف أنّني سأعود.
- ربّما لم تعودي.
- أنا هنا. أنا لوكريثيا. أنت سانتياغو بيرالبو.

مدّت لوكريثيا يدَيها على الطاولة وجمعَتهما إلى يدَي بيرالبو اللتَين بقيَتا جامدتَين. لمسَت وجهَه وشَعره وكأنّها تريد التعرُّف إليه بيَقينٍ لم تحصل عليه النظرة. ربّما لم يكن يؤثّر فيها الحنانُ بل الشعورُ باليُتم المتبادَل. بعد سنتَين، في ليشبونة، خلال ليلةٍ وفجرِ أحد أيّام الشتاء، سيعْلم بيرالبو أنّ هذا كانَ الشيءَ الوحيد الّذي سيربطهما دائمًا، لا الرغبةُ ولا الذاكرة، بل التخلّي، والثّقة بالمكوث وحيدَين من دون أن يكونَ لدَيهما حتّى عذرُ الحُبِّ الفاشل.

نظرَت لوكريثيا إلى ساعتها، لم تقُل بعدُ إنّ عليها الرحيل. كانت هذه الحركةَ الوحيدةَ تقريبًا الّتي تعرَّف عليها، القلق الوحيد الآتي من زمنٍ آخَر والّذي استرجَعه غيرَ ممسوس. لكن الآنَ مالكولم لم يكن موجودًا، لم يكن هناك سببٌ للسرّيَّة والعجَلة. أخذَت لوكريثيا السجائر والقدّاحة ووضعت نظّارتَها.

- أما زلتَ تعزف في الليدي بيرد؟
- تقريبًا أبدًا. لكنْ إنْ أردتِ أعزفُ الليلة. سيُسَرُّ فلورو بلوم برؤيتك. دائمًا كانَ يسألني عنكِ.

– لا أريد الذهاب إلى الليدي بيرد – قالت لوكريثيا، وهي الآن واقفة، رافعةً سحّابَ مشمَّعها –، لا أريد الذهاب إلى أيّ مكان يذكّرني بتلك الأيّام.

لم يتبادلا قُبلة الوَداع. كما منذ ثلاث سنين، رأى بيرالبو سيّارة الأجرة تبتعد حيث كانت ذاهبة، لكنْ هذه المرّة لم تستدِرْ لوكريثيا لِتُتابع النظرَ إليه عبْرَ النافذة الخلفيّة.

الفصل الثامن

رجعَ وئيدًا إلى المدينة، وهو يتمشّى قرب درابزين الكورنيش، مرشوشًا أحيانًا بالزّبَد البارد المتكسّر على الصخور. الرجُل ذو القبّعة والمعطفِ الداكن كانَ لا يزال في المكان نفسه، ربّما ينظر إلى النوارس. نزل على الدرج الخارجيّ للأكواريوم إلى مرفأ صيّادي السمك، طائشًا، جائعًا، سَكْران بعض الشيءِ، تدفعُه حماسة معنويّة لم تكن تشبه السعادة ولا التعاسة، بل تسبقها أو لا تبالي بها، كالرغبة في الأكل أو تدخين سيجارة. أخذَ في سَيره يردّد بصوتٍ خافتٍ جُمل أغنية لطالما فضّلَتها لوكريثيا، وكانت كلمةَ سرٍّ وتصريحًا وقحًا بحُبٍّ عندما كانت تدخلُ الليدي بيرد مع مالكولم، ويبدأ بيرالبو عزْفها، غير كاملة، فقط احتفاءً بها، ناثرًا علاماتِ موسيقى غيرَ مشكوكٍ فيها في معزوفة أُخرى. اكتشفَ أنّ تلك الموسيقى لم تعد تؤثّر فيه، وأنّها لم تعد تؤشّر إلى لوكريثيا ولا إلى الماضي، ولا حتّى إلى ذاته. تذكّر شيئًا قاله له بيلي سوان: «لا نعني شيئًا للموسيقى، ولا يعنيها الألم أو الحماسة اللذانِ نَبثُّهما فيها حين نعزفها أو نسمعها. إنّها تستغلّنا، كما تفعل امرأةٌ بعشيقٍ يتركها باردة».

تلك الليلة كانَ ذاهبًا لتناوُل العشاءِ مع لوكريثيا. «خُذني إلى مكان جديد»، قالت له، «إلى مكان لم أذهب إليه بتاتًا من قبل». قالت له ذلك وكأنّها تطلب بلدًا مجهولاً لا مطعمًا، لكن تلك كانت الطريقة الّتي تكلّمت بها دائمًا، مُضفِيةً نوعًا من الشهوة البطوليّة

والرغبة المستحيلة في أتْفهِ فُصول حياتها. في التاسعة كانَ سيُعاود رؤيتها، كانت الثالثة قد دقّت توًّا في أبراج الأجراس القريبة من «سانتا ماريّا ديل مار»: مجدَّدًا كانَ الوقت بالنسبة لبيرالبو مكانًا خانقًا، كغُرف الفنادق حيث كانَ يلتقي لوكريثيا منذ ثلاث سنين، وكانت عندما تذهب تتركه وحيدًا أمام السرير المبعثَر، والبحر الجامد الّذي كانَ يراه من خلال النافذة، بحر سان سيباستيان الّذي يبدو من بعيد في أمساء الشتاء، كلَوح أردواز عموديّ. تسكَّع بين الأزْوِقة، بين الشِّباك المكدَّسة وعُلَب الأسماك الفارغة، واجدًا عزاءً خفيفًا في ألوان المنازل المخفَّفة بالهواء الرماديّ، وفي الواجهات الزرق، وفي دُرَف الشبابيك الخضراءِ والحمراءِ، وفي صفِّ السطوح العالي الممتدّ حتّى أقصى التلال. فبدا كأنّ عَودة لوكريثيا كانت تتيح له أن يعاود رؤية المدينة الّتي لم تكن موجودة تقريبًا في عَينيه عندما كانت غائبة. حتّى الصمتُ الّذي أبْرزَه وقْعُ خُطاهُ، وروائحُ المرفأ المستعادة أكّدت له قُرب لوكريثيا.

لم يكن يتذكّر أنّنا أكلنا معًا ذلك اليوم. كنتُ مع فلورو بلوم في حانةٍ بالمدينة القديمة ورأيتُه يدخل، متمهّلاً وذاهلاً، شَعرُه مبلَّلٌ، وجلسَ إلى طاولة في أقصى القاعة. «خادمُ الڤاتيكان لم يعد يريد التعاطي مع منبوذي هذا العالم» قال فلورو بلوم بصَوت جهوريّ، ملتفتًا إليه، وهو لم يكن قد رآنا. جاءَ بكوب الجِعة وانضمَّ إلينا، لكنّه لم يقُل شيئًا تقريبًا خلال الغداء. أعرف أنّه كانَ ذلك اليومَ بالتحديد لأنّ وجْهه احمرَّ بعض الشيءِ عندما سأله فلورو إذا كانَ مريضًا

حقًّا: ذلك الصباح كانَ قد اتَّصل بالمدرسة ليتكلّم معه وقالَ له أحدُهم – «صوتٌ إكليريكيّ» – إنّ السيّد سانتياغو بيرالبو تخلّفَ عن صفِّه لأنّه متوَعّك. «متوعّك» أشار فلورو بلوم، «فقط راهبةٌ يخطرُ ببالها أن تستعمل تلك الكلمة في هذه الأيّام». أكلَ بيرالبو بعجَلة، واستأذنَ في ألاّ يشرب القهوة معنا. كانَ عليه الذهاب، صفُّه الأوّل كانَ في الرابعة. عندما خرجَ من الحانة، حرّكَ فلورو بلوم بثقَلِ رأسَه المُشابِه لرأس الدُّبّ. «هو ينفي ذلك» قال لي، «لكنّي واثقٌ أنّ الراهبات يُجبرنه على تلاوة المسبحة».

لم يذهب إلى العمل بعد الظُّهر أيضًا. في الآونة الأخيرة، بقدْر ما كانَ يفقد الثّقة بمستقبَله كموسيقيّ ويعتادُ خِزيَ تعليم السولفيج، كانَ قد اكتشفَ في نفسه استعدادًا غير مُتناهٍ للطّاعة والخِسّة، لكنّه انطفأ فجأة في ساعات قليلة. ليس لأنّه لم يعُد يخشى أن يُطرد من المدرسة: منذ أن رأى لوكريثيا شعَر كأنّ شخصًا آخَر كانَ يخاطر بذلك، الشخص الذي ينهض بوَداعةٍ باكرًا كلّ يوم ويقدر على الانصياع لتدريب تلامذته على ترتيلة دينيّة. اتَّصلَ بالمدرسة: ربّما كان الصوت الإكليريكي نفسُه الّذي جدّد في فلورو بلوم غريزة وراثيّة بانتهاكِ حُرمة الأديرة هو الذي تمنّى له الشفاءَ العاجل بحذرٍ وبُرودة. لم يكن الأمر يهمّه، بيلي سوان كانَ لا يزال ينتظره في كوبنهاغن، قريبًا جدًّا سيَحينُ الوقت لبَدءِ حياة أُخرى، الحياة الأُخرى، الحقيقيّة، الّتي أعلنَت عنها دائمًا الموسيقى كصورة مسبَقة لشيءٍ لم يعرفْه بطريقة ملموسة إلا عندما كشفت عنه عَينا لوكريثيا

الحميمتان. فكّر أنّه لم يتعلّم العزف على البيانو، وما فعل ذلك إلّا لِكي تسمعه وتشتهيه، وأنّه إذا تمكّن يومًا من الوصول إلى ميزة الكمال فسَيكون بسببِ وفائه لمستقبلٍ تنبّأت له به لوكريثيا من أوّل ليلة سمعَته يعزف في الليدي بيرد، عندما لم يكن هو نفسُه يفكّر في أنّه سيأتي يومٌ يصير فيه شبيهًا بموسيقيٍّ حقيقيٍّ، ببيلي سوان.

– هي اخترعَتني، قال بيرالبو في إحدى الليالي الأخيرة، عندما لم نعُد نذهب إلى الميتروبوليتانو. لم أكن ماهرًا كما اعتقدَت هي، لم أكن أستحقُّ حماستها. مَن يدري؟ ربّما تعلّمتُ كي لا تنتبهَ لوكريثيا أبدًا إلى أنّي مُنافق.

– لا أحد بإمكانه اختراعُنا – عندما قلت ذلك شعرت بأنّه ربّما كان من قبيل سوءِ الحظّ. – كنتَ تعزف منذ عدّة سنوات عندما تعرّفت إليها. فلورو كانَ يقول دومًا إنّ بيلي سوان هو مَن جعلَك تُدرك أنّك موسيقيّ.

– بيلي سوان أو لوكريثيا. – مستندًا إلى سريره في الفندق، هزّ بيرالبو كتفَيه، وكأنّه شعرَ بالبرد – لا يهمّ. وقْتها لم أكن موجودًا إلّا إذا فكّر فيَّ أحد.

بادرَ إلى ذهني أنّه إذا كانَ ذلك صحيحًا فأنا لم أكن موجودًا قطّ، لكنّي لم أقل شيئًا. سألتُ بيرالبو عن ذلك العشاءِ مع لوكريثيا: أين ذهبا؟ وعمَّ تكلّما؟ لكنّه لم يتذكّر اسمَ المكان، كانَ الألمُ قد محا تقريبًا تلك الليلة من ذاكرَته، ما تبقّى منها إلّا الوَحدة الأخيرة، والمشوار الطويل في سيّارة الأجرة الّتي أرْجعته إلى بيته، الطريق الّذي أضاءتْه

مصابيح السيّارة، الصَّمت، دخان سجائره، الشبابيك المضاءة في مباني التلال الوحيدة، في الضباب الأسمر. هذا الجزء من حياته المتعلّق بلوكريثيا كانَ دائمًا على هذا النحو: لعبة شطرنج مؤلَّفة من الهروب وسيّارات الأجرة، سفرة ليليّة في الفضاء الأبيض لِما لم يحْدث. لأنْ تلك الليلة لم يحْدث شيء لم يكن بإمكانه أن يتوقّعه من قبل بسبَب الشعور القديم بالفشل، بسبَب الفراغ في معدَته: وحده في منزله، وهو يسمع أسطواناتٍ لم تعد توفّر له ضمانةً للسّعادة، كانَ يسرّح شعرَه أمام المرآة أو ينتقي ربطة عُنق كما لو لم يكن هو مَن على موعدٍ مع لوكريثيا، كما لو أنّها لم تعُد.

كانت قد استأجرَت شقّة مقابِلة للمحطّة، غرفتَين خاليتَين تقريبًا كانَ يرى من خلال نوافذهما انسيابَ النهر المُعتم والمحفوف بأشجار الحور، والجُسور الأخيرة. عند الثامنة كانَ بيرالبو قد اقتربَ جدًّا من المدخل، لكنّه لم يقرّر الصعود، بقيَ بعض الوقت ينظر إلى لوحة إعلاناتٍ لِدور سينما وبعدها جالَ في أرْوقة دَير سان تيلمو المُعتمة منتظرًا بلا جدوى أن تمرّ الدّقائق فيما، قريبًا جدًّا عند الجهة الأُخرى من الشارع، في الظلمة، كانَ الموج يرتفع إلى درابزين الكورنيش ببَريق الفوسفور.

عندما نظرَ إليها أدركَ لماذا كانَ يشعرُ بأنّه عاشَ ليلة مماثلة: كانَ قد حلم بها، كانَ قد سارَ هكذا في أحد أحلامه بِمُدنٍ ليليّة، وبشكلٍ غامض كانَ على وشكِ تحقيق شيءٍ حصلَ له في فترةٍ غياب لوكريثيا وباتَ محتومًا.

أخيرًا صعدَ قبالة بابٍ عِدائيٍّ، رنّ الجرس عدّة مرّاتٍ قبل أن تفتح له. سمعَها تعتذر بسبَب اتّساخ المنزل والغرَف الخالية. انتظرَها وقتًا طويلاً في غرفة الجلوس، الّتي فيها كنبَة وآلة كاتبة فقط، يسمع صوتَ ماءِ الاستحمام، متفحّصًا الكتُب المصفوفة على الأرض، بمحاذاة الحائط. كانَ هناك علَبٌ من الكرتون، ومنفضة مليئة بأعقاب السجائر، ومدفأة منطفئة، عليها حقيبة سوداءُ نصفُ مفتوحة. تصوَّر أنّها كانت الحقيبةَ نفسها الّتي حفظت فيها الرسالة الّتي سلّمتها إلى بيلي سوان. كانت لوكريثيا ما تزال في الحمّام، يُسمَع صوتُ الماءِ وهو يضرب الستارة البلاستيكية. فتحَ بيرالبو الحقيبة بالكامل، شاعرًا بالخساسة بعض الشيءِ. مناديل ورَقيّة، أحمرُ الشفاه، مفكّرة مدوَّن فيها بالألمانيّة ما بدا لبيرالبو، بشعور أليم، عناوين رجال آخَرين، ، مسدّس، محفظة صغيرة احتوَت على صوَرٍ، في إحداها، أمام غابة من الأشجار الصُّفر، كانت لوكريثيا مرتديَةً سُترة كحليّة اللون، يعانقها رجلٌ طويل القامة، يداها مُمسكتان بخَصره. وفيها أيضًا رسالة، تعجَّب بيرالبو إذ رأى عليها خطَّ يدِه، وصفيحةً مطويّةً بتَأنٍّ، كانت نسخة عن لوحة: بيت، طريق، جبل أزرق يظهر بين الأشجار. انتبهَ متأخّرًا جدًّا إلى أنّه قد توقّف عن سماع صوت الماءِ في الحمّام. كانت لوكريثيا تنظر إليه مِن على العتبة، حافيةً، وشَعرُها مبلول، ملفوفةً بثَوب حمّام لا يصل إلى ركبتَيها، ينبعِثُ البريق من عينَيها وبشَرتها، وبدت أكثر نحولاً: وحده الخجل خفّف من رغبة بيرالبو.

- كنتُ أبحث عن سجائر، قالَ والحقيبةُ ما زالت في يده.

اقتربَت لوكريثيا بضعَ خُطًى لتأخذها وأشارت إلى علبة سجائر بجانب الآلة الكاتبة. كانت تفوحُ منها رائحة قويّة من الصابون والعطر، والبشرة العارية الرطبة تحت قماش ثوبها الأزرق.

- مالكولم كانَ يفعل ذلك، قالت له. يفتّش حقيبة يدي كلّما كنتُ في الحمّام. انتظرتُ مرّة حتّى ينام كي أكتب لكَ رسالة. مزّقتُها بعدَها إرْبًا إربًا ودلفتُ إلى الفِراش. هل تعرف ماذا فعلَ؟ قامَ يبحث في سلّة المهمَلات وعلى الأرض، وجمعَ كلّ القطع لترَميم الرسالة مجدَّدًا. أمْضى الليل بكاملِه. عناءٌ بلا طائل، رسالة سخيفة، لذلك مزّقتُها.

- قال لي بيلي سوان لدَيك مسدّس.

- وصورةُ لوحةٍ لِسيزان.

طوَتها لوكريثيا لتحفظها في حقيبة يدها.

- قالَ لكَ هذا أيضًا؟

- المسدّس ملْكُ مالكولم؟

- أخذتُه منه. كانَ المسدّس الشيءَ الوحيد الّذي أخذتُه عندما رحلتُ.

- هذا يعني أنّكِ حقًّا كنتِ تخافين منه.

لم تُجبه لوكريثيا. بقيَت لحظة تنظر إليه بغرابة وحنان، كما لو أنّها هي أيضًا لم تكن قد اعتادت بعدُ وجودَه، ولا ذلك المكانَ الخالي الّذي لم ينتمِ إليه أيٌّ منهما. قنديل الغرفة الوحيد كانَ على الأرض

مُطيلاً ظلَّيهما بطريقة منحرفة. اختفت لوكريثيا وراء باب غرفة النوم آخذةً معها الحقيبة. خُيِّل لبيرالبو أنّه سمعَ صوتَ المفتاح وهي تقفل الباب. متَّكئًا بمِرفقَيه على النافذة، نظرَ إلى خطِّ النهر وأضواءِ المدينة محاوِلاً أن يُبعد عن مخيِّلته، الواقع غير المعقول، أنّه على بُعد خطوات منه، وراء الباب المغلق، ربّما لوكريثيا كانت قد جلسَت على السرير، معطَّرة وعارية، لتلبسَ جواربها، وملابسَها الداخليّة الصغيرة الّتي كانت، بتناقُضِها، تُبرز في شبهِ الظلمة لونَ بشَرَتها الزهريَّ والأبيض.

كانت المدينة، من تلك النافذة، تبدو له مختلفة: مشعّة ومعتمة كبرلين الّتي رآها طوالَ ثلاث سنين في أحلامه، محاطة بالليل الخالي من الأضواءِ وبخطِّ البحر الأبيض. «نحلم بالمدينة نفسِها» كتبَت له لوكريثيا في إحدى رسائلها الأخيرة «لكنّي أُسمّيها سان سيباستيان وأنتَ تسمّيها برلين».

أمّا الآن فصارت تسمّيها ليشبونة. دائمًا، وقبْل رحيلها إلى برلين بكثير، منذ أن تعرّف عليها بيرالبو، عاشت لوكريثيا في عدم الطمأنينة والشكّ أنّ حياتها الحقيقيّة كانت بانتظارها في مدينة أُخرى بين أُناسٍ مجهولين، ما جعلها تنكر خفيةً الأماكنَ الّتي تتواجد فيها وتلفظ بيَأسٍ وبرغبةٍ أسماءَ مدُنٍ لا شكّ أنّ مصيرَها قد يتحقّق فيها إذا زارتها ذات يوم. طوالَ أعوام كانت مستعدّة لأنْ تبذُل كلّ شيءٍ كي تعيش في براغ، أو نيويورك، أو برلين، أو ڤيينّا، والآنَ ليشبونة. كانَ لدَيها كتيِّباتٌ بالألوان، قُصاصاتُ صحفٍ، معجمُ

اللغة البرتغاليّة، خريطةٌ لِليشبونة لم يرَ بيرالبو أنّه كُتبت عليها الكلمة بورما. «عليّ الذّهاب في أسرع وقتٍ»، قالت له تلك الليلة، «إنّه مثلُ نهاية العالم، تصوَّر ما كان يحسُّه البحّارة القُدامى عندما يدخلون أعالي البحار وتغيبُ عنهم اليابسة».

– سأذهب معكِ، قال بيرالبو. ألا تذكُرين؟ كنّا سابقًا نتكلّم دومًا عن الهرب معًا إلى مدينة في الخارج.

– لكنْ أنتَ لم تتحرّك من سان سيباستيان.

– كنتُ أنتظركِ لأفي بوَعدي.

– لا يمكن الانتظار كلّ هذا الوقت.

– أنا تمكّنت.

– لمْ أطلب ذلك منك بتاتًا.

– أنا أيضًا لم أُرِد ذلك. لكن هذا لا علاقة له بالعزم. في النهاية، في الأشهُر الأخيرة، اعتقدتُ أنّي لم أعُد أنتظركِ، لكن هذا لم يكن صحيحًا. حتّى الآن، أنا بانتظارك.

– لا أريدك أن تفعل ذلك.

– قولي لي، لماذا عدتِ إذًا؟

– أنا مجرّد عابرة. سأذهبُ إلى ليشبونة.

أُلاحِظ أنّ أبْرز ما في هذه القصّة الأسماءُ: اسمُ ليشبونة واسْمُ لوكريثيا، عنوان ذلك اللحن الضبابيّ الّذي ما زلتُ أسمعُه. الأسماءُ، كالموسيقى، قالَ لي يومًا بيرالبو بالحكمة الّتي يصلُ إليها بعد كأسِ دجِنْ ثالثة أو رابعة، تنتزعُ من الزمن الأشخاصَ والأماكنَ الّتي تُشير

إليها، مقيمة الحاضرَ من غير أيّ سلاح إلاّ رنينَها. لذلك استطاعَ أن يؤلّف تلك المقطوعة من غير أن يذهب قطّ إلى ليشبونة؛ كانت المدينة موجودة بالنسبة إليه قبلَ أن يزورها، كما هي موجودة الآن بالنسبة إليّ، وأنا لم أرَها، بألوانِها الورديّة والطينيّة عند الظّهر، غائمة بعض الشيءِ إزاءَ بَريق البحر، معطَّرة بمَقاطع اسمِها اللفظيّة كالنَّفس الدّاكن، ليشبونة، بنغَميّةِ اسمِ لوكريثيا. ولكنْ يجب التخلّص حتّى من الأسماء، كانَ بيرالبو يؤكّد، لأنّه بها أيضًا يوجد احتمالٌ سرّيٌّ في الذاكرة، ويَجب انتزاعُها كاملةً للتمكّن من العيش، كانَ يقول، للخروج إلى الشارع والسَّير نحو مقهى وكأنّنا فعلاً على قيد الحياة.

لكنّ هذا كان أحدَ الأشياءِ الّتي بدأ يتعلّمها فقط بعد عودة لوكريثيا، بعد تلك الليلة البطيئة من الكلمات والكحول حين علمَ فجأة أنّه فقدَ كلّ شيءٍ، وأنّ حقّه بالبقاءِ حيًّا في ذكرى ما لم يعُد موجودًا قد انتُزع منه. شربا في حاناتٍ منعزلة، الحانات نفسِها الّتي كانا يقصدانها قبل ثلاث سنين للاختباءِ من مالكولم، يُسعفهما الدجِنْ والنبيذ الأبيض على استرجاع لعبة التظاهر والتهكّم القديمة، للكلمات الّتي يقولانها وكأنّهما لم يفعلا، والصمت الّذي يفصح عنه بنظرة واحدة أو بفكرة تخطر لهما بالتزامن وتثير الضحك والعِرفان في لوكريثيا، عندما تسير متأبّطة ذراع بيرالبو بطريقة زوجيّة تقريبًا، أو تنظر إليه بصمتٍ في بار إحدى الحانات. لطالما أنقذَهما الضحك الّذي بدا نوعًا من الأناقة الانتحاريّة للهُزءِ من نفسَيهِما، وكان قناعًا

متبادلاً معزِّزًا ليَأسِهما ولِخَوفِهما المزدوج، حيث كلٌّ منهما كانَ وحيدًا وملعونًا وضائعًا.

من منحدَر أحد الجبال المتوائمة الّتي تُغلق الخليج، الهادئَ والليليَّ كبُحيرة، نظرا إلى المدينة من مطعم ذي شموع، وملاعق وشوَك وسكاكين من الفضّة، وندُلٍ جامدين في العتمة، شابكينَ أيديَهم على وزْراتٍ بيضٍ كبيرة. هو أيضًا، بيرالبو، كانَ يهوى الأماكن، على شرطِ أن توجد فيها لوكريثيا، كانَ يهوى في كلّ لحظة امتلاءَ الوقت، بالبُخل الهادئ لَمن يملك، لأوّل مرّة، ساعاتٍ ومالًا أكثر ممّا جَروَ على أن يتمنّى. كما المدينةُ في الجهة الأُخرى من النوافذ الزجاجيّة، بدا الليلُ بكاملِه مقدَّمًا إليه، بلا نهاية، مع بعض المرارة، قائمًا وليس ملائمًا تمامًا، ولو حقيقيًا، سهْلَ المنال تقريبًا، مألوفًا وغيرَ صافٍ كوَجهِ لوكريثيا. كانا آخَرَينِ، قبلا ذلك، وبالنظَر الواحدُ إلى الآخر، وكأنّه يراه لأوّل مرّة، وبعَدَمِ الاستغاثة بالنّار المقدَّسة والفاسدة من جرّاءِ البُعد، وبشجْبِ الحنين، لأنّه كانَ مؤكَّدًا أنّ الوقت قد حسّنهما، وأنّ الوفاءَ لم يكن غيرَ مفيد. فهِم بيرالبو بقساوةٍ أنْ لا شيءَ من كلّ هذا كانَ ينقذه، وأنّ الالتقاء الشَّرِهَ والمتبادَل لم يكن يستثني وضوحَ الوحدة الظاهرة؛ بل كانَ يكرّسها كمُسلَّمَةٍ كئيبة. فكّرَ: «أرغبُها لدرجة أنّي لا يمكن أن أخسرها». في تلك اللحظة قال لها مجدَّدًا إنّه يريدُ أن يأخذها إلى ليشبونة.

– ألا تدرك؟ قالت لوكريثيا بلطافة وكأنّ الشموع وشبْه الظلمة خفّضَت صوتَها. عليّ الذهاب وحدي.

– قولي لي، هل بانتظارِك أحد هناك؟

– لا ينتظرني أحد. لكنْ هذا لا يهمّ.

– «بورما» اسمُ حانة؟

– هل قالَ لكَ ذلك توسين مورتون؟

– قال لي إنّكِ تخلّيتِ عن مالكولم لأنّك ما زلتِ مغرَمة بي.

نظرَت إليه لوكريثيا من خلال دخان السجائر الأزرق والرماديّ، وكأنّها تنظر من طرَف العالم الآخَر، وكأنّها أيضًا بداخلِه وباستطاعتِها رؤيةُ نفسِها بعَينَي بيرالبو.

– هل يكون الليدي بيرد مفتوحًا الآن؟ سألَت، لكنْ ربّما لم يكن ذلك ما أرادت قَوله.

– لكنّكِ لم تريدي أن نذهب.

– الآن أريد. أريد أن أسمعكَ تعزف.

– لديّ بيانو في بيتي وزجاجةُ بوربون.

– أُريد سماعَك في الليدي بيرد. هل يكون فلورو بلوم هناك؟

– في مثل هذه الساعة يكون قد أقفل. لكنْ لديّ مفتاح.

– خذني إلى الليدي بيرد.

– سآخُذك إلى ليشبونة. عندما تشائين، غدًا، هذه الليلة. سأترُكُ المدرسة. فلورو على حقٍّ: يجعلونني آخُذ التلميذاتِ إلى القدّاس.

– سنذهبُ إلى الليدي بيرد. أريدكَ أن تعزف تلك الأغنية، «كلّ الأشياءِ الّتي أنت هي».

عند الثانية صباحًا، أوصَلتهما سيّارة الأجرة إلى باب الليدي

بيرد. طبعًا كانَ مقفلاً، كنّا أنا وفلورو بلوم قد ذهبنا عند الواحدة بعد انتظارِ مجيءَ بيرالبو عبثًا. ربّما لوكريثيا أيضًا كانَ قد نالَ منها ابتزازُ الزمن المقلِق. جامدةً على الرصيف، رفعَت قَبّة سُترتِها الزرقاءِ لتحتمي من الرُّطوبة والرَّذاذ، وطلبَت إلى بيرالبو أن يدع لافتة النِّيون مضاءة عدّة دقائق، وقد وشّحَت بألوانِ الأزرق والزّهريّ المتقطّعة بلاطَ الرصيف المبلول، ووَجهَ لوكريثيا الأكثر شحوبًا تحت الأضواء الليليّة. في عتمة الليدي بيرد كانت رائحةٌ، كرائحة مِرآب، أو مخزن، أو دخان التبغ. بكُلّ حريّة كانا يُطيلانِ لعبة الماضي وكأنّهما على خشبة مسرحٍ خالٍ. سكبَ بيرالبو الكؤوس، ونسّق الأضواء، ونظرَ إلى لوكريثيا على المنصّة الّتي وضعَ عليها البيانو: كانت الأشياءُ، وكأنّ الذاكرة صفّتها، تحصلُ بطريقة نهائيّة ومجرَّدة، هو كانَ سيعزف وهي، كما في ليالٍ بعيدة، كانت مستعدّة لسَماعه من البار حاملة كأسًا، ولكن لم يكن مِن أحدٍ ولا شيءٍ هناك، كذِكرى حلمٍ مشوَّش. لأنّهما وُلدا ليَكونا فارّين لَطالما أحبّا أفلام السينما، والموسيقى، والمدُن الأجنبيّة. أسندَت لوكريثيا مِرفقَيها إلى البار، شربَت الويسكي وقالت، ساخرة من نفسها ومن بيرالبو وممّا كانت على وشكِ أن تقوله، ومُحِبَّةً إيّاه فوق كلّ اعتبار:

– اعزِفها مرّة أُخرى. اعزِفها مرّة أُخرى من أجْلي.

– سام، قالَ هو، ضاحكًا بتَواطؤٍ. سامتياغو بيرالبو.

كانَ يشعر بالبرد في أصابعِه، فقد شربَ لدرجة أنّ سرعة الموسيقى في خياله ترغِم يدَيه على خرقٍ مماثِلٍ جدًّا للخوف. على

لوحة المفاتيح، بارزةً من المِساحة السوداءِ المصقولة، كانت يدانِ وحيدتان وأوتوماتيكيّتان تنتميان إلى شخصٍ آخَر، لا تنتميان إلى أحد؛ متردِّدًا، غامَرَ وعزفَ بعض العلامات المُوسيقيّة، لكنّ الوقت لم يسمح له بأن يخطّ اللحن كاملاً. اقتربَت منه لوكريثيا حاملةً كأسها، بطيئةً وأطْولَ بكَعبِ حذائها الّذي انتعلَته.

– عزفتُ دائمًا لكِ، قال بيرالبو. حتّى قبل أن نتعارف، حتّى عندما كنتِ في برلين وأنا كنتُ واثقًا أنّك لن تعودي. الموسيقى الّتي أؤدّيها لا تهمُّني إذا لم تسمعيها أنت.

– هذا كانَ قدَركَ. – بقيَت لوكريثيا واقفة أمام منصّة البيانو، حازمة وبعيدة، على بُعد خطوة من بيرالبو. – أنا كنتُ الحُجّة، الذّريعة.

فاتحًا عَينيه نصف فتحة كي لا يقْبل الحقيقة المخيفة الّتي رآها في عينَي لوكريثيا، أعادَ بيرالبو عزفَ بداية تلك المقطوعة، «كلّ الأشياءِ الّتي أنت هي»، وكأنّ الموسيقى كانت لا تزال قادرة على حمايتِه أو إنقاذه. لكنّ لوكريثيا تابعت الكلام، اقتربَت منه أكثر، وطلبَت إليه أن ينتظر قليلاً. بحركة هادئة وضعَت يدَها على لوحة المفاتيح وسألَته أن ينظر إليها.

– لم تنظر إليّ حتّى الآن، قالت. حتّى الآن لم تشأ النّظر إليّ.

– لم أفعل شيئًا آخَر منذ أن اتّصلتِ بي. حتّى قبل أن أراكِ كنتُ أتخيّلك.

– لا أريدك أن تتخيّلني. – وضعَت لوكريثيا سيجارة بين شفتَيها

وأشعلَتها من دون أن تنتظر أن يُشعلها هو. – أريدُك أن تراني. انظرْ إليّ: لستُ المرأة نفسَها الّتي كانت في برلين، والّتي كانت تكتب إليك الرسائل.

– تعجبينني الآن أكثر. أنتِ حقيقيّة أكثر ممّا كنتِ في أيّ وقتٍ مضى.

– ألا تُدرك، – نظرَت إليه لوكريثيا بكآبةِ مَن ينظر إلى مريض. – ألا تدرك أنّ الوقت مضى؟ لا أتحدّث عن أسبوع ولا عن شَهر، بل عن ثلاث سنينَ كاملةٍ، سانتياغو، لقد رحلتُ منذ ثلاث سنين. قُل لي عددَ الأيّام الّتي أمْضيناها معًا، قل لي.

– أنتِ قولي لي، لماذا أردتِ أن نأتي إلى الليدي بيرد؟

لكنّه لم يتلقَّ جوابًا عن ذاك السؤال. أدارت له لوكريثيا ظَهْرها ببطءٍ واتّجهت نحو الهاتف، زاجّةً يدَيها في جيب سُتْرتها، وكأنّها شعرَت بالبرد. سمعَها بيرالبو تطلب سيّارة أجرة، نظرَ إليها من غير أن يتحرّك بينما كانت تودِّعه من باب الليدي بيرد. من جهة إلى أُخرى من البار، في المسافة بين نظْرتَيهما، أحسَّ – كصفعةٍ بطيئة جدًّا – بحجم وعتمة الهاوية الفارغة التي استطاعَ للمرّة الأولى قياسَها، والّتي حتّى تلك الليلةِ وذلك الحديثِ لم يكن قد لمحها لمحًا. أغلقَ البيانو، غسلَ الأكواب في المجلى، أطفأ الأنوار. وعندما خرج إلى الشارع وهو يُسدِل ستارَ الليدي بيرد الحديديّ، تعجَّب من عدمِ الشعور بالألم بعدُ.

الفصل التاسع

- أشباح، قال فلورو بلوم - فاحصًا المنفضة بمسحة كنَسيّة خفيفة وكأنّه ممسِك صحنًا للقُربان. - واضعة أحمرَ شِفاه.

ممسِكًا بيَدهِ الأُخرى كأسًا، دخل خلفيّة الحانة متمتِمًا بكلمات، حانيًا رأسه، وأذيالُ سرباله تتحرّك بضجيج بين ساقَيه، وكأنّه يدخل السّكْرِسْتيّا بعد تلاوة القدّاس. وضع المنفضة والكأس على المكتب وفرك يدَيه بحركة التفافيّة ولطافة إكليريكيّة.

- أشباح، ردّد - مشيرًا في رصانةٍ بسبّابته إلى أعقاب السجائر الثلاث الملطّخة بأحمر الشّفاه. من غير حلاقةٍ وسربالُه يكشف عن صدره، بدا كخادم كنيسة فاجرٍ. - امرأةٌ شبحٌ. عصبيّة جدًّا. تشعل عدّة سجائر وتتركها أنصافًا. «فانتوم ليدي». هل رأيتَ ذلك الفيلم؟ أكواب في المجلى. اثنان. أشباح ذات ضمير.

- بيرالبو؟

- مَن إذًا؟ زائر الظّلال. - أفرغ فلورو بلوم المنفضة وزرَّر بتكلُّفٍ سرباله، متذوّقًا جرعة ويسكي. - هذه إحدى مساوئ الحانات القائمة منذ زمن طويل. تمتلئ بالأشباح. تدخل المرحاضَ فتجد شبحًا يغسل يدَيه. أرواحٌ من المطْهر. - عاودَ الشُّرب، رافعًا كأسَه نحو علَم الجمهوريّة. - ظواهر شَبَحيّة.

- ربّما تخاف حين تراك في السِّربال.

- قماشٌ «باب أوّل». - حمل فلورو بلوم من دون جهد

صندوقًا كبيرًا من القناني إلى البار. - خياطة إكليريكيّة وعسكريّة. هل تعرف من كم سنة لديّ هذا السّربال؟ ثماني عشرة. خِياطة على القياس. كانَ الشيءَ الوحيد الّذي أخذتُه عندما طردوني من المدرسة الإكليريكيّة. مثالي كواقٍ من الغبار وكثوبٍ منزليّ. كم الساعة؟

- الثامنة.

- إذًا عليّ أن أفتح الآن. - خلع فلورو بلوم السّربال متنهّدًا بحزن. - أتساءلُ هل يأتي الشابّ بيرالبو ليعزف هذه الليلة؟

- مَن اصطحبَ الليلة الماضية؟

- امرأةً شبحًا وعفيفةً. - رفع فلورو بلوم ستارة ودلّني على فِراش كنّا نستعمله أحيانًا أنا أو هو. - لم يضاجعْها. ليس هنا، على الأقلّ. يعني أنّ لدَينا احتمالًا واحدًا: لوكريثيا الجميلة.

- كنتُما تعرفان إذًا، قال بيرالبو: كَكُلِّ شخصٍ عاش مأخوذًا بشغفٍ مفرطٍ، فاجأهُ اكتشافُ أنّ آخَرين كانوا علًى علم بما كان يشكّلُ بالنّسبة إليه ولوَعْيِه وضعًا حميمًا. والمفاجأة كانت أكبر لأنّها أجبرتْه على تعديل ذكرى بعيدة. - لكنّ فلورو لم يقل لي وقتَها شيئًا.

- كانَ مجروحًا. «عديما الوفاء» كانَ يقول لي، «أنا الّذي أعَنتُهما في الأوقات الصعبة، الآن يختبئان منّي».

- لم نكن نختبئ. - كان بيرالبو يتكلّم وكأنّ الألم لا يزال ملموسًا. - هي كانت تختبئ. أنا أيضًا لم أكن أراها.

- لكنّكما سافرتُما معًا.

- أنا لم أُكمل السَّفرة. انتظرتُ سنة قبل أن أذهب إلى ليشبونة.

ما زلتُ أستمع إلى اللحن: كما إلى قِصّة رُوِيَت لي عدّة مرّات، أتلذّذُ بكلّ تفصيل، بكلّ إيقاع وكلّ فخٍّ تنصبه لي الموسيقى، أُميّز أصواتَ البوق والبيانو المتزامنة، أقودها تقريبًا، لأنّي في كلّ لحظة أعرِف ماذا سيرنّ، وكأنّي أنا بنفسي أخترع اللحن والقصّة حين أسمعها، بطيئة ومنحرفة، كحديثٍ يراقَبُ من خلف بابٍ، كذِكرى ذلك الشّتاء الّذي أمضيتُه في سان سيباستيان. إنّه لَصحيحٌ، هناك مدنٌ ووجوهٌ لا يتعرّفها المرءُ إلاّ ليفقدَها فيما بَعد، ولا يمكننا استرجاع شيءٍ أبدًا، لا ما كانَ لدَينا، ولا ما كنّا نستحقّه.

- كانَ الأمرُ كالاستيقاظ فجأةً، قال بيرالبو، كما عندما تنام في منتصف النهار ثمّ تنهض عند الغروب فلا تتعرّف النورَ ولا تعرف أين أنت ولا حتّى مَن أنت. هذا ما يحْدث للمرضى في المستشفيات، أخبرَني ذلك بيلي سوان في ذلك المستوصف في ليشبونة. استيقظَ واعتقدَ أنّه ميْتٌ ويحلم بأنّه على قيد الحياة، بأنّه ما زال بيلي سوان. كما في تلك القصّة حول نيّام أفِسُس، الّتي لطالما استهوَت فلورو بلوم، هل تذكر؟ عندما رحلت لوكريثيا، أطفأتُ الضَّوءَ في الليدي بيرد وخرجتُ إلى الشارع؛ وفجأةً كانت قد مرّت ثلاثة أعوام، في ذلك الوقت بالذّات، في الدقائق الخمس الأخيرة. وأنا ذاهب إلى بيتي، كنتُ أسمع صوتها وهي تقول لي عدّة مرّات متتالية: «لقد مرّت ثلاثة أعوام». حتّى الآن أستطيع سماعها إذا أغمضتُ عينيّ.

قال إنّه لم يستيقظ فقط على الألم والوحدة، بل أكثر من هذا،

على مفاجأة عالَمٍ وزمانٍ افتقرا إلى الرنين، وكأنّه منذ ذلك الحين كانَ عليه أن يعيش دائمًا في بيتٍ منجَّد: منذ أن عرفَ لوكريثيا، كانتِ المدينةُ، والموسيقى، وذاكرتُه، وحياتُه قد تشابكت، قال لي، منذ أن عرفَ لوكريثيا بحسَب لعبة مراسَلة أو رموز منسجمة بلَباقة كآلاتِ فرقة جاز. لطالما قال له بيلي سوان إنّ ما يهمّ في الموسيقى ليس المهارة، بل الرّنين: في مساحة فارغة، في مكان يغصّ بالأصوات والدُّخان، في روح إنسان. ألَيس ذلك – رنين تامّ، غريزة الوقت والتكهُّن – ما يحدث لي عندما أسمع تلك المقطوعات الّتي عزفها بيلي سوان وبيرالبو معًا، «بورما» أو «ليشبونة»؟

فجأةً رانَ عليه الصّمتُ، شعرَ بالسّنين الأخيرة من حياته تتلاشى كأطلالٍ مهدَّمةٍ في قاع البحر. من الآنَ فصاعدًا لن يكونَ العالَمُ نظامًا من الرّموز يشير إلى لوكريثيا. كلُّ حركة ورغبة وكلّ مقطوعة عزفها كانت ستَخبو من تلقاءِ نفسها كالشّعلة الّتي تنطفئ من غير أن تترك رمادًا. خلال عدّة أيّام أو أسابيع خُيِّل لبيرالبو نفسِه أنّه مخوَّلٌ إعطاءَ اسم التخلّي أو السُّكون لتلك الصحراء الغارقة في الصّمت المطلَق. الكبرياءُ واعتيادُ الوحدة أسعفاه: لأنّ كلّ حركة يقوم بها ستحتَوي بلا شكّ على توسُّل، لم يكن ليبحث عن لوكريثيا، ولا سيُراسلُها، ولا سيشربُ في الحانات القريبة من منزلها. وبانتظام صارم كانَ يصلُ كلّ صباح إلى المدرسة ويؤوب عند الخامسة عصرًا في «الخلد» وهو يقرأ الصحيفة أو وهو يرنو بصمتٍ إلى المناظر الخارجيّة المسرعة للضاحية. لم يعد يستمع إلى الأسطوانات: كلّ

مقطوعة كانَ يسمعها، من الّتي كانَ يحبّها، والّتي كانَ يتْقن عزفها وعيناه مغمضتان، باتت شهادة على احتيال. عندما كان يُفرط في الشرب، يتخيّل رسائل طويلة جدًّا لم يتمكّن من أن يكتبها قطّ، ويبقى ناظرًا بعِنادٍ إلى الهاتف. تذكّرَ ليلة من بضعِ سنينَ مضت: كانَ قد تعرّف توًّا إلى لوكريثيا وكانَ يضمر بشكلٍ سطحيٍّ إمكانيّة معاشرتها، لكنّهما لم يكونا قد تحادثا سوى ثلاث مرّات أو أربع، في الليدي بيرد وعلى طاولة في القيينّا. تعجّبَ إذ سمعَ الجرس يرنّ في تلك السّاعة المتأخّرة. عندما فتح الباب، وجد لوكريثيا أمامه، غيرَ منتظَرةٍ نهائيًّا، معتذِرةً، وهي تقدّم له شيئًا، كتابًا أو أسطوانة كانت قد وعدَته بها كما قالت، ولم يكن بيرالبو يتذكّر.

مرغَمًا كان يرتعش كلّما رنّ الهاتف أو جرسُ البيت ليَلوم نفسَه بعدها لأنّه سمحَ لنَفسه بالضّعف المعنويّ والاعتقادِ أنّها كانت لوكريثيا. في إحدى الليالي ذهبنا أنا وفلورو بلوم لرؤيته. عندما استقبلَنا لاحظتُ في نظْرته ذهولَ مَن أمضى عدّة ساعاتٍ وحده. ونحن نتقدّم في الرّواق، رفع فلورو بلوم بوَقارٍ بين يديه قنّينة من الويسكي الإيرلنديّة مقلِّدًا في الوقت نفسه صوتَ جرس الكنيسة.

– هذا هو جسدي، قال، وهو يملأ الكؤوس.– هذا هو دمي. ويسكي شعير صِرْفٌ، يا بيرالبو، واصلة توًّا من إيرلندا القديمة.

أدارَ بيرالبو الموسيقى، قالَ إنّه كانَ مريضًا. ذهب إلى المطبخ، وعلى محيّاه سيماءُ ارتياحٍ، ليأتي بمكعّبات ثلج. كانَ يتحرّك من دون صوتٍ، غيرَ لبِقٍ في ضِيافتِه، مبتسمًا بشفتَيه فقط لنُكاتِ فلورو

الّذي كانَ قد استقرّ في كرسيّ هزّازٍ طالبًا بعض المقبّلات وورقًا للعِب البوكر.

كنّا نشكُّ في ذلك، بيرالبو، قال. ولأنّي اليوم قد أقفلتُ الليدي بيرد قرَّرنا المجيءَ لنُمارس معك بعض أعمال الرّأفة: إرواء الظّمآن، تعليم الجاهل، هداية الشريد، زيارة المريض، إسداء النَّصيحة إلى من يحتاجها... هل أنت بحاجة إلى نصيحة جيّدة يا بيرالبو؟

ليس لديّ ذكرى واضحة من تلك الليلة: كنتُ أشعر بالانزعاج، سكرتُ بسرعة، خسرتُ في لعبة البوكر، وحوالى منتصف الليل رنّ الهاتف في الغرفة العابقة بالدُّخان. نظر إليّ فلورو بلوم ورِبًا ووجهُه محتقِنٌ من الويسكي. عندما يشرب تبدو عيناه أصغر وأكثر ازرقاقًا. تأخّرَ بيرالبو قليلاً في الإجابة: تبادلْنا النظر لحظة نحن الثلاثة، وكأنّنا كنّا بانتظار الاتّصال.

– لنضرِبْ ثلاث خيَم – قال فلورو بينما كان بيرالبو يتّجه نحو الهاتف. بدا لي أنّه كان ًيرنّ منذ وقت طويل وباتَ على وشك التوقّف. – واحدة لإيليّا، وأُخرى لموسى...

– هذا أنا، قال بيرالبو، وهو ينظر إلينا بحذر موافقًا على شيءٍ لم يكن يريدنا أن نعرفه. نعم. حالًا. سأذهب في سيّارة أجرة. سأصلُ بعد رُبع ساعة.

– بلا جدوى – قال فلورو. كانَ بيرالبو قد أنهى المخابرة وهو يشعل سيجارة. – لا أستطيع أن أتذكّر لمن كانت الخيمة الثالثة...

– عليَّ الذَّهاب. – بحثَ بيرالبو عن النقود في جيبه، وأخذ

سجائره، لم يكن يبالي بوجودنا هناك. – أنتما ابقَيا إن شئتُما، الجعةُ في المطبخ. ربّما أعود متأخّرًا.

– عليل الحبّ... قال فلورو بلوم بطريقة تسمح بأن أسمعه أنا فقط. كان بيرالبو قد ارتدى سُتْرته وهو يسرّح شعرَه بسرعة أمام مرآة الرّواق. سمعناه يصْفق البابَ بقوّة، ثمّ سمعنا صوت المصعد. لم تكن قد مرّت دقيقة واحدة منذ أن رنّ الهاتف، كنّا قد أصبحنا وحدنا، أنا وفلورو بلوم، وفجأة وجدْنا نفسَنا دخيلَينِ على حياة شخص آخرَ ومنزلِه.

– إعطاءُ الحاجّ مأوًى. – بكآبة، ترك فلورو الزُّجاجة الفارغة تقْطر فوق كأسه. – انظرْ إليه؛ تتّصل به فيذهب كالكلب، يسرّح شعره قبل أن يخرج، ويترك أعزّ أصدقائه...

من النافذة رأيتُ بيرالبو يخرج ويمشي كالظلّ الهارب تحت الرّذاذ متّجهًا إلى حيث اصطفّت أضواءُ سيّاراتِ الأجرة الخضراء. «تعالَ، تعالَ بسرعة». توسّلَت إليه لوكريثيا بصوتٍ لم يكن يعرفه، لجلجَهُ البكاءُ أو الخوف، وكأنّه ضالٌّ في ظلمة قاتلة، في المدينة البعيدة المحاصَرة بالشّتاء، وراء إحدى النّوافذ والأنوار الأرِقَةِ الّتي تابعتُ النظر إليها من منزل بيرالبو فيما كانَ يتقدّم، وهو مجدَّدًا يقطن في نصْف ظلمة سيّارة أجرة، ربّما فاهمًا أنّ دافعًا أقوى من الحُبّ وبعيدًا جدًّا عن العاطفة – ولكنْ غير بعيد عن الرغبة والوحدة – ما زال يجمعه بلوكريثيا، على الرُّغم منهما، ضدّ إرادتِه وعقله، وضدّ أيّ نوع من الأمل.

عندما ترجَّل من سيّارة الأجرة رأى ضوءًا واحدًا في أعلى واجهة المبنى المعتمة. كانَ أحدُهم وراء النافذة، وابتعدَ عنها عندما بقيَ بيرالبو وحده تحت أضواءِ الشارع. ارتقى قافزًا على درجات السلّم اللامُتَناهي. كانَ يلهث ويَداه ترتجفان حين دقّ الباب. لم يفتح له أحد، تأخّر ليُلاحظ أنّ الباب كانَ مشقوقًا. دفعَه وهو ينادي «لوكريثيا» بصَوتٍ خافتٍ. في آخِر الرّواق كانَ ضوءٌ يبرق من خلال زجاج قاتم، فاحت رائحة دخان سجائر وعطرُ امرأة لم يكن عطرَ لوكريثيا. عندما فتح باب الغرفة المضاءة رنّ الهاتف كرصاصة تنطلق. كانَ على الأرض قرب الآلة الكاتبة، بين كتب مبعثرة وأوراق ملطّخة بآثار حذاء ضخم. تَتابعَ الرّنين بإصرارٍ قاسٍ فيما بيرالبو يتفحّص غرفةَ النوم الخالية، الّتي لا زالت دافئة وفيها سرير مبعثَر، والحمّامَ حيث رأى بُرنُسَ لوكريثيا الأزرق، والمطبخَ الكئيب المليءَ بالأكواب الوسخة. عاد إلى غرفة الطعام: للحظةٍ اعتقدَ أنّ الهاتف سيكفُّ عن الرّنين، ارتعشَ حين سمعَ رنّة جديدة أطول وأعنفَ حدّة. عندما انحنى ليرفع السمّاعة انتبهَ إلى أنّ إحدى الأوراق المتّسخة من الوَطءِ هي رسالةٌ كانَ قد كتبَها إلى لوكريثيا. سمعَ صوتها. خُيِّل إليه أنّها كانت تتكلّم وهي تغطّي السمّاعة بيَدها.

– لماذا تأخّرتَ هذا التأخّر؟

– أتيتُ بإسرع ما أمكنني. أين أنتِ؟

– هل رآكَ أحَدٌ تصعد؟

– بدا لي من الشارع وجودُ أحدٍ وراءَ النافذة.

– أواثقٌ ممّا تقول؟

– أعتقدُ ذلك. ثمّة أوراق وكتبٌ على الأرض.

– اخرج من هناك حالاً. ربّما يراقبونك.

– بربِّكِ! ماذا يحْدث يا لوكريثيا؟

– أنا في مكانٍ ما من المدينة القديمة. لوكَنْدة كوبانا، بجانب ساحة ترينيداد.

– سآتي فورًا.

– قم بجَولة. لا تقتربْ إذا لم يتأكّد لك أنّهم لا يتبعونك.

كان بيرالبو على وشكِ أن يسألها شيئًا عندما أقفلَت. ظلّ لحظة يسمع صفير الهاتف. نظر إلى الرسالة الموحلة: كان عليها تاريخ تشرين الأوّل قبل ثلاث سنين. بشعور طفيف بالوفاء تجاه نفسهِ حفظها من غير أن يقرأها وأطفأ النور. اقتربَ من النافذة؛ اعتقدَ أنّه رأى أحدًا يختبئ في ظِلّ باب المدخل، وأنّه رأى جذوة سيجارة. ضوءُ سيّارة طمْأنه: لم يكن هناك أحد عند باب المدخل. أغلق الباب بهدوءٍ وهبط السّلالم محاولًا ألّا يُسمع أصوات مداسِه. على سطح الدّرج الأخير، استوقفَه صوتُ محادثَة. سمع، هُنيهة، موسيقى كأنّ أحدًا فتحَ وأطبقَ بابًا، تلَتها ضحكة امراة. بلا حراك في العتمة، انتظرَ بيرالبو عودة الصّمت ليَستأنف النّزول. بارتياح حذرٍ توجَّه نحو شُعاعة النور الآتية من الشارع، شاحبة وباردة كضوءِ القمر. فجأةً توسَّطها ظِلٌّ. وللحظةٍ أذهل بيرالبو ضوءُ بابِ المدخل الوسِخِ:

رأى أمامه، قريبًا جدًّا إلى حدّ أنّه كانَ بإمكانه لمسُه، وجهَ رجلٍ قائمًا ومبتسمًا، رأى عينَين بقَريّتين ويدًا كبيرة تمتدّ إليه ببطءٍ غريب، وسمع كيف كانَ صوتٌ مِن بُعد يتلفّظ اسمَه «عزيزي بيهالبو»، وعندما دفعَ ذلك الجسدَ بعنفٍ فوجئَ وأخذ يعدو نحو الشارع، رأى كالبرق شَعرًا أشقر ويدًا تحمل مسدّسًا.

كانَ يشعرُ بألم في كتفِه: تذكَّر صوتَ جسد يقع وتجديفًا بذيئًا في الفرنسيّة. كانَ يركض باحثًا عن أزقّة المدينة القديمة؛ هواءُ البحرِ المالحُ والباردُ صفعَ وجهَه، ولاحظَ أنّه لم يكن يدري أين هو. كانَ يسمع صوتَ خُطاه على الرّصيفِ الرَّطب، يرجِّعها الصَّدى في الشّوارع الخالية، أو ربّما كانت خطوات الرّجل الّذي يلاحقه. بوضوح غير معتاد رأى في مخيِّلته وجهَ لوكريثيا. كانَ ينقصه الهواء وهو لا يزال يركض، عبْر ساحة مضاءة فيها قصرٌ وساعة، اشتمَّ رائحة أرضٍ رطبةٍ وخُنشارِ سفوح جبلِ أورغول، شعرَ بأنّه في منعةٍ من كلّ أذىً وإذا لم يتوقّف عن الركض فسيغيب عن الوعي، مرّ بالقرب من مدخل بيتٍ شعّ منه ضوءٌ أحمر، وامرأةٌ تدخّن ظلّت تنظر إليه. وكأنّه طالع من مياه بئرٍ، استندَ إلى جدار، وفمُه مفتوح وعيناه مغمضتان، مستشعرًا بظَهره برودة الحجر الأملس. فتحَ عينيه؛ كانَ المطر يُعميه وشعرُه مبلولًا. كانَ بالقرب من كنيسة سانتا ماريّا ديل مار. لم يرَ أحدًا في الشّوارع الّتي تؤدّي إليها. فوق رأسه، أعْلى من الأجراس والسّطوح، في الضّباب الأصفر والرماديّ الّذي كانَ ينهمر منه المطر بهدوءٍ، كانت النّوارسُ ترفرفُ، غير مرئيّة. في

عمق الشوارع المعتمة كانت مباني الجادّات الشامخة تتلألأ وكأنّها أُضيئت بمنارات الليل. ارتجفَ بيرالبو من التعب والبرد وخرجَ من الظُّلمة، محاذيًا الجدران ودِرف شبابيك الحانات المقفلة. من وقتٍ إلى آخرَ كانَ ينظرُ إلى الخلف: وكأنّه تلك الليلة كانَ وحده يمشي في مدينة مهجورة.

لوكَنْدَةُ كوبانا كانت قذرة تقريبًا بقدر ما يوحي به اسمها. كانت ممرّاتها تختنق بروائح الملاءاتِ المعروقة والجدران الرّطبة، وعفنِ الخزائن. خلْف طاولة الاستقبال كانَ أحدبُ يدوس على درّاجة ثابتة. جفّفَ عرقَ وجههِ بمنشفة وسخة وهو يتفحّص بيرالبو بارتيابٍ بطيء.

– الآنسة بانتظارك، قال له. الغرفة 21، في آخرِ الممشى. وضعَ نظّارة كبّرت عينيه وأشار إلى زاوية غامضة من العتمة. لاحظَ بيرالبو رجفة خفيفة في يدَيه المنتفختَين، الزّرقاوَين تقريبًا.

– اسمعْ... – ناداهُ الرّجل عندما كانَ قد دخل الممشى. – لا تعتقد أنّنا نسمح دائمًا بهذه القصص.

كانت تُسمع من خلف الأبواب الموصدة أصواتُ أجساد وشخيرُ السكارى. استَولى الوَهمُ مرّة أُخرى على بيرالبو، عندما قرعَ بابَ الغرفة 21 شكّ في أنّ لوكريثيا حقًّا ستفتح له. دقّ ثلاث مرّات بحذرٍ وكأنّه يطيع كلمةَ سرٍّ. في البداية لم يحدث شيءٌ: فكّر أنّه أيضًا الآنَ سيدفعُ الباب ولن يكون هناك أحدٌ خلفَه، أنّه ضلَّ، ولن يجد لوكريثيا أبدًا.

سمعَ صريرَ سريرٍ، وحفيفَ أقدام حافية على بلاطٍ غير مسْتَوٍ؛ قريبًا منه كانَ أحدهم يسعل ومفتاحٌ يدور في قُفل بابٍ. ومجدَّدًا فاحت روائح العرَقِ القديم والجدرانِ الرطبة ولم يستطع ربْط ذلك الشعور بفرحتِه الجامحة وهو ينظر بعد عدّة أيّام إلى عينَي لوكريثيا الدّاكنتَين. شَعرُها المرسَل، والسّروال القاتم والقميص الليلكي الّذي كانَ ضاغطًا جعلها تبدو أطولَ وأنحفَ. أغلقتِ الباب، استندَت إليه وعانقَت بيرالبو مطوّلاً من غير أن تفلت المسدّس من يدها. الخوف والبرد جعلاها ترتجف وكأنّ الرّغبةَ وحدها كانت تحرِّكها. عند رؤيته فقْرَ السرير الفاضحَ والمنضدةِ الّتي علاها مصباحٌ ذو عاكسٍ مطرَّزٍ، تذكّر بيرالبو، بسَورةٍ من الوعي والشفقة، الفنادقَ الفاخرةَ الّتي أحَبتها دائمًا. هذا كذبٌ، فكَّر، لسْنا هنا، لوكريثيا لا تعانقُني، لم تعُد.

– هل لحقوا بكَ؟ – حتّى وجهُها ما كانَ شبيهًا بوَجهها في الماضي: برّحَت به السنينُ أو الوحدة، ربّما لم يعد جميلاً، لكنْ مَن كانَ يهمّه ذلك؟ لم يكن يهمّ بيرالبو.

– خرجتُ راكضًا. لم يتمكّنوا من إدراكي.

– أعطني سيجارة. لم أدخّن منذ أن حبستُ نفسي هنا.

– أخبريني لماذا يبحث عنكِ توسين مورتون.

– هل رأيتَه؟

– أوقعتُه على الأرض بدفعة واحدة. لكن قبْل ذلك كنتُ قد شممتُ رائحةَ عطرِ سكرتيرتِه.

– پوازون. لا تتعطَّرُ بغيرِه. هو يشتريه لها.

كانت لوكريثيا قد تمدّدت على السرير، وهي لا تزال ترتجف، مبتلعةً بنَهم دخان السيجارة. على رِجلَيها الحافيتَين، لاحظَ بيرالبو بعاطفةٍ مستديمة علامات حمرًا أحْدثها الحذاء العالي الّذي لم تكن معتادةً أن تنتعِله. انحنى وقبّلَ وَجنتَيها بلطفٍ. كانت قد هربت، وعلى غِرارهِ كانت يداها مثلَّجتين، وشَعرُها مبتلاً.

تكلّمَت ببطءٍ وعيناها مغمضتان، زامّةً شفتيها أحيانًا كي لا يسمع بيرالبو صريفَ أسنانها الحادَّ عندما كانت قشَعريرةٌ كبيرةٌ تجعلها تصطكّ. عندها كانت تضغط بيَد بيرالبو على صدرِها، غارزة أظفارها الشاحبة في أصابعه، كأنّها تخشى أن يكون على وشك الرّحيل، وتخشى أن تغرق في الخوف إذا ما أفْلتتها. كانت عندما ترتجف تفقد مجرى كلماتها الممحوَّة بهَياج موازٍ جدًّا للحرارة. كانت تنتصب في السرير وتظلّ بلا حراك فيمًا هو يدُسُّ سيجارة في شفتَيها اللتَين لم تعودا زهريّتين كما كانتا في وقتٍ سابق، بل خشنتين مختصَرتين بخطّين من التعنُّت والوحدة، يتبدَّدان أحيانًا بشكلِ بسْمتها القديمة، تلك البسمةِ الّتي كانَ بيرالبو قد نسيَها تقريبًا، لأنّها كانت تبتسم له بتلك الطريقة وهي على وشكِ أن تقبّله، مُذ بضع سنين. اِعتقدَ أنّ تلك الابتسامة لم تكن موجَّهة إليه، وأنّها كانت كالحركات الطفوليّة الّتي نكرّرها في الأحلام.

ولأوّل مرّة تكلّمَت عن حياتها في برلين: عن البرد والضَّياع، عن الغرَف المستأجَرة الأكثر قذارةً من لوكندة كوبانا، عن مالكولم

الّذي لسببٍ لم تعرفه قطّ كانَ قدَ فقدَ حمايةَ رؤسائه القُدامى ووظيفتَه في مجلّة الفنّ المشبوهة الّتي لم يتوصّل أحدٌ إلى رؤيتها؛ قالت إنّها بعد عدّة أشهر وجدت فيها نفسَها مجبَرة على الاعتناء بأطفالٍ وتنظيفِ مَكاتبَ ومنازلَ لألمانٍ غامضين، عادَ مالكولم يومًا مع بعض المال، ببسمةٍ عريضة، ورائحةُ الكحول تفوح منه، معلِنًا لها أنّ فترة الضّيقِ هذه كانت ستزول قريبًا جدًّا: بعد أُسبوع أو أُسبوعين انتقلا إلى شقّة أُخرى؛ عندها ظهرَ توسين مورتون وسكرتيرتُه، دافني.

– أُقسِم لكَ أنّي لا أعرف من أين كنّا نعيش، قالت لوكريشيا، لكنّ هذا الأمر لم يكن يهمّني. على الأقلّ لم أعُد أرى الصّراصير تسرح قرب المجْلى عندما أُضيءُ النّور. بَدا الأمر وكأنّ مالكولم وتوسين متعارفان من زمنٍ، كانا يمزحان كثيرًا، يُفرطان في الضّحك، وينحبسان مع السكرتيرة ليتكلّموا عن الأعمال، كما كانوا يقولون، ويسافرون ليَعودوا بعد أُسبوع، عندها كانَ مالكولم يُريني كدسة من الدّولارات أو الفرَنكات السّويسريّة ويقول لي: «لقد وعدتُكِ لوكريشيا، وعدتُكِ بأنّ زوجَكِ سيقوم بعملٍ كبير...» فجأةً اختفى توسين مورتون ودافني. مالكولم أصبح عصبيًّا جدًّا، اضطُرِرنا أن نترك الشقّة وذهَبنا إلى شمال إيطاليا، إلى ميلانو لتغيير الجوّ، كما كان يقول هو...

– هل كانتِ الشُّرطة تبحث عنهم؟

– عُدنا إلى الغُرف المليئة بالصّراصير. كانَ مالكولم يمضي النهار مستلقيًا على السرير وهو يلعن توسين مورتون، مقْسمًا أنّه سيتذكّره

إذا تمكّن من إمساكه. في أحد الأيام تسلَّم رسالة بالبريد المحفوظ. وصلَ مع زجاجة شمبانيا وقال لي إنّنا سنعود إلى برلين. حصلَ هذا في تشرين الأوّل من العام الفائت. مجدَّدًا كان توسين مورتون أعزَّ أصدقائه، لم يعد يذكر حتّى كلَّ ما كان يريد أن يقوله له. عاودَ إخراج رُزَمِ المال من جَيب سرواله، لم تكن تروقُه الشّيكات والحسابات المصرفيّة، قبل أن يأوي إلى الفراش كانَ يعُدّ المال ويضعُه بعدئذٍ في دُرج منضدة السرير، واضعًا فوقه المسدّس...

توقّفَت لوكريثيا عن الكلام؛ خلال بضعِ ثَوانٍ، سمع بيرالبو صوتَ تنفُّسها المتقطّع فقط، ملاحِظًا ارتعاشَ صدرها تحت يدهِ الممدودة. عاضّةً شفتيَها، كانت لوكريثيا تحاول ضبْط قشعريرة شديدة كاختلاجات الحرارة. جالَت بنَظرها على منضدة السرير حيث كانَ المسدّس يبرق تحت نور المصباح الضئيل. نظرَت بعدها إلى بيرالبو وعلى وجهها تعبيرٌ عن البعد والعرفان بالجميل الّذي ينظر به مريضٌ إلى من يأتي لعيادته.

– كلّ يوم تقريبًا كانَ توسين ودافني يأتيان للأكل معنا، حاملَين نبيذًا غاليَ الثمن، كافيارًا، أعتقِده مزيّفًا، سلمونًا مدخَّنًا، وأشياءَ من هذا القَبيل. كانَ توسين يعقد منديل السُّفرة حول عنقه ويشرب نخْبَنا، يقول إنّنا نحن الأربعةَ عائلة واحدة... أيّام الآحاد، إذا كانَ الجوُّ جميلاً، كنّا نذهب إلى الجبل، كانَ يُسعد مالكولم وتوسين أن يستيقظا باكرًا لإعداد الطعام، كانا يحمّلان صندوق السيّارة بسِلالٍ ذات كشاكشَ وبصناديق القناني، لكنّهما كانا يثْملان حتّى قبل أن

يخرجا، على الأقلّ مالكولم، أعتقِد أنّ الآخَر لم يكن يثمل بتاتًا، ولو تكلّم وضحكَ كثيرًا، تبيَّن أنّهما كانا دائمًا يتظاهران بأنّنا مثل أولئك الأزواج المتَّفقين جدًّا، أمرٌ لم يكن يهمّ دافني إطلاقًا، كانت تبتسم، تتكلّم قليلاً معي، تراقبني دائمًا، لا تثق بي ولكنّها تسترُ ذلك، مع تلك الهيئة الّتي تُبديها وكأنّها تشاهد التّلفاز في سأم، إلى حدِّ أنّها كانت أحيانًا تتناول صنّارتَين وكبَّةَ صوفٍ ثمّ تبدأ بالحياكة... وهُما على حِدَةٍ، يشربان، ويقطّعان الحطب للنّار، ويتمازحان حتّى القهقهةِ، ويخبران نِكاتًا بذيئة بصَوت خافتٍ كي لا نسمعهما. في عيد الميلاد جاءا وأخبرا أنّهما استأجرا كوخًا حرجيًّا بجانب بُحيرة، وأنّنا سنذهب إلى هناك لتمضيَة ليلة رأس السنة، حفلة حميمة مع رهطٍ من الضّيوف، في النهاية أتى واحدٌ فقط يدْعونه البرتغاليّ، لكنّه بدا بلجيكيًّا أو ألمانيًّا، طويل القامة، مع وشومٍ على ذراعيه، يثمل من الجعة، وما إن يجرع علبةً حتّى يسحقها بين أصابعه ثمّ يرميها أينما كانَ. أذكرُ ذلك النهار، كانَ صباحَ الواحد والثلاثين وقد شربَ ما شربَ، فاقتربَ من دافني الّتي كانت تحوك، أعتقِد أنّه لمسها، عندئذٍ أمسكَت صنّارة وضغطَت بها عنقَه، فباتَ شاحبًا بلا حراك وغادرَ الغرفة ولم يعاودِ النظر إلى دافني ولا إليّ، فقط نظرَ إلينا في ما بعد، في الليل، عندما كانَ توسين يخنقه في الكنبة نفسها الّتي كانَ يتمدّد عليها ليشرب الجعَة، ما زلتُ أذكر عينيه اللتَين اتّسعتا كثيرًا، ووجْهَه الأزرق ويدَيه... قالَ لي مالكولم إنّهما كانا سيشاركان البرتغاليّ بأهمّ تجارة في حياتهما، كانا سيربحانِ

مالًا طائلًا يسمح لنا بعدها بالاعتكاف في الريڤييرا، شيئًا له علاقة بلَوحة. بقيَ الثلاثةُ الصباحَ كلَّه يتمشّون على ضفّة البحيرة برُغم سقوط الثلج كثيرًا، كنتُ أراهم يتوقّفون بين الفَينة والفينة، يحرّكون أياديهم وكأنّهم يتجادلون، بعدها توارَوا داخلَ إحدى الغُرف فيما دافني وأنا نهيّئُ الغداء، كانوا يصرخون، لكنّي لم أتمكّن من فهْم أيّ كلمة لأنّ دافني رفعت صوتَ الراديو. تأخّروا كثيرًا في الخروج، كانَ الطعام قد بردَ ولم ينبسوا ببِنتِ شفَة، كانَ الثلاثة جدّيّين، توسين كانَ ينظر بين الحين والحين إلى دافني، شزرًا، ويبتسم لها، وهو يرسم لها إشارات، كانَ ينظر إلى مالكولم من غير أن يقول شيئًا، والبرتغاليّ في هذا الوقت يأكل مُحْدثًا ضجّة كبيرة من غير أن يكلّم أحدًا، كانَ يلبس قميصًا داخليًّا على الرّغم من البرد، فبدا كأنّه كانَ رياضيًّا - أو ما شابهَ - قبل أن يتحوّل إلى كحوليّ، عندها رأيتُ تلك الرسوم الموشومة على ذراعيه فقلتُ ربّما كانَ جنديًّا في الهند الصينيّة أو في أفريقيا، لأنّ بشَرته كانت محروقة بحرارة الشمس. في الخارج كانَ الثلج يسقط بقوّة وحلّ المساء، سادَ سكوت غريب، سكوتُ ثلج، ولاحظتُ أنّ شيئًا كانَ سيحصل، وكانَ وجهي مشتعلاً، كنتُ قد أفرطتُ في شرب النبيذ، لِذا لبستُ السُّترة وخرجت، مشيتُ بعض الوقت في الحرج، نحو البحيرة، ولكنْ فجأةً توهّمتُ أنّي صرتُ بعيدة جدًّا وعلى وشكِ أن أضيع، كنتُ أغرق في الثلج من دون أن أتمكّن من التقدّم وأحسستُ بالجليد في قدميّ، كانَ الليل قد هبط، رجعتُ إلى الكوخ مهتديَة بنورِ النافذة، وعندما اقتربتُ رأيتُ ما

كانا يفعلانه بالبرتغاليّ، كانَ مواجِهًا لي، ينظر إليّ، من وراء الزجاج، لكنّ الصّمت جعلَ كلَّ شيءٍ يبدو بعيدًا جدًّا، أو يبدو كذبًا، كإحدى الألعاب الّتي كانَ يحبّها توسين، وكأنّهما يتظاهران بخنق أحد، لكنْ كانَ حقيقة، وجهُ البرتغاليّ كانَ أزرقَ وعيناهُ تنظران إليّ، كانَ توسين خلفَه، واقفًا، منحنيًا على كتفِه، وكأنّه يهمس بشيءٍ في أذنه، ومالكولم كانَ يَلوي له ذراعه على ظهرِه وباليدِ الأُخرى يرزُّ له المسدّس وسط صدره، غارزًا إيّاه في قميصه الأبيض، كانت العروق في عنق البرتغاليّ بارزة، وكانَ ملفوفًا بشيءٍ رفيع جدًّا يلمع، خيط من النَّيلون، تذكّرتُ أنّي رأيتُه أحيانًا في يد توسين الّذي كانَ يتلاعب به شابكًا إيّاه بين أصابعه، كما لو أنّه ينظّف أظفاره بذلك المِسواك الطويل الطويل... دافني كانت هناك أيضًا، لكنّها مديرةٌ ظهرَها، هادئة وكأنّها تحوك أو تشاهد التلفاز، والبرتغاليّ يضرب الأرض برجلَيه قليلاً، بل كانَ في حالة تشنُّج، أذكرُ أنّه كانَ يرتدي الدجِنْز وجزمة عسكرية، لكنّي لم أكن أسمَعُ وقْعها على الأرض الخشبيّة، والثلج كانَ يعمي عينيّ، عندها نظر إليّ توسين ومالكولم، لم أتحرّك، دافني أيضًا استدارت نحو النافذة، واستمرّت عَينا البرتغاليّ تحدّقان فيّ، لكنّه لم يعد يراني، كانت رجلاهُ ترتجفان قليلاً، بعدها كفّتا عن الحركة ونزع مالكولم المسدّس عن صدره، أمّا البرتغاليّ فلم ينفكّ ينظرُ إليّ...

لم تهرب: عندما خرج مالكولم ليُحضرها كانت ترتجف، بلا حراك، مخدَّرة من البرد. تذكّرَت ما حدث لاحقًا، وكأنّها رأته من

خلال زجاج مغشّى بالبخار. دفعها مالكولم برفقٍ إلى داخل الكوخ، نزع عنها سترتها المبتلّة، ثمّ ما لبثت أن جلست على الكنبة مع كأس براندي، ومالكولم يعاملها بذلك الاهتمام الخسيس لزَوج مذنِب.

عديمة الإحساس، أخذَت تفكّر في ما كانوا يفعلون: رجع توسين من المرآب منظِّفًا الثلج عن كتفيه وأتى بقماش كتّانٍ خشن وحبل، ركع أمام البرتغاليّ، يكلّمه وكأنّه يتوجَّه إلى مريض لم يصْحُ من المخدِّر بعد، مدّ رجلَيه فيما مالكولم يرفعه من كتفَيه ودافني تبسط القماش على الأرض قرب قدمَي لوكريثيا. كانَ الجثمانُ يزنُ كثيرًا، دوّت الأرضيّة الخشبيَّة عندما سقطَ عليها ويداه مجموعتان فوق بطنهِ، مليئتان بالعقَد، كبيرتان جدًّا، والوشومُ على ذراعيه، ووجهُه مُتّجه بطريقة غريبة وكأنّه مشدودٌ إلى كتفِه الأيسر، وعَيناه الآن مغمضتان إذ مرَّر توسين يدَه على أجفانه. كَمُمرِّضين خشنين وكفوئين كانوا يتحرّكون حول الميت، لفّوه بالكتّان، مالكولم رفع له رأسه كي يُحكِم الحبل حول عنقه وتركه يقع بخُشونة على الأرض، ربطوا قدميه، وخصْره، ربطوا بالحبل شيئًا لم يعُد جسدًا، بل رزمة، شكلاً مبهَمًا وثقيلاً جعلهم يلهثون ويلعنون حين رفعوه، إذ خرجوا وهُم يرتطمون بالأبواب وزوايا الأثاث، تتقدّمهم دافني الّتي انتعلَت جزمة الشتاء وارتدت مشمَّعًا زهريًّا، رافعةً بيدها اليُمنى مصباحَ فحم مضاء، لأنّه في الخارج، في طريقهم نحو البحيرة، كان الثلج المندوف يلمع كالفوسفور في ظلمة قبوٍ مقفَل. في تلك الظُّلمة رأتهم لوكريثيا من عتبة باب الكوخ يتلاشَونَ، شاعرةً بالضَّياع والضَّعف

وكأنّها فقدَت الكثير من دمها، كانت تسمع أصواتًا أوهنَها الثلج، تجديفَ توسين، إنكليزيةَ مالكولم الأنفيّة والمتقطّعة، وتقريبًا صوتَ أنفاسهم، ومِن ثَمّ ضرباتِ فأسٍ ما لأنّ سطْح البحيرة كان متجلّدًا، وأخيرًا سمعَت بقبقةً كأنّها لحجرٍ كبيرٍ يغطس في المياه، بعدها لا شيء، الصّمت، أصوات بدَّدها الهواء بين الأشجار.

في الصباح التالي عادوا إلى المدينة. كان الجليد قد أقفلَ سطح البحيرة المستوي والثابت من جديد. خلال عدّة أيّام كانت لوكريثيا كالمَيتة في حلم مخدِّرات. كانَ مالكولم يعتني بها، ويأتيها بهدايا، باقات زهور كَبيرة، يتكلّم معها بصوتٍ خفيض، من دون أن يسمّيَ أبدًا توسين مورتون ودافني اللذَين اختفيا مجدَّدًا. صرّحَ لها بأنّهما سينتقلان قريبًا إلى شقّة أكبر. ما إنِ استطاعت لوكريثيا الوقوف حتّى هربت، ولا تزال إلى الآنَ هاربة، بعد مرور سنةٍ تقريبًا، لم تكن قادرة على تصوُّر أنّ لهذا الهروب نهاية.

– وفي هذه الأثناء أنا كنتُ هنا، قال بيرالبو، غارقًا في إحساس بالذَّنب والتّفاهة.

هو يذهب كلَّ صباح إلى الصفّ، قابلاً بكلّ هدوءٍ التأخير، والشكّ في السقوط، منتظرًا كمُراهقٍ مستخَفٍّ به رسائل لم تكن تصلُ، بعيدًا عن لوكريثيا، غير وفيّ، بلا فائدة في انتظاره، وفي تقبُّلِه ألَمِه، وفي جهْله للحياة الحقيقية وللقساوة.

انحنى فوق لوكريثيا، وداعبَ وجنتَيها الحارّتَين الظّاهرتَين في شبْه العتمة كوجهِ امرأة غارقة، وعندما فعلَ ذلك لاحظَ على

أطراف أناملِه رطوبة الدموع، ثمّ عندما لمسَ ذقنها، ارتجافًا خفيفًا ما لبثَ أن هزّها كاملةً كمَوجةٍ ولَّدها حجرٌ أُلقيَ في المياه. من دون أن تفتح عينَيها، جذبَته لوكريثيا نحوها، معانِقة إيّاه، متشبّثةً بخصره وفخِذيهِ، غارزةً أظفارَها في رقبتهِ، ميّتة من الرُّعب والبرد، كما في تلك الليلة حين غشّى نفَسُها زجاجَ النافذة الّتي خلْفَها كانَ رجلٌ يُخنَق ببطءٍ. «لقد وعدْتَني بشيءٍ»، قالت، ووجهُها غارقٌ في صدرِ بيرالبو، منتصبةً على مَرفِقَيها لتشدَّ على بطنه تحت عظام وَرِكَيها الحادّة، وللوصول إلى فمه وكأنّها تخاف أن تخسره: «خذني إلى ليشبونة».

الفصل العاشر

كان يقود والخوف والسرعة يثيرانه: لم يكن الوضع الآن كما في مرّات سابقة: الاستسلام لسيّارة الأجرة، الجمود أمام البوربون، والشعور بالاستكانة عند السفر في قطار منطلق في الليل، حياة السنين المنصرمة الخامدة. كان هو مَن يتحكّم في إيقاع الوقت، كما عندما كان يعزف على البيانو والموسيقيّون الآخرون ومَن كان يسمعه مدفوعون إلى الأمام وإلى الفراغ بسبب شجاعة مخيّلته والانضباط والجنونيّة الّتي كانت تتحرّك بها يداه حين يضغط على المفاتيح، من غير أن يروّض الموسيقى ولا أن يسيطر على اندفاعها، مستسلمًا لها، كالفارس الّذي يجذب العِنان وفي الوقت نفسه يغرز كعبيه في ضلوع الحصان. كان يقود سيّارة فلورو بلوم بهدوء مَن أقام أخيرًا على حدود نفسه، في النقطة الأساسيّة من حياته، وليس أبدًا في سرابات الذاكرة أو الاستسلام، ملاحظًا الامتلاء في دفءِ استمراره جامدًا وهو يتقدّم بسرعة مئة كيلومتر في الساعة. كان شاكرًا كلّ لحظة تُبعدهما عن سان سيباستيان وكأنّ التباعد يسلخ عنهما الماضي، منقذًا إيّاهما من سحره المؤذي، فقط هو ولوكريثيا، فارَّين من مدينة ملعونة أصبحت الآن غير مرئيّة وراء الهضاب والضباب كي لا يتمكّن أيٌّ منهما من الوقوع في التجربة والنظر إليها مجدَّدًا. الإبرة المرتجفة للوحة القيادة لم تكن تقيس زخم السرعة بل جرأة بيرالبو نفسه، كانت المسّاحتان تكشطان بانتظامٍ مياه الشتاء

لتسمحا له برؤية الطريق نحو ليشبونة. كان كلّما يرفع عينيه نحو المرآة يرى وجه لوكريثيا أمامه؛ يستدير قليلاً ليرى جانبيّة وجهها عندما كانت تضع في فمه سيجارة مشتعلة، كان ينظر بطرف عينه إلى يديها وهي تستعمل الراديو أو ترفع صوت الموسيقى عندما تسمع إحدى المقطوعات الّتي كانت رائجة في زمن آخر، لأنّهما كانا قد وجدا في سيّارة فلورو أشرطة قديمة – ربّما هو الّذي تركها عمدًا هناك – مسجّلة في الليدي بيرد في أجمل الأوقات، عندما لم يكونا متعارفَين بعد، عندما عزف بيلي سوان وبيرالبو معًا واقتربت هي أخيرًا وأسرّت إليه بأنّها لم تسمع من قبل أحدًا يعزف مثله على البيانو. أُحبّ أن أتخيّل أنّهما سمعا أيضًا الشريط الّذي سجّلاه في الليلة الّتي عرّفني فيها مالكولم على لوكريثيا، وأنّه وسط ضجيج الكؤوس المتضاربة والأحاديث الّتي صدح عليها بوق بيلي سوان الحادّ، بقي أثر من صوتي.

سمعا الموسيقى وهما يغرّبان على الطريق البحريّة تاركَين دائمًا عن يمينهما الانحدارات والبحر، كانا يتعرّفان على الأناشيد السرّية الّتي وحّدتهما حتّى قبل أن يتعارفا، لأنّه لاحقًا، عندما كانا يسمعانها معًا، بدت لهما رمزًا لتماثُل حياتَيهما السابقتَين، وحسْن الحظّ الّذي هيّأ كلّ شيءٍ كي يلتقيا، حتّى ألحان إحدى أغاني الثلاثينيّات: Fly me to the moon، قالت له لوكريثيا عندما تركت السيّارةُ وراءهما الشوارعَ الأخيرة لسان سيباستيان، «طِرْ بي إلى القمر، إلى ليشبونة».

عند الغروب، حوالى السادسة بعد الظُّهر، توقَّفا في نُزُلٍ معزول قليلاً عن طريق بدت منه فقط النوافذ المضاءة وراء الشجر. سمع بيرالبو، وهو يقفل السيّارة، صخبَ الجزْر البطيء قريبًا جدًّا. مع حقيبة السفر على كتفها، ويداها في معطف طويل مربّع التقاطيع، كانت لوكريثيا تنتظره في البهو المضاء. ومجدَّدًا كان الإحساس اليوميّ بالوقت يتلاشى بالنسبة إلى بيرالبو: كان من الضروريّ العثور على طريقة أُخرى لقياسه عندما يكون معها. الليلة السابقة، لقاؤه إيّاي وفلورو بلوم، كلّ ما حدث قبل أن تتّصل به لوكريثيا، انتمى إلى الماضي البعيد. كان يقود منذ خمس ساعات أو ستٍّ عندما توقَّف في النُّزل: كان يتذكّرها بوهنِ دقائقَ قليلةٍ، ويبدو له مستبعَدًا أنّه كان ذلك الصباحَ في سان سيباستيان، وأنّ المدينة ما زالت قائمة، بعيدة جدًّا، في الظّلمة.

كنّا لا نزال موجودَين. أُحبّ التحقّق من ماضيَينا المتوازيَين: ربّما في الوقت نفسه الّذي طلب فيه بيرالبو غرفة، كنت أسأل فلورو بلوم عنه. وهو يزرّر سرباله، نظر إليّ بحزن وديع كامرئٍ لم يستطع تلافي الكارثة.

– في الثامنة صباحًا أتى إلى منزلي. مَن يفعل هذا؟... مع الانزعاج الّذي كنت أُحسّه من إفراطي في الشرب الليلةَ الفائتة. نهضت، كدت أقع، مشيت في الرُّواق لاعنًا باللغة اللاتينيّة، وجرس الباب لا يكفّ عن الرنين، كأحد تلك المنبّهات الوقحة. فتحتُ: بيرالبو، وعيناه المفتوحتان كمن لم ينم، ووجهه الّذي يبدو كوجه

تركيٌّ عندما لا يحلق. في البدءِ لم أفهم ما قاله لي. قلت له: «يا معلّم، هل سهرت وصلّيت طوال الليل ونحن نائمون؟» لكن لم يعرني أيّ انتباه، لم يكن لديه الوقت لتضييعه بالمزاح، جعلني أضع رأسي في الماء البارد ولم يدَعني أُعدُّ القهوة. كان يريدني أن أذهب إلى منزله. أعطاني ورقة: لائحة الأشياء الّتي كان يجب أن أُحضرها له. أوراقه، دفتر الشيكات، قمصان نظيفة، والله أعلم. آه: ورزمة رسائل كانت محفوظة على منضدة السرير، تخيَّل ممّن. حتّى إنّه تصرَّف بغموض، وكأنّ جسدي كان قادرًا على أن يتحمّل الألغازِ في تلك الساعة: «فلورو، لا تسألني شيئًا، لأنّني لا أستطيع أن أُجيبك». خرجتُ إلى الشارع، سمعته يناديني، اقترب منّي ركضًا: كان قد نسي أن يعطيني المفاتيح. عندما رجعتُ استقبلني وكأنّي بريد قيصر روسيا. كان قد شرب حوالى نصف ليتر من القهوة وبدا كأنّه قادر على تدخين سيجارتين في آنٍ واحد. بكلّ رصانة قال إنّ عليه أن يطلب منّي خدمة أخيرة. «لِمَ الأصدقاء؟ قلت له، لاستغلالهم وعدم البوح لهم بشيءٍ». كان يريد أن أُعيره سيّارتي. «إلى أين أنت ذاهب؟» مرّة أُخرى تصرَّف بغموض: «سأقول لك عندما أستطيع». أعطيته المفاتيح وقلت له: «اكتُب لي»، لكنّه لم يسمعني البتّة، كان قد رحل...

الغرفة الّتي أعطوهما إيّاها لم تكن قبالة البحر، كانت كبيرة وغير مضياف ولا ملائمة، ترفُها مشوَّه بسبب إيحاءٍ غير واضح بالزِّنى. وهُما يقتربان منها، شعر بيرالبو بأنّ سعادته الهشّة كانت

تفارقه وبأنّه يشعر بالخوف. ليتغلّب عليه فكّر: «إنّ ما يحصل لي هو ما رغبت فيه دومًا، أنا في نزلٍ مع لوكريثيا ولن تذهب بعد ساعة، عندما سأستيقظ في الصباح ستكون معي، نحن ذاهبان إلى ليشبونة». أقفل الباب بالمفتاح واستدار نحوها وقبّلها باحثًا عن خصرها الناحل تحت معطفها. كان النور ساطعًا، تركت لوكريثيا مصباح منضدة السرير فقط مضاءً. كانا يتصرّفان بنوع من المجاملة، ببرودة خفيفة، وكأنّهما يتجنّبان حقيقة أنهما لأوّل مرّة في ثلاث سنوات كانا سينامان معًا.

وجدا برّادًا مخفيًّا تحت مرآة الزينة الجافّة، مليئًا بالمشروبات. كمدعوَّين إلى حفلة لا يعرفان أحدًا فيها، جلسا على السرير متجاورَين، يدخّنان، واضعَين الكأسَين بين رُكبهما. كلّ حركة قاما بها كانت تنبئ بشيءٍ لم يكن قد تمكّن من الحصول بعد: استندت لوكريثيا إلى المخدّة، نظرت إلى كأسها، شعاع النور الذهبيّ في مكعَّبات الثلج، بعدها نظرت بصمتٍ إلى بيرالبو، وفي عينَيها اللتَين غشّاهما التعب والريبة تعرّف إلى حماسة الماضي، لا البراءة، لكنّه لم يكن يهمّه، كان يفضّلها هكذا، أكثر حكمة، متحرّرة من الخوف، ضعيفة، ساحرة كتمثال إلَهة. لا أحد كان يستطيع أن يجدهما؛ كانا ضائعَين خارج العالم، في نزلٍ، في منتصف الليل والعاصفة الّتي كانت تقرع زجاج النوافذ، الآن كان يحتفظ بالمسدّس وبإمكانه الدفاع عنها. بحذرٍ انحنى نحوها عندما رآها تنتصب، وكأنّ ضربة أفاقتها، وتنظر إلى النافذة. سمعا صوت محرّك سيّارة، وضجيج

دواليب على حصى الطريق.

لا يمكن أن يكونوا قد لحقوا بنا، قال بيرالبو. هذا ليس الطريق الأساسيّ.

لحقوا بي إلى سان سيباستيان. – اقتربت لوكريثيا من النافذة. كانت هناك سيّارة أُخرى تحت، أمام بهْو النُّزل، بين الأشجار.

– انتظريني هنا.

تحقَّق بيرالبو من أمان المسدّس وغادر الغرفة. لم يكن يخاف الخطر، ما كان يخشاه هو أن يجعل الخوفُ لوكريثيا غريبة من جديد.

في البهو كان مسافر يمازح موظّف الاستقبال، سكتا عندما أطلّ هو، كانا بلا شكٍّ يتكلّمان عن النساء. واضعًا المسدّس داخل واجهة السيّارة، قاد إلى مطعم قريب حيث لافتة من النيون أعلنت عن الوجبات السريعة والسندويشات. وهو عائد، بدت له أضواء إحدى محطّات الوقود باهرة، محمَّلة بالرمزية الخاصّة بتلك الصور الأولى لبلد مجهول يصل إليه المرءُ في الليل، محطّات معزولة، مدن معتمة دِرَفُ نوافذها مغلقة. أخفى السيّارة بين الأشجار، سامعًا حفيف الأوراق الرطبة تحت دواليبها. وهو يتمشّى باتّجاه النُّزل نظر إلى النوافذ المضاءة: خلف إحداها كانت لوكريثيا بانتظاره. من دون أن يشعر بأيّ ألم، تذكَّر بغير وضوحٍ كلّ ما تخلّى عنه: سان سيباستيان، حياته القديمة، المدرسة، الليديّ بيرد الّذي يكون الآن مضاءً.

عندما دخل بهْو النُزل قال موظّف الاستقبال شيئًا للمسافر بصوتٍ منخفض، وكلاهما نظر إليه. طلب مفتاحه. بدا له المسافر ثملاً بعض الشيء. الموظّف، رجل نحيل وشاحب اللون، ابتسم له ابتسامة عريضة وهو يعطيه المفتاح، وتمنّى له ليلة سعيدة. سمع ضحكة خافتة وهو يتوجّه نحو المصعد. كان قلقًا ولم يجرؤ على الاعتراف بذلك لنفسه، كان بحاجة إلى إحدى كؤوس البوربون الشهيرة الّتي كان فلورو بلوم يحفظها لأعزّ أصدقائه في خزانة حائط سرّيّة في الليدي بيرد. وهو يدسّ المفتاح في باب الغرفة فكّر: «في يوم من الأيّام سأعرف أنّ الرمز السرّي لحياتي يكمن في هذه الحركة».

- مؤونة تكفي حصارًا طويلاً، قال، عارضًا على لوكريثيا كيس السندويشات.

لم يكن قد نظر إليها بعد. كانت لابسة صُدْرتها وجالسة على السرير، تغطّيها مُلاءته حتّى خصرها. كانت تقرأ إحدى الرسائل الّتي كتبَتها إلى بيرالبو من برلين. غُلُفٌ فارغة وأوراق كتِب عليها باليد كانت مبعثرة بالقرب من ركبتَيها المثنيتّين، وعلى منضدة السرير. لمّت كلّ شيءٍ وقفزت بسرعة من السرير لتأتي بزجاجات الجعة وأكواب كرتونيّة، ملبَس خفيف وقاتم برّاقٌ كالحرير كان يحيط بعانتها، راسمًا خطًّا دقيقًا على وَرِكيها. كان شعرها يتهزهز على جانبَي وجهها، معطَّرًا أملس. فتحَت زجاجتَي جعة ففاضت الرغوة على يديها. وجدت صينيّة، وضعت عليها الكؤوس والسندويشات، لم

تكن منتبهة إلى رغبة بيرالبو وعدم حراكه. شربت جرعة من الجعة وابتسمت له وشفتاها رطبتان، مبعدة شعرها عن وجهها.

– ما أغرب قراءة تلك الرسائل القديمة!

– لماذا أردتِ أن آتي بها؟

– لأعرف كيف كنتُ آنذاك.

– لكنّكِ أخفيت عنّي الحقيقة فيها.

– تلك كانت الحقيقة الوحيدة: ما كنت أخبرك إيّاه. حياتي الحقيقيّة هي الّتي كانت كذبة. كنت أُنقذ نفسي حين أكتب إليك.

– أنا هو مَن كنتِ تنقذينه. كنت أعيش لانتظار رسائلك فقط. توقّفتُ عن الوجود حين لم أعد أتسلّمها.

– انظر إلى الحياة الّتي عشناها. – لفَّت لوكريثيا ذراعيها حول صدرها، وكأنّها شعرت بالبرد أو كأنّها تعانق نفسها. – نكتب الرسائل أو ننتظرها، نعيش من الكلمات، كلّ هذا الوقت، بكلّ هذا البعد.

– كنتِ دائمًا بجانبي، ولو لم أكن أراكِ. كنت أمشي في الشوارع وأخبرك كلّ ما أراه، كنت أتأثّر عند سماع أغنية عبر الراديو وكنت أفكّر: «من المؤكّد أنّها تعجب لوكريثيا لو سمعتها». لكنّي لا أريد أن أتذكّر أيّ شيءٍ. الآن نحن هنا. في تلك الليلة، في الليدي بيرد، كنتِ على حقّ: إنّ التذكار كذبة. لسنا نعيد ما حدث منذ ثلاثة أعوام.

– أشعر بالخوف. – أخذت لوكريثيا سيجارة وانتظرت أن

يشعلها لها. – ربّما فات الأوان.

– لقد تخطّينا كلّ شيءٍ. لا، لن نفترق الآن.

– من يعرف إذا كان واحدنا قد أضاع الآخر؟

كان يعرف حركة ملتقى الشفتَين تلك، ذلك التعبير – عن الشفقة الهادئة والتخلّي – الّذي صفّاه الوقت في نظرة لوكريثيا. لكنّه فهم أنّ هذا التعبير لم يعد، كما في السّنين الغابرة، دليل يأس عابر، بل أصبح عادة متأصّلة في روحها.

لا إراديًّا، كانا يتمّمان مراحل احتفال تذكاري: تلك الليلة أيضًا، كما في الليلة الأولى، الّتي كانت لا تمّحي من وعي بيرالبو أكثر من أفعاله الحاضرة، أطفأت لوكريثيا النور قبل أن تنزلق بين الشّراشف. عندها، وكما في الماضي، أنهى في الظلمة سيجارته وكأسه، تمدَّد إلى جانبها، خالعًا ثيابه متلمّسًا، مستعجلاً وأرعن، برغبة غير مجدية في الاحتشام امتدّت في مداعباته الأولى. ما لم يستطع قطُّ تذكُّره كان طعم فمها، برْق فخذَي لوكريثيا الطويلتَين النّاعمتَين، أحسّ بأنّ الإغماء من السعادة والرغبة يستولي عليه عند تشابُك الأفخاذ.

لكنّه قال لي إنّ جانبًا من وعيه بقي بعيدًا عن الحرارة، غير متأثّر بالقبلات، واعيًا جرّاء عدم الثقة والوحدة، وكأنّه، دون حراك في ظلام الغرفة، تاركًا جمرة سيجارته الأرِقة، كان بإمكانه أن يرى نفسه معانقًا لوكريثيا وأن يهمس في أذنَيها أنّ ما يحصل لم يكن حقيقة، وأنّه لم يكن يستردّ هبة الملاءة الّتي فقدها وقتًا طويلاً، إنّما كان يريد أن ينسج وعيناه مغمضتان، وجسده اللاصق بلا تبصُّر بفخذي

لوكريثيا البارِدَين، طَيفَ ليلة لا تعاد، متخيَّلة، منسيّة.

كان يلاحظ غيظ قبلاتهما المتبادل، وحْدة رغبته، عزاءَ وجوده في الظلمة الّتي فيها استقصى قرب الجسد الآخر العدائيّ قليلاً وهو لا يريد تقبُّل ما أحسّت به يداه، الهدوء العنيد، ذلك الاحتراس القابل للانكماش الّذي به تنفذ النار. كان لا يزال يسمع ذلك الصوت في الأُذن يحذِّره، عاد يرى نفسه واقفًا في زاوية الغرفة، جاسوسًا غير مبال، يُمعن النظر، وهو يدخّن، في ضجّة الأجساد غير المفيدة، هياج الظلَّين اللذَين يتنفّسان وكأنّهما ينبشان الأرض.

بعدها، أضاء النور وفتّش عن سجائر. من غير أن ترفع رأسها عن المخدّة، طلبت إليه لوكريثيا أن يطفئ النور. قبل أن يفعل ذلك نظر بيرالبو إلى بريق عينيها بين شعرها المبعثر. بالخفّة الّتي كانت تمشي بها حافية اتّجهَت إلى الحمّام. سمع بيرالبو كالشتيمة صوت الحنفيّة والماء يدور في البلّوعة. عندما خرجت، تركته مضاءً، ذلك النور الخافت كنور ثلاّجة. رآها تأتي عارية، منحنية قليلاً، وتدلف مرتعشة إلى السرير، وتعانقه ووجهها لا يزال مبلولاً وذقنها ترتجف. لكنّ إشارات الحنان تلك لم تعد تشجّع بيرالبو؛ الأكيد أنّها كانت أُخرى، منذ أن عادت، ربّما منذ وقت أبعد، عندما لم تكن قد رحلت بعد. لم يكن البعد كذبة، بل الجرأة على الظنّ أنّه بالإمكان التغلّب عليه، والتظاهر بالمحادثة وإشعال السجائر وكأنّهما لا يعرفان أنّ كلّ كلمة باتت بلا فائدة.

لم يتذكّر بيرالبو بعدها إذا استطاع أن ينام. كان يعرف أنّه ظلّ

يعانقها خلال بضع ساعات في شبه العتمة المضاءة بضوءِ الحمّام المنحرف وأنّ رغبته لم تفتر في أيّ لحظة. في بعض الأحيان كانت لوكريثيا تداعبه وهي نائمة، وتبتسم وهي تقول أشياء لم يستطع فهمها. انتابها كابوس: استيقظت مرتجفة فكان عليه أن يمسك يدَيها اللّتَين كانتا تبحثان عن وجهه لتغرزا فيه أظفارها. أضاءت لوكريثيا الغرفة وكأنّها تريد أن تيقن أنّها استيقظت. التدفئة المفرطة زادت من حدّة الأرق. عاد بيرالبو يتفتّت من وطأة الأحلام العكرة: كان لا يزال يرى الغرفة، والنافذة، والأثاث، حتّى الثياب على الأرض، لكنّه كان في سان سيباستيان، أو لم تكن لوكريثيا بجانبه، أو كانت امرأة أُخرى مَن كان يعانقها بعناد.

علم أنّه كان قد نام عندما أجفله إدراكه أنّ أحدًا ما كان يتحرّك في الغرفة: امرأة، مديرة ظهرها، مرتدية ثوب منزل أحمرَ غريبًا، كانت لوكريثيا. فضّل أن تظنّ أنّه ما يزال نائمًا. رآها تفتح بحرص الثلاّجة وتملأ كأسًا، أغمض عينيه حين انحنت فوق منضدة السرير لتلتقط سيجارة. نار القدّاحة أضاء وجهها. جلست أمام النافذة وكأنّها تستعدّ لانتظار بزوغ الفجر، وضعت الكأس على الأرض وأحنت رأسها، بدت وكأنّها أرادت أن تميّز شيئًا ما من وراء الزجاج.

– لا تعرف التظاهر، قالت له عندما اقترب منها. لاحظتُ أنّك لم تكن نائمًا.

– أنتِ أيضًا لا تعرفين.

– هل كنتَ فضّلت ذلك؟

– انتبهتُ فورًا. عندما لمستكِ أوّل مرّة. لكنّني لم أكن أريد أن أكون واثقًا.

– بدا لي وكأنّنا لسنا وحدنا. عندما أطفأت النور امتلأ كلّ شيءٍ بوجوهٍ، وجوهِ الناس الّذين ناموا هنا في ليالٍ سابقة، وجهكَ، ليس الحاليّ بل وجهك منذ ثلاث سنين، وجه مالكولم، عندما كان يتمدّد فوقي وأنا لا أرفض.

– هذا يعني أنّ مالكولم ما زال يراقبنا.

– شعرتُ وكأنّه قريب جدًّا منّا. في الغرفة المجاورة، يسمعنا. حلمت به.

– أردتِ خدش وجهي.

– كان خلاصي في أن أتعرّف عليك. لم أعد أحلم بتلك الأشياء.

– لكنّك استيقظت مجدَّدًا.

– أنت لا تعلم أنّي تقريبًا لا أنام. في جنيف، عندما كنت أتمكّن من الحصول على القليل من المال، كنت أشتري ڤاليوم وسجائر، وآكل بما يتبقّى لي.

– لم تقولي لي إنّكِ عشت في جنيف.

– ثلاثة أشهر، عندما تركت برلين. كنت أموت من الجوع. لكن هناك لا يجوع أحد حتّى الكلاب. ألّا تملك مالًا في جنيف أسوأ من أن تكون كلبًا أو صرصورًا. رأيت المئات منها، في كلّ مكان، حتّى على مناضد الأسرّة في فنادق السود. كنت أكتب لك

وأمزّق الرسائل. كنت أنظر إلى نفسي في المرآة وأتساءل ماذا كنت لتفكّر لو كان بإمكانك رؤيتي. أنت لا تعرف الوجه الّذي تراه في المرآة حين عليك أن تذهب إلى الفراش من غير أن تأكل. كنت أخشى أن أموت في إحدى تلك الغرف أو في قارعة الطريق وأن أُدفن من غير أن يُعرف مَن أنا.

– تعرّفتِ هناك على رجل الصورة؟

– لا أعرف عمّن تتكلّم.

– بل تعرفين. من كان يعانقك في الغابة.

– حتّى الآن لم أسامحكَ لتفتيشك حقيبتي.

– أعلم ذلك، هذا ما كان يفعله مالكولم. من هو؟

– أنتَ غيور؟

– أجل. هل كنت تضاجعينه؟

– كان تاجر استنساخ. وفّر لي عملاً. كنت على وشك الإغماء على عتبة بابه.

– كنت تضاجعينه.

– لكن هذا لا يهمّ.

– أنا يهمّني. معه لم تكوني ترَين وجوهًا في الظلام؟

– لا تفهمُ شيئًا. كنت وحيدة. كنت أهرب. كانوا يبحثون عنّي كي يقتلوني. كان طيّبًا، الطيبةَ الّتي نفتقرها أنا وأنت. كان لطيفًا وكريمًا ولم يسألني شيئًا بتاتًا، ولا حتّى عندما رأى صورتكَ في محفظتي، قصاصة الصحيفة تلك الّتي أرسلتها لي. لم يسألني شيئًا

أيضًا عندما طلبت إليه أن يدفع أُجرة المستشفى. تظاهرَ باعتقاده أنّه كان السبب.

انتظرَت لوكريثيا بصمت السؤال الّذي لم يطرحه بيرالبو. كان فمها جافًّا وفي رئتيها وجع، لكنّها استمرّت تدخّن بعناد بعيدٍ جدًّا عن اللذّة. كان النهار قد بدأ يطلع وراء الأشجار في سماء صافية ورماديّة استمرّ الليل فيها كفِلَذ أُرجوانيّة ممزَّقة. لم يسمعا البحر منذ ساعات. سريعًا جدًّا كان ضوءُ الصباح الأوّل سيجعل الضباب يرتفع بين الأشجار. تابعت لوكريثيا الكلام، واقفة أمام النافذة، من دون النظر إلى بيرالبو. ربّما لا ليعرف أو يشارك، بل كي ينال حصّته من العقاب، المقدار اللازم من السخط والعار.

– ... تلك الليلة، في الكوخ. لم أخبركَ كلّ شيءٍ. أعطوني منوِّمًا وكونياكًا. كنت على وشك أن أسقط عندما أخذني مالكولم إلى السرير. كنت أنظر إليه وأرى على كتفيه رأس البرتغاليّ مع عينيه المفتوحتين ولسانه المزرقّ المتدلّي من فمه. نزع ثيابي كمن ينزع ثياب طفل نائم، بعدها دخل توسين ودافني مبتسمَين، كما تعلم، كأولئك الأهل الّذين يدخلون على صغارهم ليتمنَّوا لهم ليلة سعيدة. أو ربّما حدث ذلك من قبل. كان توسين يتكلّم دائمًا وهو قريب جدًّا، كنت أشمّ رائحة لهاثه. قال لي: «إذا لم تسكت الصغيرة العاقلة بابا توسين سيقطع لسانها». قال ذلك بالإسبانيّة، فبدا لي ذلك غريبًا جدًّا، إذ منذ أشهر كنت أتكلّم، وحتّى أحلم، بالألمانيّة أو الإنكليزية. حتّى أنتَ كنت تتكلم معي الألمانيّة حين أحلم بك. بعدها خرجا. بقيت

وحدي مع مالكولم، كنت أراه يتحرّك في الغرفة، لكنّي كنت نائمة، خلع ثيابه وانتبهت إلى ما كان يريد أن يفعل، لكنّي لم أكن قادرة على تجنُّبه، كما عندما يلاحقونك في المنام ولا تستطيع الركض. كان ثقيلاً جدًّا وكان يتحرّك فوقي، وهو يتأوّه وعيناه مغمضتان، كان يعضّ فمي ورقبتي ويتابع حركته وأنا فقط أتمنّى أن ينتهي كلّ شيء بسرعة كي أتمكّن من النوم، مالكولم كان يتأوّه وكأنّه يموت، فاتحًا فمه، لوَّث وجهي بلعابه. بعدها، لم يعد يتحرّك، لكنّه كان ثقيلاً كالميْت، عندها فهمت ما كان يعنيه ذلك: كان يزن كالبرتغاليّ عندما حملاه من رأسه ورجليه وأفلتاه على ذلك الغطاء المشمَّع. في وقت لاحق، في جنيف، بدأت أفقد الوعي وأتقيّأ عندما أستيقظ، ولكن ليس من الجوع، وتذكّرت مالكولم وتلك الليلة، ولعابه، والطريقة الّتي كان يتأوّه بها قرب فمي.

كان الضوء قد طلع. لبس بيرالبو ثيابه وقال إنّه ذاهب ليأتي بفنجانَي قهوة. عندما عاد كانت لوكريثيا لا تزال تنظر من النافذة، لكنّ الضوءَ الآن كان يرهق تقاطيعها ويجعل بشرتها أكثر بهتًا بالنسبة إلى الحرير الأحمر الّذي لفّت نفسها به، ثوب واسع جدًّا، مشدود عند خصرها، ذو هيئة صينيّة أو قروسطيّة. ظنّ بتأنيب وحقد أنّه ربّما كان قد أهداها إيّاه رجل الصورة. عندما جلست لوكريثيا على السرير لتشرب القهوة، ظهرت ركبتاها وفخذاها من تحت القماش الأحمر. لم يشتهها قطّ كما الآن. علم أنّ عليه الرحيل وحيدًا، وأنّ عليه أن يقول لها ذلك قبل أن تطلبه هي.

– سأصطحبك إلى ليشبونة، قال. لن أطرح أسئلة. أنا مغرم بك.

– ستعود إلى سان سيباستيان، وتعيد السيّارة إلى فلورو بلوم. قل له إنّي لا أنساه.

– لا يهمّني أحد أكثر منكِ. لن أطلب إليك شيئًا ولا حتّى أن تكوني عشيقتي.

– اذهب لملاقاة بيلي سوان، اركب طائرة غدًا. ستصبح أحسن عازف بيانو أسود في العالم.

– هذا لن يكون ذا أهمّية ما لم تكوني معي. سأفعل ما تشائين. سأجعلك مغرمة بي ثانيةً.

– ما زلتَ لا تفهم أنّي أتخلّى عن كلّ شيءٍ كي يحصل ذلك. لكنّ الشيءَ الوحيد الّذي أتمنّاه حقًّا هو أن أموت. دائمًا، الآن، في هذا المكان.

أبدًا، ولا حتّى عندما تعارفا، لم يشهد بيرالبو الحنين الّذي شاهده في عينيها تلك اللحظة: فكّر بألم، وفخر ويأس، أنّه لن يعاود رؤيته في عين أحد. عندما ابتعدت لوكريثيا، قبّلته فاتحة شفتيها بعض الشيءِ. تركت ثوبها الحريريّ الأحمر ينزلق على الأرض ودخلت الحمّام عارية.

اقترب بيرالبو من الباب المغلق. سمع صوت الماء ويده على المقبض بلا حراك. ثمّ ارتدى سترته، وأخذ المفاتيح والمسدّس، بعد لحظة من التردّد زالت لدى تصوُّره بسمة توسين مورتون. ضخّمت

المحفظة جيبه بشكل غير مألوف: تذكَّر أنّه كان قد سحب كلّ ماله من المصرف قبل أن يغادر سان سيباستيان. وضع جانبًا بعض الأوراق النقديّة وترك ما تبقّى على منضدة السرير بين صفحات كتاب. عاد إلى الغرفة بعد أن كان قد فتح الباب بصمت؛ كان قد نسي أن يأخذ رسائل لوكريثيا. لمعت شمس أفقيّة وصفراء في نوافذ البهو. اشتمّ رائحة الأرض الرطبة والخُنشار وهو يتّجه نحو السيّارة. فقط حين أدارها وحين قبِل أنّه راحل بلا عودة، فهِم كلمات لوكريثيا الأخيرة الّتي تلفّظتها بهدوءٍ: هو أيضًا الآن يتمنّى الموت بتلك الطريقة المشبوبة، الانتقاميّة والباردة الّتي نتمنّى بها فقط ما هو لنا، ما نعرف أنّنا نستحقّه دائمًا.

الفصل الحادي عشر

عند منتصف الليل تمامًا كانت الأضواء وضجيج المحادثات تلْطُف في الميتروبوليتانو ويحيط بالمكان الّذي سيعزف فيه الموسيقيون شعاع أحمر وأزرق. بهدوءٍ ناتج من الخبرة الطويلة والفاعليّة، وكرجال العصابات وهُم على وشك تنفيذ جريمة في ساعة متّفَق عليها، كان أعضاء جياكومو دولفين تريّو، الساندون مرافقهم إلى زاوية البار الّذي كنّا نقترب منه أنا والنادلة الشقراء فقط، يستنفدون كؤوسهم وسجائرهم ويتبادلون إشارات التواطؤ. كان عازف الكونترباص يتحرّك بوَقارِ فتاة سوداء. وهو يتسم ببطءٍ وبلامبالاة، كان يستوي على مقعد البار ويُريح كتفه اليسرى على الكونترباص، متفحّصًا المشاهدين وكأنّه لا يعرف فضيلة أُخرى سوى التعجرف. كان بوبي، عازف الدرامْز، يجلس أمام طبوله بمهارة مصارعٍ مرَوبص ورصانتهِ، لامسًا الطبول دائريًّا بفَراشيه، من دون أن يقرعها، وكأنّه يتظاهر بالعزف. لم يكن يشرب الكحول قطّ؛ كان في متناوَل يدهِ دومًا كوب من عصير البرتقال. «بوبي متزمّت» قال لي بيرالبو، «يتعاطى الهيروين فقط». أمّا بيرالبو فكان آخِر من يترك البار وكأس الويسكي. بشَعره القَطّ، ونظّارته القاتمة، وكتفَيه الهابطتين ويدَيه المتحرّكتين على جانبَيه كيدَي رجُل مسلّح بمسدّس، كان يتوجّه نحو البيانو من دون أن ينظر إلى أحد وبحركة خشنة كان يحتاز صفوف الملامس مادًّا أنامله في الوقت نفسه

الّذي يجلس فيه أمام البيانو. كان يحلّ الصَّمت: كنت أسمعه يفرقع أصابعه بإيقاع ويخبط الأرض برِجله ومن دون إنذار يبدأ فتُسمَع الموسيقى، وكأنّها كانت في الواقع تعزَف من فترة طويلة وحينها فقط سُمح لنا بسماعها، من غير تقسيم، من غير تفخيم، من غير بداية ولا نهاية كما يُسمَع فجأة المطر عندما نخرج إلى الشارع أو نفتح النافذة ذات ليلة شاتية.

أشَدُّ ما كا يسحرني نظراتُهم الجامدة وسرعة أيديهم، وكلّ قطعة من أجسادهم كان يتجلّى فيها الإيقاع: الرؤوس، الأكتاف، الكعوب، كان كلّ شيءٍ فيهم الثلاثة يتحرّك بغريزة التزامُن الّتي تتحرّك بها خياشيم الأسماك وزعانفها وهي تنبض في فسحة الحوَيض المقفلة. بدَوا كأنّهم لا يعزفون، بل كأنّ الموسيقى كانت تتملّكهم وتخترقهم، وكأنّهم كانوا يبعثونها في الجوّ إلى مسامعنا وقلوبنا باحتقار هادئٍ، وعِلمٍ لم يكونوا يملكونه هم أنفسهم، بل كان يخفق بشكل دائم وموضوعي في الموسيقى كالحياة في النبض، كالخوف والرغبة في الظلام. على البيانو، قرب كأس الويسكي، كان بيرالبو يضع ورقة عاديّة دوّن عليها في اللحظة الأخيرة عناوين المقطوعات الّتي سيعزفونها. مع الوقت تعلّمتُ أن أتعرّف عليها، أن أنتظر الحماسة الهادئة الّتي بها تُفكَّك أنغامها للعودة بعدها إليها عودة النهر إلى مجراه بعد فيَضان، وكلّما استمعتُ إليها توصّلت إلى أن أعرف في كلّ منها تفسيرًا لحياتي وحتّى لذاكرتي، لِما تمنّيت من غير جدوى منذ أن وُلدت، ولكلّ الأشياء الّتي لن أحصل عليها والّتي

كنت أتعرّف عليها في الموسيقى تمامًا كملامح وجهي في المرآة.

عندما كانوا يشرعون في العزف كانوا يشيّدون عمارات متألّقة وشبْه شفّافة تتهاوى بعدها مهدمة كغبار الزجاج، أو يقيمون فتراتٍ طويلة من السكون تجاوِزُ السكوتَ التامّ، ويهتاجون سهوًا لدرجة خدْش السمع وإدخاله في متاهة مدروسة من القسوة والنشاز. متبسّمين، وعيونهم نصف مفتوحة كأنّهم يتظاهرون بالبراءة، كانوا يرجعون من بعدها إلى هدوء الكلمات المهموسة. كانت هناك دائمًا لحظة من الذهول والصمت قبل أن يبدأ التصفيق.

ناظرًا إلى بيرالبو، البعيد الغَور والوحيد، الساحر، السعيد خلف نظّارته القاتمة، مراقِبًا من بار الميتروبوليتانو لباقة حركاته الثابتة الّتي لا وطن لها، كنت أسأل نفسي إن كانت تلك المقطوعات ستظلّ تُلْمِح إلى لوكريثيا: «بورما»، Alabama song، Fly me to the moon، Just one of those things، «ليشبونة». كنتُ أعتقد أنّه يكفي أن أردّد عناوينها كي أفهم كلّ شيء. لذا تأخّرت كثيرًا في تفسير ما قاله لي ذات ليلة: إنّ السيرة الذاتيّة هي الفساد الأقذر الّذي يمكن أن يرتكبه الموسيقيّ وهو يعزف. بحيث إنّه كان عليّ أن أتذكّر أنّه لم يعد يسمّى سانتياغو بيرالبو، بل جياكومو دولفين، لأنّه كان قد حذّرني بأن أناديه هكذا أمام الآخرين. لا، لم يكن ذلك مجرّد حيلة فارغة لتحاشي أيِّ تقصّيات تقوم بها الشرطة: منذ أكثر من عام كان هذا اسمَه الحقيقيّ الوحيد، دليلاً على أنّه كان قد تحرّر بانضباط شجاع من سِحر الماضي المؤذي.

بين سان سيباستيان ومدريد كانت سيرة حياته فسحة بيضاء معترضة باسْم مدينة واحدة، ليشبونة، بتواريخ تسجيل بعض الأسطوانات وأمكِنتها. من غير أن يودّعني أو يودّع فلورو بلوم – لم يقل لي إنّه ذاهب الليلة الأخيرة الّتي شربنا فيها معًا في الليدي بيرد – كان قد اختفى من سان سيباستيان بعزم وحذَرِ من يرحل إلى الأبد. لمدّة عام تقريبًا عاش في كوبنهاغن، وسجّل أسطوانته الأولى مع بيلي سوانٍ هناك: لم تكن فيه «بورما» ولا «ليشبونة». بعد أن سافر بشكلٍ متقطّع في ألمانيا والسويد، عزف رباعيُّ بيلي سوان، وفيه من لم يكن يدعى بعد جياكومو دولفين، في عدّة أمكنة من نيويورك منتصَف 1984. من خلال الإعلانات في مجلّة وجدْتها بين أوراق بيرالبو عرفْت أنّه في صيف ذلك العام، ثُلاثيّ جياكومو دولفين – لكن هذا الاسم لم يكن قد ورد بعد على جواز سفره – قد عزف بانتظام في عدّة أندية في كيبيك (عندما قرأت ذلك تذكّرت فلورو بلوم والسناجب الّتي كانت تأتي لتأكل من يده وانتابني شعور مستديم بعِرفان الجميل والمنفى). في أيلول 1984 لم يشارك بيلي سوان في أحد المهرجانات في إيطاليا لأنّه كان قد دخل مستشفى فرنسيًّا. بعد شهرين، مجلّة أُخرى نفت أنّه تُوفِّي، مورِدة دليلها على ذلك مشاركتَه الفوريّة في حفلة موسيقيّة منظّمة في ليشبونة. لم يكن منتظَرًا أن يعزف معه سانتياغو بيرالبو. ولم يفعل: عازف البيانو الّذي عزف مع بيلي سوان ليلة 12 كانون الأوّل في مسرحٍ في ليشبونة كان، بحسب الصحف، من أصل إيرلنديّ أو

إيطاليّ يدعى جياكومو دولفين.

في أوائل كانون الأوّل ذاك، كان هو في باريس، لا يفعل شيئًا، حتّى السيرَ في المدينة الّتي كانت تُضجره، كان يقرأ القصص البوليسيّة في غرفة فندق، يشرب حتّى ساعة متأخّرة في أندية عابقة بالدخان من غير أن يكلّم أحدًا، لأنّه لطالما شعر بالكسل للتكلّم بالفرنسيّة، قال لي إنّه كان يتعب بسرعة من التكلّم بها، كتناوُل بعض المشروبات المفرِطة في الحلاوة. كان في باريس، وكأنّه في أيّ مكان آخر، وحيدًا، منتظِرًا بتنبّلة عقد عملٍ لم يكن يصله، لكن هذا الأمر لم يكن يهمّه كثيرًا، بل كان يفضّل أن يتأخّروا بضعة أسابيع قبل أن يتّصلوا به، بحيث إنّه عندما رنّ الهاتف، خُيّل إليه أنّه يسمع منبّهًا غير مرغوب فيه. كان أحد موسيقيّي بيلي سوان، أوسكار، عازف الكونترباص، هو نفسه الّذي سيعزف معه لاحقًا في الميتروبوليتانو. كان يتّصل من ليشبونة وصوتُه يبدو سحيقًا، تأخّر بيرالبو في فهْم ما كان يقوله له، إنّ بيلي سوان مريض جدًّا، إنّ الأطبّاء يخشون أن يموت. كان قد استأنف الشرب في الآونة الأخيرة، قال أوسكار، كان يشرب حتّى يفقد الوعي ثمّ يعاود الشرب حين يفيق من سكْرته. سقط يومًا بجانب بار إحدى الحانات وكان عليهم أن ينقلوه في سيّارة إسعاف إلى إحدى مستشفيات المجانين والسكارى، مصحّ قديم، خارج ليشبونة، مكانٍ بدا كقصرٍ معلّق على منحدَر هضبة مشجَّرة. من غير أن يستعيد وعيَه كاملاً، كان ينادي بيرالبو أو يكلّمه وكأنّه جالس بجانب سريره، كان يسأل عنه، يطلب أن يُعْلموه، ألّا

يقولوا له شيئًا، أن يأتي في أسرع وقت ليعزف معه. «لكنّ الأرجح ألاّ يعاود العزف أبدًا»، قال أوسكار. دوَّن بيرالبو عنوان المصحّ، أقفل الهاتف، ووضع في كيس ثيابًا نظيفة، جواز سفره، القصص البوليسيّة، أمْتعته الخاصّة بمن لا وطن له. كان سيُسافر إلى ليشبونة، لكن لم يكن يجد صلة بعد بين اسم تلك المدينة حيث ربّما كان بيلي سوان سيموت وبين عنوان مقطوعة كان قد ألّفها بنفسه ولا حتّى بمكان مقفل منذ زمن بعيد في ذاكرتِه. بعد بضع ساعات فقط، في بهو المطار، حين رأى ليشبونة مكتوبة بأحرُف مضاءة على اللوحة الّتي يعلنون فيها عن الرحلات، تذكَّر ما كانت قد عنَته له هذه الكلمة، من أمدٍ بعيد، في حياة أُخرى، وعرف أنّ كلّ المدن الّتي عاش فيها منذ أن رحل عن سان سيباستيان كانت مراحل موسَّعة لسفرةٍ ربّما كان سيُتمّمها الآن: أمضى كلّ ذلك الوقت منتظِرًا وهاربًا، وبعد ساعتَين سيَصل إلى ليشبونة.

الفصل الثاني عشر

كان قد تخيَّل مدينة ضبابيّة كَسان سيباستيان أو باريس. فاجأته شفافية الهواء، ودقّة الألوان من زهريٍّ وأمْغرَ على واجهات البيوت، واحمرار السطوح الموحَّد، وثبات النور الذهبيّ الدائم على هضاب المدينة المتألّقة كما بعد مطر حديث. من نافذة غرفته، في فندق معتم الأروقة حيث الجميع يتكلّمون بصوت مخفوض، كان يرى ساحةً شرفاتُها متماثلة، وجانبيّةَ تمثال ملكٍ على حصان يشير نحو الجنوب بحركة مفخَّمة. أدرك أنّ البرتغاليّة، عندما يتكلّمونها بسرعة، تصبح غير مفهومة على غرار السويديّة. وأدرك أيضًا أنّه كان سهلاً جدًّا على الآخرين أن يفهموه: قالوا له إنّ المكان الّذي كان يريد الذهاب إليه قريب جدًّا من ليشبونة. في محطّة واسعة وقديمة صعد إلى قطار ما لبث أن غاب في نفق طويل جدًّا: عندما خرج منه كان الليل يهبط. رأى أحياءً من المباني العالية كانت قد بدأت تشتعل فيها الأنوار، ومحطّات شبه خالية حيث رجال ذوو بشرة غامقة ينظرون إلى القطار وكأنّهم كانوا بانتظاره من وقت طويل ولكنّهم لا يصعدون إليه. أحيانًا كانت تمرّ بالقرب من كَوّة القطار دفقة من نور قطارات أُخرى متّجهة إلى ليشبونة. مستفَزًّا بالوحدة والصمت كان ينظر إلى وجوهٍ مجهولة وأماكن غريبة وكأنّه يشاهد تلك الومضات الصُّفر الّتي تظهر في العتمة عندما نغمض عيوننا. عندما كان يغمض عينَيه لم يكن يرى نفسَه في ليشبونة. كان يسافر في الميترو، في أنفاق باريس

أو في أحد القطارات التي تجتاز، في شمال أوروبا، غابات معتمة من السندر.

بعد كلّ وقفة، كان القطار يزداد خلوًّا. عندما أصبح بيرالبو وحده في العربة، خشي أن يكون قد تاه. شعر الشعور نفسه باليأس والريبة الّذي يعتري من يسافر في الميترو في ساعة متأخّرة من الليل ولا يسمع ولا يرى أحدًا ويخاف ألاّ يذهب ذلك القطار إلى حيث كان يعلَن أو أن تكون حُجرة السائق خالية. وأخيرًا نزل في محطّة قذرة جدرانها من البلاط القاشاني. دلّته امرأة كانت تتمشّى على الرصيف مؤَرجِحةً لوحةَ إشاراتٍ ضوئيّة – تخيَّل بيرالبو أنّها تشبه تلك المنارات الّتي كانت على مؤَخَّر الغوّاصات في القرن الماضي – على طريقة الوصول إلى المصحّ. كانت ليلة رطبة ولا يَزينها قمر، عندما خرج من المحطّة أفْعمَته رائحة قويّة للأرض الرطبة وقشور أشجار الصنوبر. كانت الرائحة نفسَها الّتي يشمّها في سان سيباستيان في بعض ليالي الشتاء في غابة أورغول الكثيفة.

كان يتقدّم على الطريق الخفيف الإضاءة. تلا خوفَه من أن يكون بيلي سوان قد مات، شعور غير معلَن بالخطر وبالذاكرة المرتعشة الّتي كانت تحوِّل إلى رموز أنوارَ المنازل المنعزلة، ورائحةَ الليل الغابيّة، وضجّة المياه الّتي تتقطّر وتجري في مكان ما، قريبًا جدًّا، بين الأشجار. لم يعد يرى المحطّة وبدا له أنّ الطريق والليل كانا ينغلقان وراءه، لم يكن موقنًا أنّه فهِم ما قالته له امرأةُ الإشارات. عندها تخطّى منعطفًا ورأى شبحًا كبيرًا لجبل منقّط بالضوء وقريةً

تجمّعت بيوتها حول قصرٍ ذي أعمدة متطاوِلة وقناطر وأبراج غريبة ومداخن مخروطيّة مضاءة من أسفل، مضخَّمة من جرّاء ذلك النور الشبيه بنور المشاعل.

كان مثل الضَّياع في مشهد حلم، يتقدّم نحو ذلك النور الوحيد المرتجف في الظلام: شماليّ الطريق وجد الدرب الّذي تحدَّثَت عنه المرأة واللوحة الّتي تشير إلى المصحّ. كان الدرب يتصاعد متعرِّجًا بين الأشجار، تضيئه قليلاً أعمدة الإنارة الصُّفر المخفيّة في الأدغال. تذكَّر شيئًا قالته له لوكريثيا في أحد الأيّام: الوصول إلى ليشبونة هو كالوصول إلى نهاية العالم. تذكَّر أنّه حلَم بها في الليلة السابقة حلمًا قصيرًا، متقطّعًا بالحقد، رأى فيه وجهها كما كان في الأعوام المنصرمة عندما تعارفا، بدقّة متناهية إلى حدّ أنّه لم يستطع التعرّف عليه إلاّ حين استيقظ.

اعتقَد أنّ رائحة الغابة هي ما تجعله يتذكّرها: كاسرًا عادةَ النسيان الراسخة كان يعود إلى سان سيباستيان، ثمّ إلى مكان أبعد، مجهول حتّى الآن، كاسْم محطّة لم يتمكّن بعد من قراءته من كوّة القطار. وكأنّما، شرح لي في مدريد، منذ أن وصلَ إلى ليشبونة بدأت حدود الزمن تتلاشى، ويتلاشى انتسابه الطَّوعيّ إلى الحاضر والنسيان، ثمرة خاصّة بالانضباط والإرادة، مثل علمِه في الموسيقى: وكأنّما في الدرب الّذي يعبر تلك الغابة كانت مرسومةً بشكل غير مرئيّ الحدودُ بين بلدَين عدوَّين وكان هو قد اجتازها في مكان ما. هذا ما فهمه وما أخافه عند وصوله إلى مدخل المصحّ، عندما رأى أضواء

البهو والسيّارات المصطفّة أمامه: لم يتذكّر نزهة في سان سيباستيان بقرب منحدَر غابة أورغول، لم تكن هذه الرائحة ولا الشعور بالضباب والرطوبة اللذَين أرجعا له شجن فُقدانه لوكريثيا في زمن آخر من حياته ومن العالم. ما تذكّره كان مكانًا آخر وليلة أُخرى، أضواءَ فندق، بريقَ سيّارة متوارية بين الصنوبر والخُنشار الباسق، سَفرةً مبتورة إلى ليشبونة، المرّةُ الأخيرة الّتي كان فيها مع لوكريثيا.

قالت له راهبة تعتمر قبّعة مسطّحة كأجنحةٍ بيضٍ حول رأسها، إنّه ليس وقت الزيارات. أفْهمها أنّه أتى من بعيد ليرى فقط بيلي سوان. وكان يخشى أن يجده ميتًا إذا تأخَّر ساعة أو يومًا. منحنية الرأس، ابتسمت له الراهبة لأوّل مرّة. كانت شابّة، زرقاء العينَين وتتكلّم الإنكليزية بهدوءٍ، «مستر سوان لن يموت. ليس الآن». محرِّكة أمامه قبّعتها الجامدة، سائرة على بلاط الممرّ البارد وكأنّها تقصِّر خُطاها، أوْصلت بيرالبو إلى غرفة بيلي سوان. من القناطر العالية كانت تتدلّى مصابيح كهربائيّة غطّاها الغبار، كما في دور السينما القديمة، وفي كلّ زاوية من الممرّ وعلى كلّ سطح درجٍ هوَّم حُجّابٌ ذوو بزّات رماديّة، مستندين إلى طاولات بدت آتيةً من مكاتب قديمة. كان أوسكار، عازف الكونترباص، جالسًا على مقعد مقابل بابٍ مقفل، كاتفًا ذراعَيه الضخمتيَن ورأسُه متدلٍّ على صدره وكأنّه نام من هُنيهة.

– لم يتحرّك من هنا مُذ أتَوا بمستر سوان.

تكلّمت الراهبة بهمس، لكنّ أوسكار قام وفرك عينَيه، متبسمًا

لبيرالبو بشُكرٍ متعَب ودهشة.

– لقد تعافى، قال. اليوم هو أفضل بكثير. كان يخشى أن يكون قد فاته يوم الحفلة.

– متى كان عليكما العزف؟

– الأسبوع المقبل. هو موقن أنّنا سنتمكّن من العزف.

– لقد جُنّ مستر سوان. – حرّكت الراهبة رأسها، وأجنحة قبّعتها موّجت الهواء.

– ستعزفان، قال بيرالبو. بيلي سوان خالد.

– صعب. – كان أوسكار لا يزال يفرك عينيه بأصابعه الضخمة وأناملها البيضِ. – عازف البيانو وعازف الدرامزْ قد رحلا.

– أنا سأعزف معكما.

– كان العجوز حزينًا لأنّك لم تشأ المجيءَ إلى ليشبونة، قال أوسكار. في البداية، عندما أتينا به إلى هنا، لم يشأ أن نخبرك. لكنّه كان يتلفّظ باسْمك عندما يهذي.

– يمكنكما الدخول، قالت الراهبة من قرب الباب المشقوق. مستر سوان قد استيقظ.

قبْل أن يراه، منذ أن اشتمّ رائحة المرض والأدوية في الجوّ، شعر بيرالبو بحافز لا يُسبر من الوفاء والحنان يتملّكه، من الذنْب والشفقة أيضًا، من العزاء؛ لأنّه لم يرد الذهاب مع بيلي سوان إلى ليشبونة، كعِقاب، كان على وشكِ ألاّ يعاود رؤيته أبدًا. ما أقذرها خيانة! سمعه يقول في إحدى المرّات، حتّى عندما يكفّ المرءُ عن أن يكون

مغرمًا، يظلّ قادرًا على تفضيل الحبّ على أصدقائه. دخل لكنّه لم يتمكّن من رؤية بيلي سوان في الحال، كانت الغرفة معتمة، فيها نافذة كبيرة وكنبة منجّدة بالبلاستيك، وعليها غلافُ البوق الأسود، وإلى اليمين سرير أبيض مرتفع ومصباح ينير بانحرافٍ ملامح القِردِ القاسية، الجسدِ الضعيف تحت الملاءة والغطاء غير الموجود تقريبًا، وبيجاما بيلي سوان المخطَّطة التافهة. مادًّا ذراعَيه بجنبيه، حانيًا رأسه على الوسائد، كان بيلي سوان يرقد بلا حراك حتّى بدا وكأنّه يتجسّد لتمثال مأتميّ. عند سماعه أصواتًا، انتعش وتحسَّس منضدة السرير باحثًا عن نظّارته.

– ابن الكلب، قال مشيرًا إلى أوسكار بظُفر سبّابته الأصفر الطويل. لقد منعتُكَ من الاتّصال به. قلت لك إنّني لا أريد رؤيته في ليشبونة. اعتقدتَ أنّني على وشك الموت، ألَيس كذلك؟ دعوتَ الأصدقاء القدامى إلى دفن بيلي سوان...

كانت يداه المهزولتان ترتجفان بعضٍ الشيءِ، وقد اتّخذتا شكل العظام، على غرار وجْنتَيه وصدغَيه وفكّه المشدود كفكِّ جثّة، أو هيكل عظميّ غُيِّر وجهه كمحاكاة ساخرة للرجُل الحيّ الّذي كان يدعمه. عروق فقط وبشرة تُقطِّعها أورِدةُ رجل كُحوليّ: بدا هيكل نظّارته الأسود جزءًا من عظامه، ممّا قد يتبقّى منه بعد أن يمضي على موته زمن طويل. لكن في عينيه اللتَين بدتا غائرتين في قناع من الكرتون، وفي خطّ شفتيه القاسي، بقي التهكُّم والكبرياء على حالهما، والقدرة المقدّسة على التجديف واللوم، الشرعيّة الآن أكثر

من أيّ وقت مضى، لأنّه كان ينظر إلى الموت بالازدراء نفسه الّذي نظر به إلى الفشل في زمن آخر.

– إذًا أتيتَ، قال لبير البو – عندما عانقه اتّكأ عليه كمُلاكم مُخادع.

– لم تشأ العزف معي في ليشبونة، لكنّك أتيتَ لتراني أموت.

– جئت لأطلب منك وظيفة، بيلي، قال بيرالبو. أخبرني أوسكار أنْ ليس معك عازف بيانو.

– لسان يوضاس. – من دون أن يخلع نظّارته أغْرق بيلي سوان رأسه مجدَّدًا بين الوسائد. – لا عازف درامزْ ولا عازف بيانو. لا أحد يريد أن يعزف مع ميت. ماذا كنت تفعل في باريس؟

– أقرأ الروايات في السرير. أنت لست ميتًا، بيلي. أنت حيّ أكثر منّا.

– اشرح ذلك لأوسكار والراهبة والطبيب. عندما يدخلون ينحنون فوقي لينظروا إليّ وكأنّهم يرونني منذ الآن في النعش.

– سنعزف معًا في الثاني عشر بيلي، كما فعلنا في كوبنهاغن، كما في الأزمنة القديمة.

– ماذا تعرف أنت عن الأزمنة القديمة، يا فتى؟ كان ذلك قبل أن تولد بكثير. آخرون ماتوا في أوانهم وهم يعزفون منذ ثلاثين سنة في جهنّم أو حيث يبعث الله أمثالنا. انظر إليّ، أنا ظِلٌّ، أنا مَنفيّ، ليس من بلدي، بل من ذلك الزمان. نحن الباقون نتظاهر بأنّنا لم نمت، لكنّه كذبٌ، نحن دجّالون.

– أنت لا تكذب أبدًا عندما تعزف.

– لكنّي أيضًا لا أقول الحقيقة...

عندما أفرط بيلي سوان في الضحك تقلّص وجهه وكأنّه تشنّج من الألم. تذكّر بيرالبو صوَر أسطواناته الأولى، جانبيّته المشابهة لجانبيّة رجل مسلّح أو بطلٍ سافل ذي خصلة شعرٍ طويلة تلمع بدهن الشعر بين عينيه. هذا ما كان قد فعله الوقت بوجهه: كان قد قلّصه، خاسفًا جبهته الّتي كانت تختفي تقريبًا عندما كان بيلي سوان ينفخ في البوق. فكّر أنّه ربّما كان ميتًا، لكن لا أحد كان قد أخضعه، لا أحد ولا شيء، ولا حتّى الكحول أو النسيان.

دُقّ الباب. أوسكار الّذي كان لا يزال بجانبه كالحارس الصامت، فتحه قليلاً ليرى مَن الطارق: ظهر في الشقّ رأسُ الراهبة المتحرّك ذو الأجنحة، تفحّصت الغرفة وكأنّها تبحث عن ويسكي سرّيّة. قالت إنّ الوقت أصبح متأخّرًا وقد آن الأوان ليتركا مستر سوان ينام.

– أنا لا أنام أبدًا، يا أختي، قال بيلي سوان. أحضري لي قارورة نبيذ مقدّس، أو اطلبي من إلَهِ الكاثوليك أن يشفيني من الأرق.

– سآتي غدًا لأراك. – بيرالبو الّذي كان لا يزال محافظًا على خوف الطفولة من قبّعات الراهبات البيض، امتثل حالاً لواجب الذهاب. – اتّصِل بي إن احتجت إلى شيءٍ. في الساعة الّتي تشاؤها. لدى أوسكار رقم هاتف فندقي.

– لا أريدك أن تأتي غدًا. – بدت عَينا بيلي سوان أكبر وراء زجاج النظّارة. – ارحلْ من ليشبونة، غدًا، هذه الليلة. لا أريدك أن

تبقى منتظرًا أن أموت. وليذهبْ أوسكار معك.

– سنعزف معًا أنا وأنت، بيلي. نهار 12.

– لم تكن تريد المجيءَ إلى ليشبونة، أتذْكر؟ – انتصبَ بيلي سوان، مستندًا إلى أوسكار، من غير أن ينظر إلى بيرالبو، كالأعمى.

– أعرف أنّك كنت خائفًا ولهذا السبب رويت لي تلك الكذبة بأنّك ذاهب للعزف في باريس. لا تندم الآن. ما زلتَ خائفًا. اسمع منّي واذهب من غير أن تتطلّع وراءك.

لكنْ من كان خائفًا تلك الليلة هو بيلي سوان، قال لي بيرالبو، خائفًا أن يموت أو أن يراه أحد وهو يموت أو ألاّ يكون وحيدًا في ساعات الاحتضار الأخيرة: خائفًا ليس على نفسه فحسب بل على بيرالبو أيضًا – وربّما ليس فقط عليه – الّذي ما كان يجب عليه أن يرى شيئًا كان بيلي سوان قد رآه في غرفة ذلك المصحّ في أقصى العالم. كما لو أراد أن يخلّصه من الغرق أو من عدْوى الموت، طلب إليه أن يذهب وبعدها وقع على الوسادة، رفعت الراهبة الغطاء وأطفأت النور.

عندما وصل بيرالبو إلى المحطّة فاجأه أنّها كانت الساعة التاسعة ليلاً. فكّر أنّ تلك الأمكنة – المصحّ، الغابة، القرية، قصر الأبراج المخروطيّة والحيطان المخفيّة باللبلاب – كانت حصريًّا ليليّة، ولم يكن يصل إليها الفجر بتاتًا أو كانت تختفي كالضباب مع نور الشمس. في مقهى المحطّة تناولَ شرابًا بلَون لبنيّ ودخّن سيجارة وهو ينتظر انطلاق القطار. بشيءٍ من السعادة والرعب شعر بنفسه

ضائعًا وغريبًا، أكثر ممّا شعر في ستوكهولم أو باريس، لأنّ أسماء تلك المدن كانت موجودة على الأقلّ في الخرائط. بالحرّيّة المخيفة لِمَن يكون وحيدًا في بلد غريب أتى على كأس أُخرى من الشراب وصعد إلى القطار، مدركًا حالة الوعي الحقيقيّة الّتي تمنحه إيّاها الكحول والوحدة والسفر. قال «ليشبونة» عندما رأى أضواءَ المدينة تقترب كمن يتلفّظ باسْم امرأة وهو يقبّلها وهي لا تؤثّر فيه. في محطّة بدت مهجورة توقّف القطار قرب قطار آخر كان يتقدّم في الاتّجاه المعاكس. انطلقَت الصفّارة وبدأ الاثنان يتحرّكان ببطءٍ مع ضجيج معادن تتصادم من غير إيقاع. مدفوعًا إلى الأمام، نظر بيرالبو إلى كُوى القطار الآخَر، وجوهٌ واضحة وبعيدة لن يعاود رؤيتها أبدًا، كانت تنظر إليه مع نوع من الكآبة المتماثلة. وحيدة في المقطورة الأخيرة، قبل الأضواء الحمر والعتمة المنحسرة، كانت امرأة تدخّن حانية الرأس، مستغرقة مع نفسها لدرجة أنّها لم ترفع عينيها للنظر إلى الخارج عندما انطلق قطارها. كانت ترتدي سترة كحليّة ذات قبّة مرفوعة وكان شعرها بالغ القصَر. «كان شعرُها السبب» قال لي بعدها بيرالبو «لذلك لم أعرفها في البدءِ». وقف وأشار بيده في الفراغ بلا جدوى ، لأنّ قطاره كان قد دخل بطريقة لولبيّة أحد الأنفاق عندما أدرك أنّه خلال ثانية واحدة كان قد رأى لوكريثيا.

الفصل الثالث عشر

لم يكن يذكر كم من الوقت، كم ساعة أو نهارًا مشى كالمُرَوبص في شوارع ليشبونة وعلى سلالمها، في الأزقّة القذرة وأبراج المراقبة العالية والساحات ذات الأعمدة وتماثيلِ ملوكٍ على الأحصنة، بين المخازن المعتمة ومزابل المرفأ، وأبعد عند الجهة الأُخرى لذلك الجسر اللانهائي والأحمر الّذي يقطع نهرًا شبيهًا بالبحر، في ضواح حيث ارتفعت كتَل أبنية كالمنارات أو كالجُزُر وسط الأراضي المكشوفة، في محطّات شبحيّة قريبة من المدينة، قرأ أسماءها من غير أن يتمكّن من التذكّر في أيّ واحدة رأى لوكريثيا. أراد إخضاع المصادفة كي يتكرّر المستحيل: كان ينظر إلى كلّ وجه من وجوه النساء اللواتي كان يلتقيهنّ في الشارع، تلك اللواتي كنّ يمررْن بلا حراك وراء نوافذ الترامواي والباصات، وتلك اللواتي كنّ يصعدن إلى سيّارة الأجرة أو يقتربن من نافذة في شارع مقفر. وجوهٌ مسنّة، غير مبالية، تافهة، وقِحة، إشارات لانهائيّة، ونظرات، وسُترات زرقٌ لم تكن تنتمي البتّة إلى لوكريثيا، وجوهٌ متشابهة جدًّا كمفترقات الطرق، كالدهاليز المعتمة، والسطوح المحمرّة ومتاهة أسوأ شوارع ليشبونة. تصلُّبٌ متعَب ربّما كان يصفه في زمن آخر باليأس أخذ يدفعه كما يفعل البحر بمن لم يعد لديه القوّة لمتابعة السباحة، وحتّى عندما يسمح لنفسه بهدنة ويدخل أحد المقاهي، كان يختار طاولة تُمكّنه من مشاهدة الشارع. ومن سيّارة الأجرة الّتي كانت تعيده إلى فندقه

عند منتصف الليل كان ينظر إلى أرصفة الجادّات الخالية وإلى زوايا أنارَتها لافتات من النيون، حيث مكثت نساء وحيدات مكتوفات الأذرع. عندما كان يطفئ النور ويتمدّد وهو يدخّن على السرير كان لا يزال يرى، في شبه الظلمة، وجوهًا وشوارع وحشودًا تمرّ أمام عينيه نصف المفتوحتَين بسرعة صامتة كمرور الصوَر في فانوس سحريّ، والتعب لا يسمح له بالنوم، وكأنّ نظْرته الجشعة لمتابعة البحث، قد تركت جسده الساكن والمهزوم على السرير، وخرجت إلى المدينة لتعود وتتيه فيها حتّى آخر الليل.

لكنّه لم يعد موقنًا أنّه رأى لوكريثيا ولا أنّ الحُبّ هو ما كان يجعله يبحث عنها. غارقًا في تلك الحالة التنويميّة لمن يسير وحده في مدينة مجهولة، لم يعد يعرف حتّى إذا كان يبحث عنها: لا يعرف إلاّ أنّه، ليلَ نهارَ، كان بعيدًا عن الطمأنينة، وأنّه في كلّ زقاق من الأزقّة الّتي تتسلّق هضاب ليشبونة أو تنحدر بشدّة كأنّها فِجاج، كان هناك نداء صارم وسرّيّ لم يكن يقوى على عصيانه، أنّه ربّما كان عليه الرحيل وكان يستطيع ذلك عندما أمره به بيلي سوان، ولكنّ الأوان فات الآن، كما لو فاته القطار الأخير للخروج من مدينة محاصَرة.

كان يذهب كلّ صباح إلى المصحّ. بلا جدوى، يراقب بتطيُّر نوافذ القطارات الّتي تلتقي قطاره ويقرأ أسماء المحطّات حتّى حفظها. ملتفًّا بمفضلة فضفاضة جدًّا، مع غطاء على رجليه، كان بيلي سوان يمضي الأيّام وهو ينظر إلى الغابة والقرية من نافذة غرفته ولم يكن يتكلّم قطُّ تقريبًا. من غير أن يلتفت كان يرفع يده طالبًا

سيجارة ليتركها بعدئذٍ مشتعلة من دون أن يقرّبها من شفتيه غير مرّة أو مرّتين. كان بيرالبو يراه من الخلف عكس نور النافذة الرمادي، جامدًا ووحيدًا كتمثال في ساحة خالية. من اليد الكبيرة والمنحنية الّتي التقط بها السيجارة، كان الدخان يتصاعد عموديًا. كان يحرّكها قليلاً لينفض الرماد الّذي يتناثر إلى جانبه من غير أن يبدو أنّه يلحظ ذلك، لكن لو اقتربَ أحدهم لَلاحظ في أصابعه ارتجافًا خفيفًا لم يكن يتوقّف بتاتًا. ضباب معتدل رطّبه الرّذاذ كان يغمر المشهد ويجعل الأماكن والأشياء تبدو نائية. لم يذكر بيرالبو أنّه كان قد رأى بيلي سوان هادئًا ومطيعًا بهذا الشكل، متخلّيًا عن كلّ شيءٍ، حتّى عن الموسيقى والكحول. من حينٍ إلى آخر كان يغنّي بصوت خافت جدًّا، مستغرقًا في العذوبة، أبيات شعرٍ من أدْعية السود القديمة أو من أُغنيات حبّ، دائمًا وهو مدير ظهره، قبالة النافذة، بصوت مكسور يضمُّ بعدها شفتيه مقلِّدًا بكسل صوت البوق. في الصباح الأوّل، عندما دخل بيرالبو لرؤيته، سمعه وهو يحاول أن يؤلّف تنويعًا غريبًا للَحنٍ كان بالنسبة إليه مجهولاً ومألوفًا في آنٍ واحد، «ليشبونة». مكث بالقرب من الباب المشقوق لأنّ بيلي سوان لم يبدُ أنّه لاحظَ وجوده وكان يدندن الموسيقى وكأنّه وحده، مواكِبًا إيّاها بقدميه بهدوءٍ.

– إذًا، لم ترحل، قال من دون أن يستدير نحوه، محدِّقًا في زجاج النافذة وكأنّه مرآة كان يمكنه رؤية بيرالبو فيها.

– رأيت لوكريثيا ليلة البارحة.

– من؟

استدار عندها بيلي سوان، كان قد حلق ذقنه، وشعره الخفيف الّذي لم يزل أسود كان يبرق بالدُّهن. كانت تضفي عليه النظّارة والمِفْضل هيئة المتقاعد اللطيف. لكنّ هذا المظهر سرعان ما كان يكذّبه لمعانُ عينيه والتوتُّر الغريب للعظام تحت بشرة وجنتَيه: ظنّ بيرالبو أنّه بهذه الطريقة قد يلمع فكُّ ميتٍ حُلق ذقنه من هنيهة.

– لوكريثيا، لا تريدني أن أعتقد أنّك لا تذكرها.

– فتاة برلين، قال بيلي سوان بنبرة السأم أو السخرية. هل مؤكَّدٌ أنّك لم ترَ شبحًا؟ لطالما اعتقدت أنّها شبح.

– رأيتُها في قطار كان آتيًا إلى هنا.

– هل تسألني إن جاءت لتراني؟

– إنّه احتمال.

– لا أحد غيرك وغير أوسكار قد يخطر بباله المجيءُ إلى مكان مثل هذا. رائحة الموت تفوح في الممرّات، ألم تلاحظ ذلك؟ رائحة الكحول المعقِّم أيضًا، والكلوروفورم والزهور كما في خدمات دفن الموتى في نيويورك. تسمع الصرخات في الليل. أشخاص مربوطون بأحزمة في السرير يرون الصراصير تحبو على سيقانهم.

– لم يدم الأمر ولو ثانيةً. – كان الآن بيرالبو واقفًا قرب بيلي سوان ينظر إلى الغابة الخضراء القاتمة في الضباب، والبيوت الريفيّة المبعثرة في الوادي، المتوَّجة بأعمدة من الدخان، ومستودعات المحطّة البعيدة. كان قطار يصل إليها، بدا يتقدّم بصمتٍ. – تأخّرتُ

قليلًا لأعرف أنّني رأيتها. لقد قصّت شعرها.

– كانت مخيِّلتَك، يا فتى. هذا بلد غريب. هنا الأشياء تحدُث بطريقة مختلفة، وكأنّها تحصل من عدّة سنين أو كأنّنا نتذكّرها.

– كانت في القطار، بيلي، أنا متأكّد.

– وفيمَ يهمّك هذا الأمر؟ – رفع بيلي سوان نظّارته ببطءٍ: كان يفعل ذلك دائمًا عندما يريد إظهار حدّة ازدرائه لأحد. – كنتَ قد شفيت، أليس كذلك؟ لقد عقدنا اتّفاقًا، ألا تذكر؟ أنا أتخلّى عن الشرب وأنت عن لعق جروحك كالكلب.

– أنتَ لم تتخلَّ عن الشرب.

– الآن فعلت. سيذهب بيلي سوان إلى القبر أكثر زهدًا من مورمونيٍّ.

– هل رأيتَ لوكريثيا؟

عاد بيلي سوان ووضع نظّارته ولم ينظر إليه. كان ينظر باهتمام إلى أبراج القصر أو مداخنه الّتي عتّمها المطر عندما تكلّم إليه مجدَّدًا بنبرة مدروسة وهادئة كمن يتكلّم مع خادم، مع أحد لا يراه.

– إن لم تصدّقني فاسأل أوسكار. هو لن يكذب عليك. اسأله إن زارني أيّ شبح.

«لكنّ الشبح الوحيد لم يكن لوكريثيا بل أنا»، قال لي بيرالبو بعدها بسنة، حين رأيته تلك الليلة الأخيرة، مستندًا إلى السرير في فندقه في مدريد، ثملاً من الويسكي بوقاحة وهدوءٍ، واعيًا جدًّا لكن بعيدًا عن كلّ شيءٍ وكأنّه يتكلّم أمام مرآة: هو مَن لم يعد موجودًا

تقريبًا، مَن كان يمّحي خلال جولاته في ليشبونة مثل ذكرى وجهٍ نراه مرّة واحدة فقط. أوسكار نفى أيضًا أن تكون امرأة قد زارت بيلي سوان: أكيد، قال له، هو لم يتحرّك قطّ من هناك، لو كان رآها، لماذا سيكذب؟ مجدَّدًا نزل وحده في طريق الغابة وشرب في المحطّة وهو ينتظر قطار العودة إلى ليشبونة، ناظرًا إلى الجدران الكلسيّة الزهريّة وقناطر المصحّ البيض، وهو يفكّر في الهدوء الغريب لبيلي سوان الّذي كان يقبع بلا حراك أمام إحدى النوافذ الكبيرة، شاعرًا تقريبًا بتيقُّظه وشجْبه مثلما كان يتذكّر الطريقة الّتي كان يدندن بها لحن تلك المقطوعة الّتي كتبها بيرالبو قبل أن يصل إلى ليشبونة بكثير.

عاد إلى المدينة ليضيع فيها كما في إحدى ليالي الموسيقى والبوربون الّتي بدت أنّها لن تنتهي أبدًا. لكنّ الشتاء كان قد سوّد الشوارع، وكانت النوارس تطير فوق السطوح والتماثيلِ على الأحصنة، وكأنّها تبحث عن مأوى تحتمي به من عواصف البحر. عند كلّ غسق مبكر كانت هناك لحظة يبدو فيها أنّ الشتاء قد اجتاح المدينة نهائيًّا. من ضفّة النهر كان الضباب يلفّك، ماحيًا الأفق وأبنية الهضاب العالية، وكانت البنْية الحمراء للجسر المعلّق فوق المياه الرماديّة تمتدّ في الفراغ. لكن حينذاك كانت تبدأ الإضاءة: الأعمدة المتراصفة في الجادّات، والإعلانات المضاءة الضعيفة الّتي كانت تنطفئ وترتعش لتشكّل أسماء أو رسومًا، والخطوط المتواترة من أضواء النيون الّتي كانت تلوّن بإيقاعٍ، بالزهريّ والأحمر والأزرق، سماءَ ليشبونة الدانية.

كان يسير دائمًا، مؤرَّقًا وراء قَبّة معطفه، متعرّفًا على أماكن كان قد مرّ بها مرارًا أو ضائعًا عندما كان أكثر يقينًا أنّه حفظ بنية المدينة. كان، قال لي، كمن يشرب ببطءٍ الدجِنْ المعطّر الشفّاف كالزجاج وكصباحات كانون الأوّل الباردة، كمن يتلقّح بمادّة سامّة وعذبة تمدِّد وعيه أبعد من حدود العقل والخوف. كان يُدرك كلَّ شيء بدقّة جليدية يتخيّل أحيانًا من خلالها سهولة الانزلاق إلى الجنون. تعلّم أنّه لِمن يقضي وحيدًا وقتًا طويلاً جدًّا في مدينة غريبة، كلُّ شيءٍ بإمكانه أن يتحوّل إلى الإشارة الأولى لهلوسة: أنّ وجه النادل الّذي كان يأتيه بالقهوة أو وجهَ عاملِ الفندق الّذي كان يسلّمه مفتاح غرفته كانا وهميّين كوجود لوكريثيا المفاجئ الّذي وقع عليه ومن ثمّ أضاعه، كوجههِ هو في مرآة حمّام.

لم يكفّ عن البحث عنها، ولم يكن يفكّر فيها تقريبًا قطّ. بالطريقة نفسها الّتي كان الضبابُ ومياهُ نهر التاج يعزلان فيها ليشبونة عن العالم، فيحوِّلانها لا إلى مكان، بل إلى مشهد من الزمان، كان هو يشعر لأوّل مرّة في حياته بالجزيريّة المطلَقة لأفعاله: كان قد أصبح غريبًا عن ماضيه ومستقبله كما عن الأشياء الّتي أحاطت به ليلاً في غرفة فندقه. ربّما كان قد عرف في ليشبونة تلك السعادة الجريئة والغامضة الّتي اكتشفتُها فيه الليلةَ الأولى حين رأيتُه يعزف في الميتروبوليتانو. أذكر شيئًا قاله لي مرَّة: كانت ليشبونة وطن روحه، الوطنَ الوحيد الممكن للّذين يولدون غرباء.

وكذلك للَّذين يختارون العيش والموت كالمارقين: إحدى

مسلَّمات بيلي سوان هي أنّ كلّ إنسان محترم ينتهي به الأمر إلى كُره البلد الّذي ولِد فيه وإلى الهرب منه وهو ينفض الغبار عن حذائه.

وذات مساء، وجد بيرالبو نفسه متعبًا وضائعًا في ضاحية لم يكن بإمكانه العودة منها سيرًا قبل حلول الظلام. مستودعات مهجورة من القرميد المحمرّ كانت مصطفّة إلى جانب النهر. على الضفاف الوسخة وكأنّها مزبلة، رُميت بين الدغل آلاتٌ قديمة بدت هياكل عظميّة لحيوانات منقرضة. سمع بيرالبو صوتًا مألوفًا وبعيدًا مثل صوت معادن تتدحرج. كان تراموراي يقترب ببطءٍ، عالٍ وأصفر، يتأرجح على السكّة الحديديّة، بين الجدران المسودّة والأنقاض والنُّفايات المعدنيّة. صعد إليه، ولم يفهم شرْح السائق، لكن لم يكن يهمّه أين يذهب. بعيدًا، فوق المدينة، سطعت شمس الشتاء الضبابيّة، لكنّ المشهد الّذي كان يعبره بيرالبو كان رماديًّا مثل عصْرٍ ماطر. بعد رحلة بدت له طويلة جدًّا، توقَّف الترام في ساحة مفتوحة على مصبّ النهر، كانت مؤلَّفة من أروِقة مسقوفة متوَّجة بتماثيل وجبهيّات من الرخام ومن درج غارق في المياه. على قاعدة مصنوعة من أفيال بيضٍ وملائكة رافعين أبواقًا من البرونز، كان ملكٌ، لم يستطع بيرالبو معرفة اسمه، يمسك عِنان حصانه منتصبًا بهدوءِ البطل أمام هواء البحر الّذي فاحت منه رائحة المرافئ والشتاء.

كان الوقت لا يزال نهارًا، لكنّ الأضواء بدأت تشتعل في شبه الظلمة الرطبة بأعالي الأروقة المسقوفة. عبَر بيرالبو تحت قوسٍ مزدانة بالمنحوتات الرمزيّة والتُّروس ما لبث بعدها أن ضاع في شوارع

لم يكن متأكّدًا أنّه زارها من قبل. لكنّ هذا كان يحْدث له دائمًا في ليشبونة: لم يكن ينجح البتّة في التمييز بين الجهل والذكرى. كانت شوارع ضيّقة ومعتمة، عامرة بمخازن مديدة وروائح المرافئ الكثيفة. اجتاز ساحة كبيرة ومتجلّدة كضريح من الرخام، لمعت على أرصفتها سككُ الترامواي المنعطفة، سار في شارع ليس فيه باب واحد بل جدارٌ فقط طويل أمغر مشبَّك النوافذ. دخل زقاقًا يشبه نفقًا انتشرت فيه رائحة المخازن وأكياس القهوة، وسار بسرعة أكبر حين سمع وراءه خُطى رجُل آخر.

عاد وغيّر طريقه، خشية أن يكون ملاحَقًا، وهب قطعة نقديّة لشحّاذ جالس على درجة وبجانبه رِجْلٌ اصطناعيّة، لائقة جدًّا، برتقاليّة، يكسوها جَوربٌ مربّع التقاطيع، وأحزمةٌ وبُكَلٌ وفردةُ حذاء، بمنتهى النظافة، كئيبة تقريبًا. رأى حانات بحّارة قذرة ومداخل نُزلٍ هي بلا شكّ بيوت دعارة. وكأنّه ينزل في بئر، شعر بالهواء يتكثّف، كان يرى حانات أكثر ووجوهًا أكثر، أقنعة قاتمة، عيونًا مشقوقة بأحداقٍ باردة، ملامح شاحبة جامدة في دهاليز ذات مصابيح حُمر، أجفانًا زُرقًا، بَسمات شفاهٍ مقطوعة كانت تضغط على سجائر، وتنضمّ لُمناداته من الزوايا، من عتبات الأندية ذات اللافتات المضاءة الّتي كانت تضيءُ وتنطفئ ولو لم يكن قد حلّ الليل بعد، راغبة في وصوله، معلنة عنه.

أسماء مدن أو بلدان، مرافئ، مناطق بعيدة، أفلام، أسماء فوسفوريّة، مجهولة ومغرية كأضواء مدينة نراها من طائرة ليليّة،

مجمَّعة كأزهار من المَرجان أو من بلّورات الثلج. تكساس، قرأ، هامبورغ، كلمات حمرٌ وزرقٌ، صُفرٌ، بنفسجيّة شاحبة، خطوط ضعيفة من النيون، آسيا، جاكارتا، موغامبو، غوا، كلّ واحد من البارات وكلّ امرأة كانت تُعرَض عليه بدعاء فاسد ومقدَّس، وهو يسير كأنّه يطوف بسبّابته على خريطة عالمِ مخيّلته وذاكرته، وغريزة الخوف والضياع القديمة الّتي لطالما عرفها في تلك الأسماء. اقتربَ منه أسْود ذو نظّارة حالكة ومعطف مطرٍ على مقدار جسمه وتكلّم معه وهو يشير إلى شيءٍ في راحة يده البيضاء. رفض بيرالبو بحركة من رأسه فعدَّ له الآخر أشياء بالإنكليزية: ذهبٌ، هيروين، مسدّس. كان يشعر بالخوف، وكان يروقه ذلك كمَن يشعر بدُوار السرعة وهو يقود سيّارة في الليل. تذكّر بيلي سوان الّذي كان عند وصوله إلى مدينة مجهولة يبحث دومًا عن الشوارع الأكثر خطرًا. عندها رأى تلك الكلمة المضاءة، في الزاوية الأخيرة، النور الأزرق الّذي كان يرتعش وكأنّه على وشكِ أن ينطفئ، عالية في الظلمة كالمنارة، كالأضواء الساطعة على آخر جسر في سان سيباستيان. للَحظة لم يرها، ثمّ رأى ومضاتٍ زُرقًا سريعة، وأخيرًا أُضيئت الأحرف المعلّقة فوق الشارع حرفًا فحرفًا لتشكّل اسمًا، نداءً: بورما.

دخل كمن يغمض عينيه ويقفز في الفراغ. كانت نساءٌ شقرٌ، أفخاذُهنّ طويلة، وظاهرات القُبح، يشربن على البار. كان هناك رجال غير واضحين، واقفون، جالسون على أرائك، ينتظرون شيئًا، يعدّون النقود بتخفٍّ، جامدين أمام حُجَرٍ مصابيحها حمرٌ تنطفئ

أحيانًا. عندها كان يخرج من إحداها شخص خافض الرّأس ويدخلها رجلٌ آخر ويُسمع صوت الباب وهو يقفَل من الداخل. اقتربَت امرأة من بيرالبو. «فقط أربع قطَع من خمس وعشرين إسكودو» قالت له. سأل هو ببرتغاليّة متردّدة لماذا كان اسم المكان «بورما». ابتسمَت المرأة من غير أن تفهم شيئًا وأشارت له إلى الممرّ حيث اصطفّت الحُجرات. دخل بيرالبو إحداها. كانت ضيّقة كمِرحاضِ قطار وفي وسطها نافذة غبِشة مستديرة. دسّ قطَع النقود واحدة تلو الأُخرى في فتحة عموديّة. انطفأ نور الحُجرة وضَوءٌ أحمر أنار تلك النافذة البيضوية. «لستُ أنا»، فكّر بيرالبو، «لست في ليشبونة، هذا المكان لا يدعى بورما». عند الجهة الأُخرى من الزجاج كانت امرأة شاحبة ونصف عارية تتلوّى أو ترقص على حلْبة دوّارة. كانت تحرّك يديها المبسوطتين متظاهرة بأنّها تداعب نفسها، كانت تركع أو تتمدّد بانتظام وازدراء، تهتزّ وهي تنظر أحيانًا بلا تعبير إلى صفّ النوافذ المستديرة.

حجرة بيرالبو أُطفئت وكأنّها مغطّاة بالجليد. كان يشعر بالبرد حين خرج، وأخطأ الطريق. نفقُ الحُجرات المماثلة لم يأخذه إلى الحانة بل إلى غرفة عارية ذات مصباح واحد وباب معدنيٍّ نصف مفتوح. كانت الجدران مبقَّعة بالرطوبة وعليها رسوم خلاعيّة. سمع بيرالبو خطوات أشخاص يرتقون سلّمًا درجاته من الحديد، لكنّه لم يجد الوقت الكافي لإطاعة رغبته في الاختباء. امرأة ورجلٌ متعانقان بخصرَيهما ظهَرا عند الباب. الرجل كان مشعَّث الشعر وتجنّب نظرة

بيرالبو. تابع طريقه حتّى لم يعد بإمكانهما رؤيته. كان الدرَج يهبط إلى كاراج أو مخزن خافت الإضاءة. بين هياكل حديديّة كان وجه ساعة يلمع كالكبريت فوق مكان خالٍ كحلبة رقصٍ مهجورة.

كما في بعض محطّات السكَك الحديديّة ذات القِباب الغوطيّة والواجهات الزجاجيّة العالية الّتي سوّدها الدخان، كان في ذلك المكان شعور بالمسافات اللانهائيّة، بالغت فيه شبهُ الظلمة، والمصابيح الحمر المضاءة فوق الأبواب، والموسيقى المتسلّطة والصاخبة الّتي دوّت في الفراغ، في أركان الدرج الحديديّة. وراء بارٍ طويل وخالٍ كان نادلٌ شاحب يلبس سترة رسميّة، يُحضّر صينيّة مشروبات، ربّما بتأثير الضوء بدا لبيرالبو أنّ طبقة من المسحوق الزهريّ تغطّي وجنتَيه. رنّ جرس. اشتعل الضوء الأحمر فوق الباب الحديديّ. حاملاً الصينيّة بيدٍ واحدة، عبَر النادل الصالون وطرَق الباب. لحظةَ انفراج الباب انطفأ النور: تخيّل بيرالبو أنّه سمع ضجّة قهقهات وكؤوس اختلطت مع الموسيقى.

من باب آخر، أبْعد، خرج رجل وهو يشدّ سرواله مع شيءٍ من الوقاحة كمن يترك مبْولة. كان هناك بارٌ آخر، بعيد، مضاء كمُصلّيات الكاتدرائيّات البالغة العمق. كان يمكن تمييز نادلٍ آخر بسُترته الرسميّة وزَبون وحيد بدقّة الظلال المقطوعة بالبريستول الأسود. الرجل الّذي كان يزرّر سرواله وضع قبّعة منحرفة على عينَيه وأشعل سيجارة. خرجت امرأة وراءه تسوّي شعرها الأشقر بأصابعها، وواضعة في حقيبتها علبة مسحوقِ التجميل أو مرآة وهي تعضّ

شفتَيها. من البار الأقرب إلى درج الخروج، رآهما بيرالبو يمرّان قربه ويتحدّثان بصوت خافت مع همسة حرف السين وأحرُف صوتيّة برتغاليّة قاتمة. عندما دوّى كعب المرأة على الدرجات الحديديّة كان لا يزال يشمّ عطرًا قويًّا وسوقيًّا.

– هل أنت وحدك، يا سيّد؟ – كان النادل قد عاد مع الصينيّة الفارغة وهو ينظر إليه من دون أن يبتسم من خلف البار الرخاميّ. كان وجهه طويلاً جدًّا وشعرُه مسْبَلاً على جبينه. – لا سبب لأنْ تكون وحيدًا في البورما.

– شكرًا، قال بيرالبو. أنتظر أحدًا.

ابتسم له النادل بشفتَيه الشّديدتَي الاحمرار. لم يكن يصدّقه، طبعًا، ربّما كان يريد أن يشجّعه. طلب بيرالبو كأس دجِنْ وظلّ ينظر إلى البار المماثل في مؤخَّرة القاعة. النادل نفسه، السترة نفسها المفصَّلة كما في الأربعينيّات، الشِّرّيب نفسُه ذو الكتفين الهابطتَين واليدَين الجامدتَين قرب كأسه. شعر تقريبًا بالارتياح حين اكتشف أنّه لم يكن يشاهد مرآة لأنّ الآخر لم يكن يدخّن.

– هل تنتظر امرأة؟ – كان النادل يتكلّم إسبانيّة فعّالة واعتباطيّة.
– عندما تصل يمكنكما الذهاب إلى الحجرة 25. عندما ترنّ الجرسَ، أوصِل لكما الكؤوس.

– يعجبني هذا المكان، واسمُه، قال بيرالبو، مبتسمًا كالسكّير الوحيد والوفيّ. – أقْلقه تفكيره أن يقول الشرّيب الآخر الشيءَ نفسه للنادل الآخر. لكن أهمّ ميزة لِلدجِنْ الصِّرف والمثلَّج أنّه يهدُّك كلّيًّا

وسريعًا. بورما، لماذا يسمّى المكان بهذا؟

– هل سيّدي صحافيّ؟ كان النادل مرتابًا، وكأنّ بسْمته من زجاج.

– أنا أكتب كتابًا. – شعر بيرالبو بالسعادة لأنّه حين كان يكذب لم يكن يخبّئ حياته بل يخترعها. – «ليشبونة في الليل».

– ليس عليك أن تخبرني كلّ شيءٍ. هذا الأمر لن يعجب رؤسائي.

– لم أكن أريد أن أفعل. فقط بعض الإشارات، تعرف... هناك أشخاص يصِلون إلى مدينة ولا يعثرون على ما يبحثون عنه.

– هل يريد السيّد كأس دجِنْ أُخرى؟

– لقد صحّ ظنُّك. – بعد عدّة أيّام من عدم التكلّم مع أحد، شعر بيرالبو برغبة وقحة في التحدّث والكذب. – بورما. هل هو مفتوح منذ زمن بعيد؟

– سنة تقريبًا. قبل ذلك كان مخزن قهوة.

– أفْلس أصحابه، أعتقد. كان إذًا يسمّى هكذا من قبل؟

– لم يكن له اسمٌ يا سيّد. حصل شيءٌ. يبدو أنّ القهوة لم تكن تجارتهم الحقيقيّة. أتت الشرطة وطوّقت الحيّ بكامله. أخذوهم مكبّلين. نشرت الصحف المحاكمة.

– كانوا مهرّبين؟

– كانوا يتآمرون. – اتّكأ النادل على مَرفقيه قبالة بيرالبو واقترب كثيرًا من وجهه، متكلّمًا معه بصوت منخفض، بسرّيّة مسرحيّة.

- قصّة سياسيّة. «بورما» كانت جمعيّة سرّيّة. كان يوجد سلاح هنا...

رنّ جرسٌ واجتاز النادل الصالون متّجهًا، وكأنّه يقوم بخطوات رقص موزونة، نحو بابٍ كان قد اشتعل فيه الضوء الأحمر. الشرّيب الآخر انفصل ببطءٍ عن البار السُّفليّ واتّجه نحو باب الخروج متّبعًا خطًّا مستقيمًا مريبًا. على وجهه كانت تتوالى كالومَضات تدرُّجاتُ النور وشبه الظلمة. كان طويل القامة ولا شكّ سكرانًا، وكان مغرِقًا يدَيه في جيوب سترة ذات هيئة عسكريّة. لم يكن برتغاليًّا، ولا إسبانيًّا، ولا يبدو حتّى أوروبيًّا. كانت أسنانه كبيرة وذقنه محلوقة ومحمرّة. وجهه المسطّح وتقوُّس جبهته الغريب جعلاه يشبه إلى حدٍّ ما عظاءة. توقّف أمام بيرالبو، متأرجحًا على جزمته الكبيرة ذات البُكَل، مبتسمًا له بذهول مخدَّر، بالابتهاج البطيء لسكران. أمام نظرة تلك العينَين الزرقاوَين رجع بيرالبو بالذاكرة إلى أفضل أيّام الليدي بيرد، إلى الأقدم، إلى السعادة البريئة شبه المراهِقة لِكونِه حبيب لوكريثيا. «ألا تذكرني؟» قال له الآخر، فتعرَّف عندها على ضحْكته، ولكْنته الأنفيّة الكسول. «ألم تعُد تذكر بروس مالكولم؟»

الفصل الرابع عشر

– هكذا كنّا، قال بيرالبو، متقابلَين، نتبادل النظر بحذر، بودٍّ، كشخصَين تعارفا ولم يتمكّنا من عقد صداقة، ولم يتأخّرا أكثر من خمس دقائق ليتحيّرا في مَا يقولان. لكنّي كنتُ أكنّ له الودّ. عدّة سنوات وأنا أكرهه والآن كان يسرّني أن أكون معه متحدّثًا عن الماضي. ربّما كان الدجِنْ هو السبب. على كلّ حال عندما رأيته اختلج قلبي. كان يذكر سان سيباستيان، وفلورو بلوم وكلّ شيءٍ. فكّرت أن لا شيءَ يجمع رجُلين أكثر من حبّهما للمرأة نفسها. وأن يكونا قد خسراها. هو أيضًا خسر لوكريثيا...

– تكلّمتما عنها؟

– أعتقِد أنّنا فعلنا. بعد ثلاث كؤوس أو أربع من الدجِنْ، نظر إلى المكان وقال: «قد يعجب لوكريثيا. أكيد».

لكنّهما تأخَّرا في لفظ هذا الاسم، كانا يمَسّانه دائمًا مسًّا خفيفًا، يتوقّفان وهُما على وشكِ التفوُّه به، وكأنّهما أمام دائرة مفرَغة كانا يدّعيان عدم رؤيتها، ويتبادلان إخفاءها بالكحول والكلمات، بالأسئلة والأكاذيب حول الآونة الأخيرة واستنجادات الماضي الّذي لا تتجزّأُ أيّامه السامية، لأنّ المسافة الفارغة الّتي تأخّرا جدًّا في التجرّؤ على لفظها كانت تجمع بينهما كمؤامرة قديمة. كانا يطلبان المزيد من الدجِنْ، «ما قبل الأخير دائمًا» كما كان يقول مالكولم الّذي ما زال يذكر بعض المزحات الإسبانيّة، ويعودان إلى أحداث أبْعد، يتنافسان

حول تفاصيل أُنقذت من النسيان، إيضاحات عديمة الجدوى، أوّل مرّة تعارفا فيها، أوّل حفلة موسيقية لبيلي سوان في الليدي بيرد، كؤوس الدراي مارتيني صنْع فلورو بلوم، «علْم الكيمياء الصِّرف» قال مالكولم، قهوة القيينّا مع القشدة، تلك الحياة الهادئة في سان سيباستيان، بدا غير معقول أن تكون قد مرّت سنوات أربع، ماذا فعلا من وقتها: لا شيءَ، انحطاط، نضج خسيس، دهاء لتجنُّب المحنة، لكسب مال أكثر بقليل من بيع اللوحات أو البقاء على قيد الحياة من خلال عزف البيانو في أندية مدنٍ شديدة البرودة، وحدة، قال مالكولم وعيناه مضطربتان، loneliness، ضاغطًا على الكأس بأصابعه الّتي ظلَّلها زغبٌ أحمر، كأنّه أراد أن يسحقها. عندها شعر بيرالبو بالخوف والبرد، وبحزنٍ شبيه بالتنبّؤ بعواقب السُّكْر، وفكّر أنّ مالكولم ربّما كان يحتفظ بمسدّس، ذلك الّذي رأته لوكريثيا، الّذي غُرز مرّة في صدر رجلٍ كان يُخنق بخيط نيلون... لكن لا، مَن يصدّق تلك القصّة؟ مَن يمكنه أن يتصوّر أنّ القتَلة موجودون خارج الروايات أو الأخبار المحلّيّة، وأنّهم يجلسون معك في مستودع في ليشبونة ويشربون الدجِنْ ويسألونك عن أصحاب مشتركين: كانا وحيدَين بالدرجة نفسها وثمِلَين بالقدر نفسه تقريبًا، مأسورَين بنفس الجُبن والحنين، الفرق الوحيد الملموس هو أنّ مالكولم لم يكن يدخّن، وحتّى هذا الأمر كان يجعلهما متواطأين، لأنّ الاثنين تذكّرا الملبّسات الطبّيّة الّتي كان يحملها مالكولم معه دائمًا في تلك الفترة ويقدّمها للجميع، وأيضًا لبيرالبو الّذي رمى واحدة منها في إحدى

الليالي وداسَها عند باب الليدي بيرد، وقد سمّمه الحقد والغيرة. فجأة صمتَ مالكولم أمام كأسه الفارغة ونظر إلى بيرالبو من دون أن يرفع رأسه، رافعًا نظره فقط.

– لكنّي كنت أحسدك دومًا، – قال بنبرة صوت مختلفة وكأنّه حتّى تلك اللحظة كان يزعم أنّه سكران. – كنتُ أموت من الحسد عندما كنتَ تعزف على البيانو. كنت تنتهي من العزف، كنّا نصفّق لك، كنت تأتي إلى طاولتنا مبتسمًا، وكأسك في يدك، مع نظرة الاحتقار تلك، من دون أن تُعير أحدًا انتباهك.

– لم يكن ذلك إلاّ الخوف. كلّ شيءٍ كان يفزعني، العزف على البيانو، حتّى النظر إلى الناس. كنت أخشى أن يسخروا منّي.

– ... كنت أحسدك على الطريقة الّتي كانت تنظر بها النساءُ إليك. – تابع مالكولم الكلام من غير أن يسمعه. – لم يكنَّ يحظَينَ باهتمامك، حتّى لم تكن تراهنّ.

– لم أعتقد قطّ أنّهنّ كنّ يرَينني، قال بيرالبو. – تساءل إن كان مالكولم يكذب عليه، وإن كان يتكلّم عن شخصٍ آخر.

– حتّى لوكريثيا. أجل! هي أيضًا. – توقّفَ وكأنّه على وشك الكشف عن لغزٍ، شرب جرعة من الدجِنْ، ماسحًا فمه بيَده. – أنت لم تكن لتنتبه، لكنّي لم أنسَ كيف كانت تنظر إليك. كنت تصعد إلى المنصّة، تعزف بعض العلامات الموسيقيّة ولا شيءَ بعدها كان موجودًا بالنسبة إليها إلاّ موسيقاك. أذكر أنّي فكّرتُ مرّة: «بهذه الطريقة بالضبط يتمنّى الرجلُ أن تنظر إليه المرأة الّتي يحبّها». تركَتني، أنت

تعرف ذلك. حياة كاملة معًا وتركَتني مرميًا في برلين.

إنّه يكذب، فكّر بيرالبو وكأنّه يريد أن يحمي نفسه من فخّ غير مرئيٍّ، من هذَيان الكحول، إنّه يتظاهر بأنّه لم يعلم شيئًا بتاتًا ليتحقّق من أمر لا أعرف ما هو ولكنْ عليّ إخفاؤه، لطالما كذّب لأنّه لا يعرف إلّا الكذب، حنينه كذبٌ، والصداقة أيضًا، والألم، حتّى بريق زرقة عينيه المفرِطة الّتي لا تعبّر إلّا عن البرودة الخالصة، ولو كان أمرًا أكيدًا أنّه وحيد وضائع في ليشبونة، مثلي أنا، وحيد وضائع ويتذكّر لوكريثيا ويتحدّث معي لسببٍ بسيط هو أنّي أيضًا عرفتها. لذلك كان عليه أن يحترس وألاّ يتابع الشرب، أن يقول له إنّه ذاهب، أن يهرب بأسرع وقتٍ، حالًا. لكنّ رأسه كان ثقيلًا، وكانت تدوّخه الموسيقى وتغيُّر الأضواء، فسينتظر بضع دقائق بعد، كافية لتَناول كأسٍ أُخرى ...

– هناك سؤال لطالما شئت أن أطرحه عليك، قال مالكولم. – كان جدّيًا حتّى بدا وكأنّه لم يشرب، ربّما مزوَّدًا برصانة مَن هو على وشك السقوط أرضًا. – سؤال شخصيّ. – تصلّب بيرالبو، وندم على أنّه شرب إلى هذا الحدّ وأنّه لم يزل هناك. – لا تجاوبني إذا كنت لا تريد. لكن إن فعلت عِدني بأنّك ستقول الحقيقة.

– أعِدك، قال بيرالبو. ليدافع عن نفسه فكّر: «سيقولها الآن. الآن سوف يسألني إن كنت قد ضاجعت زوجته».

– هل كنتَ مغرمًا بلوكريثيا؟

– هذا لا يهمّ الآن. لقد مرّ وقت طويل، مالكولم.

- وعدتَني بالحقيقة.
- لكنّك قلتَ قبلاً إنّي لم أكن أنظر إلى النساء، ولا حتّى إليها.
- إليها، بلى. كنّا نذهب إلى الڤيينّا لتناوُل الفطور وكنّا نتلاقى وإيّاك. وفي الليدي بيرد، هل تذكر؟ كنت تنتهي من العزف وتجلس معنا. كنتما تتحدّثان كثيرًا، تفعلان ذلك لتتمكّنا من النظر في عيونكما، كنتما تعرفان جميع الكتب ورأيتما جميع الأفلام وكنتما تعرفان أسماء جميع الممثّلين وجميع الموسيقيّين، هل تذكر؟ كنتُ أسمعكما وكان يبدو لي دائمًا أنّكما تتحدّثان بلُغة لم يكن باستطاعتي فهمها. لذلك هجرَتني، من أجل الأفلام والكتب والأغاني. لا تنكر، أنت كنت مغرمًا بها. هل تعرف لماذا رحّلتُها من سان سيباستيان؟ سأقول لك. أنت على حقّ، لم يعد يهمّ. أبعدتُها كي لا تقع في غرامك. حتّى لو لم تتعارفا، ولو لم تكن قد رأيتَها ورأتك البتّة لكنتُ أحسستُ بالغيرة. وسأقول لك أكثر من ذلك: ما زلت أشعر بالغيرة.

كان بيرالبو يلاحظ بشكل غير واضح أنّهما لم يكونا وحدهما في مستودع بورما الكبير. كانت نساء شقرٌ ورجال يتخفّون خلف حركات تدخين السجائر، يصعدون أو يهبطون السلالم الحديديّة، وكانت الأضواء الحُمر لا تزال تشتعل فوق الأبواب المقفلة. شاعرًا كأنّه يعبُر صحراء، اجتاز طول غرفة الجلوس للوصول إلى الحمّامات. اعتقَد، ووجهُه قريب جدًّا من بلاط الحائط المتجلّد، أنّ وقتًا طويلًا قد مضى منذ أن انفصل عن مالكولم، وأنّه سيتأخّر أكثر للعودة إليه.

أراد الخروج لكنّه لم يتمكّن من فتح الباب، كان الصمت يُربكه، ويربكه تكرارُ أشكال الخزف الصينيّ الأبيض، المتضاعفة ببريق أنابيب النيون. انحنى ليغسل وجهه بالماء البارد على مغسلة كبيرة جدًّا كجُرن العمادة. كان هناك شخصٌ آخر في المرآة عندما فتح عينيه. فجأة أعادت له ذاكرته جميع الوجوه وكأنّما استعادها الدجِنْ أو ليشبونة، جميع الوجوه المنسيّة إلى الأبد والّتي خسرها إلى الأبد والّتي لم يعتقد قطّ أنّه سيعاود رؤيتها ثانية. ما جدوى الهروب من المدن إن كانت ستلاحقك إلى آخر العالم؟ كان في ليشبونة، في حمّامات بورما كلوب الخياليّة، لكنّ الوجه الّذي كان أمامه، خلفه، لأنّه عندما رأى المسدّس تأخّر قليلاً قبل أن يستدير، كان أيضًا ينتمي إلى الماضي وإلى الليدي بيرد: متبسّمًا بسعادة لا تنفد، كان توسين مورتون يصوّب نحو قفا عنقه. كان لا يزال يتكلّم كأسْود في الأفلام أو كممثّل رديءٍ يقلّد في المسرح اللهجة الفرنسيّة. كان أسمن، وشَعره أكثر رماديّة، لكنّه لم يزل يلبس القمصان نفسها ويستعمل نفس السِّوارات الذهبيّة، وتهذيبًا ثعبانيًّا هادئًا.

– يا صاحبي، قال. استدِر برفق، لكن لا ترفع يدَيك، أرجوك، إنّه لابتذال لا أتحمّله حتّى في السينما. يكفي أن تدع ذراعَيك بعيدًا عن جسدك. هكذا. اسمح لي بأن أفتّش جيوبك. هل تشعر بالبرد في قفا رقبتك؟ إنّه مسدّسي. لا شيء في السترة. عظيم. الآن يبقى فقط السروال. أفهمك، لا تنظر إليّ بهذه الطريقة، إنّ الأمر مزعج لي كما هو مزعج لك. هل تتصوّر أن يدخل أحد الآن؟ قد يعتقد الأسوأ

إذا رآني ملتصقًا بك بهذه الطريقة، في الحمّام. لكن لا تقلق، الصديق مالكولم يراقب الباب. هو طبعًا لا يستحقّ ثقتنا، كلّا، ولا ثقتَك، لكن يجب أن أعترف لك بأنّي لم أخاطر بتركهِ وحده. يكفي أن أفعل ذلك لكي تحلّ بنا مصيبة. لذلك فإنّ دافني الناعمة معه. دافني، ألا تذْكرها؟ سكرتيرتي. كانت ترغب في رؤيتك مجدَّدًا. لا شيءَ في السروال. الجوارب؟ البعض يحفظ بها سكّينًا. أنت لا. دافني قالت لي: «توسين، سانتياغو بيرالبو شابٌّ ممتاز. لا أستغربُ أن تكون لوكريثيا قد هجرت هذا الحيوان، مالكولم، من أجله». سنخرج الآن. لا يخطرَنّ ببالك أن تصرخ، ولا أن تركض كما حصل في المرّة الأخيرة حين تقابَلنا. هل تصدّقني إذا قلت لك إنّ تلك الضربة ما زالت توجعني؟ دافني على حقّ. وقعتُ بوضعيّة سيّئة. تعتقد أنّك إذا طلبت النجدة سيتّصل النادل بالشرطة. خطأ، يا صاحبي. لن يسمع أحدٌ شيئًا. هل لاحظتَ عدد المتاجر الّتي تبيع أجهزة للصُّمّ في هذه المدينة؟ افتح الباب. أنت أوّلًا من فضلك، هكذا، اليدان منفصلتان، انظُر إلى الأمام، ابتسِم. لقد تشعَّث شعرك. أنت شاحب. هل ضايقك الدجِنْ؟ مَن طلب إليك أن تتردّد إلى البارات برفقة مالكولم؟ ابتسِم لدافني. إنّها تحترمك أكثر ممّا تتصوّر. في خطّ مستقيم من فضلك. هل ترى ذلك النور في العمق؟

لم يكن خائفًا، فقط جيَشانٌ مكبوح في معدته، الندم لأنّه أفرط في الشرب، والشعور العنيد بأنّ هذه الأمور لا تحدث في الواقع. وراءه كان توسين مورتون يتحدّث بمرح مع مالكولم ودافني، واضعًا

يده اليمنى في جيب معطفه البنّي، وذراعه ملتَوية بعض الشيءِ وكأنّه يقلّد حركة راقص التانغو. عندما عبروا تحت الساعة الكبيرة المتدلّية من السقف، تلوَّنت وجوههم وأيديهم بالأخضر الباهت. رفع بيرالبو عينيه ورأى حول ميناء الساعة شعارًا مكتوبًا بشكل دائريٍّ:
.Um Oriente ao oriente do Oriente

طلب إليه توسين مورتون بلطف أن يتوقّف أمام أحد الأبواب الموصدة. كانت جميعها حديديّة مطليّة بالأسود أو الكحليّ، مثل الحيطان وخشب الأرض. فتحه مالكولم وتنحّى جانبًا كي يدع الآخرين يدخلون، مطواعًا جدًّا، مُنحني الرأس وكأنّه رسيلٌ في فندق.

كانت الغرفة صغيرة وضيّقة فاحت فيها رائحة الصابون الرخيص والعرَق البارد. وضِعت فيها أريكة، ومصباح، ونبتة من البلاستيك، ومطْهرة. كان الضوء زهريًّا، ذابت فيه خلفية موسيقية غير مجدية من الأورغ والغيتار. «ربّما سيقتلونني هنا» فكّر بيرالبو بلا اكتراث وبخيبة وهو ينظر إلى الورق الّذي كسا الجدران، وتنجيد الأريكة السلمونيّ اللون والمنقّط بالبُقع الطويلة وحروق السجائر. بالكدّ كان باستطاعة الأربعة التحرّك في مجال ضيّق هذا الضيق، كان تقريبًا كالسفر في عربة ميترو، شاعرًا على عموده الفقريّ بذلك الشيء القاسي والمتجلّد، متلقّيًا بِقفا رقبته أنفاس توسين مورتون الثقيلة. تفحّصَت دافني الأريكة بشكل صارم وجلست على الطرف تقريبًا وركبتاها مضمومتان. بحركة ذهاب وإياب أزاحت

عن وجهها شعرها البلاتيني، جمدت بعدها، مظهِرة جانبيّتها أمام بيرالبو، وهي تنظر إلى المطْهرة ذات الخزف الصينيّ الزهري.

– اجلس أنت أيضًا، أمره مالكولم. كان هو الآن من يحمل المسدّس.

– يا صاحبي، قال توسين مورتون، يجب عليك أن تعْذر فظاظة مالكولم، لقد شرب كثيرًا. ليس ذنبه كاملاً. لقد رآك واتّصل بي، طلبتُ إليه أن يلهيك قليلاً، ليس إلى هذا الحدّ طبعًا. هل تسمح بالقول إنّ لِلُهاثك أيضًا رائحة الدجِنْ؟

– الوقت متأخّر، قال مالكولم. ليس لدينا الليل بكامله.

– أكره هذه الموسيقى. – كان توسين مورتون ينظر إلى زوايا الغرفة باحثًا عن مكبّرات الصوت الخفيّة الّتي منها بدأت تُبثّ قطعة موسيقيّة كلاسيكيّة. – دافني، أَوقفيها!

كلّ شيءٍ صار أغرب عندما ران الصّمت. لم تكن الموسيقى في الخارج تخترق الجدران المنجَّدة. من جَيب معطفه الأعلى أخرج توسين مورتون راديو ورفع هوائيّه الطويل حتّى كاد يلامس السقف. متقطّعة بصفّارات، سُمعت أصوات برتغاليّة، إيطاليّة، إسبانيّة، كان توسين مورتون يستمع ويشتُم متحكّمًا في الراديو بأصابعه الهرَقْليّة. توقّف وابتسم عندما تمكّن من التقاط شيءٍ بدا كأنّه افتتاحيّة أوبرا. «الآن سيضربني» خمّن بيرالبو، «عاشق مدمن سينما، سيشغّل موسيقى صاخبة كي لا يسمع أحدٌ صراخي».

– أعشق روسّيني، قال توسين مورتون. ترياق عظيم ضدّ

ڤيردي وضدّ ڤاغنر.

وضع الراديو قرب حنفيّة المطْهرة وجلس على الحافة، وهو يعيد اللحن، مطبَق الفم. متضايقًا، وربّما شاعرًا بالذنب قليلاً أو منحطًّا من تأثير الكحول، كان مالكولم يرتكز على قدمٍ ثمّ على الأُخرى ويصوّب نحو بيرالبو محاوِلًا ألاّ ينظر إلى عينيه.

– يا صديقي العزيز، يا صديقي العزيز جدًّا. – ارتسمت على وجه توسين مورتون ابتسامة أبويّة. – كلّ هذا مزعج للغاية. بالنسبة إلينا أيضًا، صدِّقني. لذلك من الأفضل أن نفعل ما علينا فعله في أسرع وقت. سأطرح عليك ثلاثة أسئلة، تجاوبني عن أيّ منها وكلّنا ننسى الماضي. السؤال الأوّل: أين لوكريثيا الجميلة؟ السؤال الثاني: أين اللوحة؟ السؤال الثالث: إذا كانت اللوحة غير موجودة، فأين المال؟ أرجوك لا تنظر إليّ هكذا، لا تقل ما أنت على وشك أن تقوله. أنت نبيل، لقد عرفت ذلك منذ أن رأيتك أوّل مرّة، تظنّ أنّ عليك أن تكذب علينا، معتقدًا أنّك ستحمي لوكريثيا. هذا طبعًا ليس تصرُّف النبلاء أن تفشي أسرار سيّدة. اسمح لي بالقول إنّنا نعرف هذه اللعبة. لقد لعبناها منذ وقت طويل، في سان سيباستيان. هل تذكر؟

– منذ عدّة أعوام وأنا لا أعرف شيئًا عن لوكريثيا. – بدأ بيرالبو يشعر بملل مَن يجيب عن استجواب رسميّ.

– من الغريب إذًا أن تكون قد خرجتَ ذات ليلة من منزلها في سان سيباستيان، بطريقة سيّئة جدًّا، من دون شكّ. – لمس توسين مورتون كتفه اليسرى وكأنّه عاد يعاني ألمًا قديمًا. – من الغريب أن

تكونا قد بدأتما في اليوم التالي سفرة طويلة...

- هل هذا صحيح؟ وكأنّه استيقظ فجأة، رفع مالكولم المسدّس وللمرّة الأولى منذ دخلا الغرفة نظر إلى عينَي بيرالبو. كانت عينا دافني، المفتوحتان جدًّا والمحدِّقتان، تتحرّكان من جهة إلى أُخرى مع تشنّج طفيف كعينَي عصفور.

- مالكولم، قال توسين مورتون، أُفضّل، بعد تلك الأعوام الطويلة، ألاّ تختار هذه اللحظة لتفهم أنّك كنتَ آخر من يعلم: اِهدأ. اسمع روسّيني. La gazza ladra...

أطلق مالكولم شتيمة بالإنكليزية وقرّب المسدّس أكثر من وجه بيرالبو. كانا يتبادلان النظرات بصمتٍ كأنّهما وحيدان في الغرفة أو كأنّ واحدهما لا يسمع كلمات الآخر. لكن كان في عينَي مالكولم كرةٌ أقلّ من الذهول أو الخوف والرغبة في المعرفة.

- لذلك هجرَتني، قال. - لكنّه لم يكن يتكلّم مع بيرالبو، كان يردّد بصوت عالٍ ما لم يجرؤ قطّ على التفكير فيه. - لتأخذَ اللوحة وتبيعَها وتُنفقَ كلّ هذا المال معك...

- مليون ونصف مليون دولار، ربّما أكثر قليلاً، كما تعرف بلا شكّ. - كان توسين مورتون يقترب أيضًا من بيرالبو، خافضًا صوته. - لكن هناك مشكلة صغيرة يا صاحبي. هذا المال ملكُنا. نريده. هل تفهم؟ الآن!

- لا أعرف عن أيّ مالٍ ولا عن أيّ لوحة تكلِّمني. - رجع بيرالبو إلى الوراء في الأريكة كي لا تبلغ أنفاس مورتون وجهَه. كان

هادئًا، ولم يزل مخدَّرًا قليلاً من الدجِنْ، بعيدًا تمامًا تقريبًا عن نفسه، عن ذلك المكان، نافد الصبر. – ما أعرفه تمامًا هو أنّ لوكريثيا لم يكن لديها سنتٌ واحد، لا شيء. أعطيتُها مالي كي تتمكّن من مغادرة سان سيباستيان.

– كي تتمكّن من المجيءِ إلى ليشبونة، تعني. هل أنا مخطئ؟ عاشقان قديمان يتلاقيان مجدَّدًا ويبدأان معًا سَفرة طويلة...

– لم أسألها عن وجْهة ذهابها.

– لم تكن بحاجة إلى أن تفعل. – توقَّف توسين مورتون عن الابتسام. بدا فجأة وكأنّه لم يبتسم في حياته قطّ. – أعرف أنّكما ذهبتما معًا. حتّى إنّك كنت تقود السيّارة. هل تريد أن أذكر لك التاريخ المحدَّد؟ لا بدّ أن تكون دافني قد دوَّنَته في مفكّرتها.

– لوكريثيا كانت تهرب منكم. – منذ بعض الوقت كان بيرالبو يشعر برغبة جامحة في التدخين. سحب ببطءٍ السجائر والقدّاحة محدّقًا في نظرة مالكولم المراقِبة وأشعل سيجارةً. – أنا أيضًا أعرف بعض الأشياء. أعرف أنّها كانت تخشى أن تقتلوها كما قتلتم ذلك الرجل، البرتغالي.

كان توسين مورتون يسمعه وهو يقلّد بلا حياءٍ حركةَ مَن ينتظر بفارغ الصبر نهاية نكتة كي يبدأ الضحك، شارعًا في بسمةٍ ورافعًا كتفَيه قليلاً. أخيرًا أطلق قهقهة وضرب فخذَيه براحتَيه الكبيرتَين.

هل تريدنا حقًّا أن نصدّق ذلك؟ – نظر برَصانة إلى بيرالبو وإلى مالكولم وكأنّ عليه أن يوزّع عليهما كلّ شفقته. – هل تقول لي إنّ

لوكريثيا لم تخبرك شيئًا عن الخريطة الّتي سرقَتها منّا؟ إنّك لا تعرف شيئًا عن «بورما»...

– إنّه يكذب، قال مالكولم. دعه لي. أنا سأجعله يقول لنا الحقيقة.

– اهدأ مالكولم. – توسين مورتون جعله يتنحّى جانبًا، محرِّكًا بصَوت رنّان يدَه الّتي برقت فيها سواراته الذهبيّة. – أخشى أن يكون السيّد بيرالبو أقلّ غباء منك... قل لي، يا سيّد، – الآن كان يتكلّم كأولئك الشُّرَط المُفعمين بالصبر واللطف، بالرحمة تقريبًا – لوكريثيا كانت تخاف منّا. أنا أوافقك. هذا أمر يحزنني لكن باستطاعتي فهْمه. كانت تخاف وهربت لأنّها رأتنا نقتل رجلاً. الجنس البشري لم يخسر كثيرًا تلك الليلة، لكنّك قد تقول لي، على حقّ، إنّه ليس الوقت الموافق لدراسة هذه التفاصيل. وأيضًا أنا أوافق. أريد فقط أن أطرح عليك سؤالًا: لماذ لوكريثيا الجميلة، ما دامت مرتعبة هذا الرعب من الجريمة الّتي لم يكن عليها أن تشاهدها، لمْ تذهب فورًا إلى الشرطة؟ كان أمرًا سهلًا، كانت قد فرّت، وتعرف مكان الجثّة بالضبط. لكنّها لم تفعل... ألا تتصوّر لماذا؟

لم يقل بيرالبو شيئًا. كان عطِشًا وفي عينَيه حرقة، كان الجوّ مثقلًا بالدخان. كانت دافني تنظر إليه بشيءٍ من الاهتمام، كالنظر إلى من يسافر في المقعد المجاور. كان عليه أن يبقى حازمًا، حتّى من دون أن ترفّ عيناه، أن يتظاهر بأنّه كان يعرف ويخبّئ كلّ شيءٍ. تذكَّر رسالة من لوكريثيا، الأخيرة، ظرفًا وجده فارغًا عدّة أشهر بعد رحيله

النهائي من سان سيباستيان. «بورما»، كان يردّد بصمتٍ، «بورما»، وكأنّه تعويذة يجهل معناها، كلمة مقدّسة لا تُقرأ.

– بورما، قال توسين مورتون. إنّه لمؤلم ألاّ يبقى شيء محترمًا. يستأجر أحدهم هذا المحلّ ويعتدي على اسمه ويحوّله إلى بيت للدعارة. عندما رأينا اللافتة من الشارع قلت لدافني: «ماذا قد يفكّر المرحوم السيّد بيرناردو أولمان راميريز لو رفع رأسه؟» لكنّي أرى أنّك لا تعرف حتّى مَن كان السيّد بيرناردو. يجهل الشباب كلّ شيء ويريدون تخطّي كلّ شيء. قال لي ذلك السيّد بيرناردو نفسُه ذات مرّة، في زوريخ، ويبدو لي أنّي أراه كما أراك أنت. «مورتون» قال لي «بما يتعلّق برجال جيلي وطبقتي، لقد حانت نهاية العالم. لم يبقَ لنا عزاء سوى تجميع اللوحات الجميلة والكتب، والجَوب في مراكز الاستحمام العالميّة». كان عليك أن تسمع صوته، العظَمة الّتي كان يلفظ بها، على سبيل المثال، «أوزڤالد شپنغلير»، أو «آسيا»، أو «حضارة». كان يملك في أنغولا غابات كاملة ومزارع بُنٍّ أكبر من مساحة البرتغال، ويا له من قصر، يا صاحبي، في جزيرة، في وسط بحيرة. لم أره قطّ، لسوءِ حظّي، لكن كانوا يخبرون أنّه كلّه من الرخام مثل تاج محل. لم يكن السيّد بيرناردو أولمان راميريز ملاّك أراضٍ، كان على رأس مملكة عظيمة قائمة في الغابة، أظنّ أنّ هؤلاء الأشخاص الآن ربّما حوّلوها إلى مجمعٍ من ذوي الثياب البالية الّذين أهلكتهم الملاريا. السيّد بيرناردو كان يهوى Oriente، كان يهوى الفنّ الكبير، كان يريد أن تقارَن مجموعاته بأفضل مجموعات أوروپا.

«مورتون» كان يقول لي، «عندما أرى لوحة تعجبني، لا يهمّني كم من المال يجب عليّ دفعه لأحصل عليها». كان يهوى بشكل خاصّ اللوحات الفرنسية والخرائط القديمة، كان قادرًا على عبور نصف العالم ليتفحّص لوحة، وأنا كنت أبحث له عنها، ولم أكن الوحيد، كان لديه حوالى اثني عشر عميلًا يجولون في أوروبا باحثين عن لوحات وخرائط. سمِّ لي أحد الرسّامين الكبار، أيّ واحد منهم: كان السيّد بيرناردو أولمان راميريز يملك لوحة له أو رسمًا. كان يحبّ الأفيون أيضًا، لماذا أُخفي عنك، هذا لا يقلّل من عظمته. عمل خلال الحرب للإنكليز في جنوب شرق آسيا، ومن هناك تولّد مَيله إلى الأفيون، واقتنى مجموعة من الغلايين لم تكن لدى أحد في العالم مطلقًا. أذكر أنّه كان دائمًا يُنشد لي شعرًا في البرتغاليّة. أحد الأبيات كان يقول: «Um Oriente ao oriente do Oriente...» هل أُضجِرك؟ أعتذرُ، أنا عاطفيّ. أحتقِر حضارة لم يعُد يوجد فيها مكان لرجال كالسيّد بيرناردو أولمان راميريز. أعرف: أنت لا توافق على الإمبرياليّة. في هذا الأمر أيضًا أنتَ تشبه مالكولم. تنظر إلى لون بشرتي وتفكّر: «أعتقد أنّ توسين مورتون يكره الإمبراطوريّات الاستعماريّة». خطأ يا صاحبي. هل تعرف أين أكون لولا الإمبرياليّة، كما يقول مالكولم؟ أكيد ليس هنا، والأمر كان ليريحك. على رأس شجرة جوز هند، في أفريقيا، أقفز كالقرد. قد أقرع التامْ تامْ، أعتقد، وأضع أقنعة من لحاء الشجر... لن أعرف شيئًا عن روسّيني وسيزان، ولا تكلّمني عن الـ *Bon Sauvage، أرجوك!

*البرّي الطيّب

– دعه يكلّمنا عن سيزان، قال مالكولم. دعه يقول لنا ماذا فعل هو ولوكريثيا باللوحة.

– عزيزي مالكولم – كان توسين مورتون يبتسم بهدوءٍ بابَويّ – سيضيّعك نفاد صبرك في أحد الأيّام. لديّ فكرة، لنطوّع بيرالبو في جمعيّتنا الظريفة. لنعرض عليه صفقة. لنسلّم باحتمال ألّا تكون علاقاته التجاريّة بلوكريثيا الجميلة مُرضية بدرجة علاقاته العاطفيّة... هذا هو عرضي، يا صاحبي، الأفضل والأخير: أنت تساعدنا على استرجاع ما هو لنا ونحن نُشركك في توزيع الأرباح. هل تذكرين، دافني؟ لقد قدّمنا العرض نفسه إلى البرتغالي...

– لن يكون هناك صفقة، قال مالكولم. وخصوصًا وأنا هنا. يعتقد أنّه قادر على أن يغشّنا، توسين، كان يبتسم لنفسه وأنت تتكلّم. قل لنا أين اللوحة؟ أين المال؟ بيرالبو! قل أو أقتلك، فورًا.

كان يضغط بقوّة على مقبض المسدّس إلى حدّ أنّ مفاصل أصابعه قد ابيضّت وكانت يده ترتجف. ابتعدَت دافني ببطءٍ عن بيرالبو، وقفَت وزلقت ظهرَها على الحائط. «مالكولم» كان يقول توسين مورتون بصوت منخفض، «مالكولم»، لكن هذا الأخير لم يكن يسمعه ولا يراه، فقط كان ينظر إلى عَيني بيرالبو الهادئتين وكأنّه يرغمه على الخوف أو الخضوع، مؤكِّدًا بصمت، بالصلابة الّتي كان يمسك فيها المسدّس، بقاء حقد قديم، الغضب العبثيّ، المشترك تقريبًا من خسارة حقّ الذكريات وشرف الفشل.

– قم، قال، وعندما وقف بيرالبو وضع له المسدّس في قلب

صدره. عن كثَب كان كبيرًا جدًّا وفاحشًا كقطعة من حديد. – تكلّمِ الآن أو أقتلك.

روى لي بيرالبو بعدها أنّه تكلّم من غير أن يعرف ما كان يقول: في تلك اللحظة، جعله الرعب منيعًا من كلّ أذًى. قال:

– أطلقِ الرصاص يا مالكولم، ستُسدي لي خدمة.

– أين سمعتُ هذا من قبل؟ قال توسين مورتون، لكنّ صوته بدا لبيرالبو وكأنّه يرنّ في غرفة أخرى، لأنّه كان يرى أمامه حدقتَي مالكولم فقط.

– في «كازابلانكا»، قالت دافني، بدقّة ولامبالاة. بوغارت يقول ذلك لإنغريد بيرغمان.

عند سماع ذلك حصل تغيُّر في وجه مالكولم. نظر إلى دافني، نسي أنّه كان يمسك المسدّس بيده، الغضب الحقيقيّ والقساوة الحقيقيّة قلّصا فمه وصغّرا عينَيه عندما عاد ليحدّق في بيرالبو وانقضّ عليه.

– أفلام، قال. – لكنّه كان من الصعب فهْم كلماته. – هذا كان الشيء الوحيد الّذي يهمّكما، أليس كذلك؟ كنتما تحتقران مَن لا يعرفها، تتكلّمان عنها وعن كتبكما وأغانيكما، ولكنّي كنت أعرف أنّكما كنتما تتكلّمان عن نفسِكما، لم يكن يهمّكما أحد أو شيْء، الواقع كان فقيرًا جدًّا بالنسبة إليكما، أليس كذلك...؟

رأى بيرالبو جسد مالكولم الضخم والطويل يقترب منه وكأنّه على وشك أن يسقط عليه، رأى عينَيه قريبتَين قربًا أظْهرهما غير

حقيقيّتَين، ارتطم بالأريكة وهو يتراجع، ومالكولم ظلّ يقترب كجرف ثلجيّ، ركله بيرالو في بطنه وتنحّى جانبًا ليتجنّب سقوطه عليه، عندها كانت أمامه اليد الّتي ما زالت تحمل المسدّس، ضربها أو عضّها وأظلمت الدُّنيا في عينيه، عندما فتحهما ثانية كان المسدّس في يده اليمنى. وقف وهو يقبض عليه، لكنّ مالكولم كان لا يزال منطَويًا على بطنه، راكعًا، ووجهه على الأريكة، ودافني وتوسين مورتون ينظران إليه وهما يتراجعان، «اهدأ» كان مورتون يتمتم «اهدأ يا صاحبي» لكنّه لم يكن يتمكّن من الابتسام، محدِّقًا إلى المسدّس المصوّب الآن نحوه، ومشى بيرالبو بضع خطى إلى الوراء متفحّصًا الباب باحثًا عن المزلاج، لكنّه لم يجده، أدار مالكولم وجهه نحوه وابتدأ بالوقوف ببطءٍ، أخيرًا انفتح الباب وخرج بيرالبو القَهقرى، متذكّرًا أنّ أبطال الأفلام يخرجون بهذه الطريقة، صفَق الباب وأخذ يركض نحو السلالم الحديديّة، وفقط حين كان يعبُر شبه ظلمة البار الزهريّة حيث كانت النساء الشُّقر يشربن انتبهَ إلى أنّه كان لا يزال يحمل المسدّس بيده وأنّ عدّة أزواج متتالية من العيون كانت تنظر إليه بدهشة ورعب.

الفصل الخامس عشر

خرج إلى الشارع، وعندما صافح وجهه فجأة هواء الليل الرطيب عرف لماذا لم يكن يشعر بالخوف: إذا كان قد خسر لوكريثيا فلا شيء يهمّه. حفظ المسدّس الثقيل في أحد جيوب معطفه ولم يركض خلال بعض الثواني، يهدّئه كسل غريب مشابه للّذي يشلّنا في الأحلام أحيانًا. فوق رأسه كانت لافتة البورما كلوب تنطفئ وتضاء بفواصل قصيرة، مضيئة حائطًا عاليًا جدًّا ذا شرفات خالية. أخذ يسير بسرعة، واضعًا يديه في معطفه، وكأنّه سيصل متأخّرًا إلى أحد الأمكنة، لم يكن يستطيع الركض، لأنّ حشدًا مشابهًا لحشد مرفأ آسيوي كان يزحم الشارع، وجوه زرقٌ وخضرٌ تحت لافتات النيون، نساء وحيدات وغامضات، مجموعات من السود يتحرّكون وكأنّهم يطيعون إيقاعًا هم وحدهم يسمعونه، زُمَر من الرجال ذوي الوجنات المحمرّة والملامح الشرقيّة بدَوا متجمّعين هناك بسبب حنين مضطرب إلى المدن الّتي كانت أسماؤها تلمع فوق الشارع، شانغهاي، هونغ كونغ، غوا، جاكارتا.

كان يشعر بالسكون المميت لمن يعرف أنّه يغرق وكان يستدير لينظر إلى لافتة البورما الّتي ما زالت قريبة وكأنّه لم يبرح مكانه. كان يشعر بكلّ لحظة تتحوّل إلى دقيقة طويلة طويلة، ينظر إلى الوجوه الّتي لا تحصى باحثًا بينها عن وجه مالكولم ووجه توسين مورتون ووجه دافني، حتّى وجه لوكريثيا، وهو يعلم أنّه من الضروريّ أن

يركض ولكن تعوزه الإرادة ليفعل، كمنْ يعرف أنّ عليه النهوض ويسمح لنفسه بهدنة وعندما يفتح عينيه مجدَّدًا يعتقد أنّه نام وقتًا طويلاً، في حين لم تمرَّ ولو دقيقة واحدة، ويقرّر مجدَّدًا أن ينهض. كان المسدّس ثقيلاً جدًّا، قال لي، كان محاطًا بالكثير من الوجوه والأجساد، إلى حدّ أنّ العبور بينها كان يشبه التقدُّم في أدغال لا تحصى في غابة استوائيّة. عندها استدار ورأى مالكولم في نفس اللحظة الّتي اكتشفَته عيناه الزرقاوان والبعيدتان، لكنّ مالكولم كان يقترب بالبطءِ نفسه، وكأنّه يسبح عكس تيّار قويّ عرقلته الأدغال، أطول من الآخرين، محدِّقًا في بيرالبو كما في الضفّة الّتي كان يبغي الوصول إليها، ما جعلهما يتقدّمان ببطءٍ أكثر لأنّهما لم يكفّا عن تبادل النظرات والاصطدام بأجساد لا يريانها وكانت تغمرهما أحيانًا، حائلة دون رؤية أحدهما للآخر. لكنّهما كانا ينكشفان مجدَّدًا والشارع لا ينتهي أبدًا، كان يزداد عتَمة وتقلّ فيه الوجوه وأضواءُ الأندية. فجأة رأى بيرالبو مالكولم، هادئًا، وحيدًا في وسط شارع مقفر، متوقّفًا أمام ظلِّه، متباعد الساقَين، عندها ركض فعلاً فأخذت الأزقّة تنفتح أمامه انفتاح الطريق أمام مصابيح سيّارة. كان يسمع وراءه تضاعُف خطى مالكولم، وحتّى لُهاثه، بعيدًا جدًّا وقريبًا جدًّا، كتهديد أو شكوى في صمْت ساحات مُنارة وخاوية، ساحات فسيحة ذات أعمدة، شوارع مليئة بالنوافذ الكبيرة المتراصفة حيث كانت دعساته ودعسات مالكولم تدوّي بإيقاع متناغم، وكلّما خنقه التعب ازداد تفتُّت إدراكه للزمان والمكان، كان في ليشبونة

وفي سان سيباستيان، كان يهرب من مالكولم كما هرب في ليلة مماثلة من توسين مورتون، لم تتوقّف بتاتًا هذه الملاحقة في مدينة مزدوجة كان نسيجُها يتواطأ كي يتحوّل إلى متاهة، فمطاردة.

هنا أيضًا كانت الشوارع تصبح فجأة متماثلة وهندسية الشكل، متروكة جزئيًّا للّيل، لمحات لساحات خالية ومضاءة أكثر، كان يُسمع منها ضجيج خفيف وواضح لمدينة مسكونة. كان يركض نحو الأضواء كما نحو سراب لا ينفكّ يبتعد. سمع خلفه ضجّة تراموای بطيئة محت خطى مالكولم ورآه يمرّ إلى جانبه عاليًا وأصفر وفارغًا كسفينة منساقة مع الريح ويتوقّف أبعد بقليل، ربّما يمكنه الوصول إليه، نزل أحدهم منه وتأخّر الترامواي قليلاً قبل أن يتحرّك ثانية، كان بيرالبو قد حاذاه تقريبًا حين أقلع ببطءٍ مترجّحًا وهو يبتعد. كمن ينظر في محطّة إلى القطار الّذي فاته، بقي بيرالبو بلا حراك فاغرًا فاهُ وعينَيه، ماسحًا العرقَ عن وجهه واللُّعابَ عن شفتَيه، ناسيًا مالكولم ولزومَ الهرب، ورغم أنّ إدارته لرأسه كانت تتطلّب جهدًا عظيمًا استدار ببطءٍ ورأى أنّ مالكولم كان أيضًا واقفًا على بعد بضعة أمتار منه، على حافّة الرصيف المقابلة، وكأنّه على حافّة مبنى وهو على وشك أن يسقط عنه، يلهث ويسعل كاشفًا شعره المحمرَّ عن وجهه. لمس في جيبه مقبض المسدّس وهلوسةٌ سريعة جعلته يرى نفسَه مصوِّبًا نحو مالكولم، يسمع تقريبًا الطلقة ووقوعَ الجسد بصمتٍ على السكّة، قد يكون في منتهى السهولة كإغماض عينَيه وعدم الحراك أبدًا بعد الآن والموت، لكنّ مالكولم كان قد بدأ يسير نحوه

وكأنّه يغرق مع كلّ خطوة في أرض رمليّة. ركض مجدَّدًا، لكنّه لم يعد يتحمّل، رأى إلى يساره مدخل شارع دامس، سلّمًا خارجيًّا، برجًا نحيلاً أعلى من سطوح البيوت، وحيدًا بكلّ سخافة ومرفوعًا بينها، مع نوافذ غوطيّة وزخارف من الحديد، ركض نحو نورٍ وبابٍ نصف مفتوح حيث كان رجلٌ، جابٍ يحمل في حزامه محفظة مليئة بالنقود أعطاه تذكرة. «خمس وعشرون إسكودو»، قال له، ودفعه إلى الداخل، أقفل بتمهُّل جسمًا من المشبَّك الصدئ وأدار قبضة مدوَّرة من النحاس، وبدأ ذلك المكان، الّذي لم يكن بيرالبو قد نظر إليه بعد، يهتزّ ويطقطق كقفص باخرة، ويرتفع، كان هناك وجهٌ خلف الشّبك، ويَدان متعلّقتان به تهزّانه، مالكولم، الّذي راح يغرق في السرداب، واختفى نهائيًّا بينما لم يكن بيرالبو قد فهِم بعد أنّه كان في مصعد ولم يكن عليه أن يتابع الركض.

كان الجابي، وامرأة على رأسها منديل، ورجُلٌ ابيضَّ عِذاراه في معطف مطرٍ جافٍّ، ينظرون إليه بلَومٍ يقِظ. كان وجه المرأة عريضًا جدًّا وكانت تمضغ سيجارة، متفحّصةً ببطءٍ منظَّم حذاء بيرالبو الملطَّخ بالوحل، وأذيال قميصه، ووجهه المتعرّق المحتقن، ويده اليمنى الّتي لا تزال مختفية في جيب معطفه. في الجهة الأُخرى للنوافذ الغوطيّة، كانت المدينة تكبر وتبتعد مع ارتفاع المصعد: ساحاتٌ بيضٌ كبحَيرات من نور، لافتات رقيقة مضاءة على السطوح قبالة عتمة مصبّ النهر المتكهّنة، مَبانٍ متراكبة على هضبة توَّجها قصرٌ أضاءته الكشّافات فسطع.

عندما توقَّف المصعد، سأل أين كانوا: في المدينة العالية أجابه الجابي. خرج إلى معبر حيث عصف هواء البحر البارد كما على ظهر مَركب. سلالم خارجيّة وجدران منازل مهجورة كانت تنحدر عموديًّا نحو الشوارع العميقة حيث كان مالكولم ربّما ما زال يتمشّى. إلى جانب برج كنيسة مهدّمة كان هناك سيّارة أجرة بدت له في منتهى الغرابة وبلا حراك تمامًا كتلك الحشرات الّتي تفاجئها عندما تضيءُ النور. طلب إلى السائق أن يوصله إلى المحطّة. كان ينظر من الزجاج الخلفيّ باحثًا عن أضواء سيّارة أُخرى، مراقِبًا الوجوه في الزوايا المعتمة. ثمّ طرحه التعب على ظهر المقعد القاسي وتمنّى أن تطول كثيرًا رحْلته في سيّارة الأجرة. كان يغرق في المدينة، وعَيناه نصف مفتوحتَين، كما قد يفعل في منظر تحت البحر، متعرّفًا على أمكنة، تماثيل، لافتاتِ محلاّت قديمة أو مخازن، بهو فندقه الّذي بدا له أنّه خرج منه منذ وقت طويل.

ليشبونة كلّها، قال لي، حتّى المحطّات، هي متاهة من السلالم الّتي لا تصل أبدًا إلى الأمكنة الأكثر علوًّا، ودائمًا يبقى لمن يصعد، قبّة أو برجٌ أو صفٌّ من المنازل الصُّفر الّتي لا يمكن الوصول إليها. عن طريق سلالم آليّة وممرّات ذات مراحيض وسخة صعد إلى الرصيف حيث كان يُقلع القطار الّذي اعتاد أن يركبه كلّ صباح لزيارة بيلي سوان.

في مناسبتَين، خشي أن يكونوا ما زالوا يلاحقونه، كان ينظر خلفه، وكلّ نظرة كانت تعني له نظرة عدوٍّ متخفٍّ. في مقصف

المحطّة الأخيرة انتظر خلوَّ الرصيف وشربَ كأسًا من الكحول. كان يخشى أيضًا نظرات المراجِعين والنُّدُل، متكهّنًا فيها وفي الكلمات الّتي كان يسمعها خلفه والّتي لم يكن يتمكّن من فهمها، بدلائل مؤامرة ربّما لم يكن يعرف كيف ينجو منها. كانوا ينظرون إليه، لعلّهم عرفوه، أو شكّوا في وضعه كفارٍّ وغريب. في مرآة مرحاض أخافه وجهه: كان مشعَّث الشعر وشاحبًا جدًّا وكانت ربطة عنقه المفكوكة تتدلّى من رقبته كحبْل مشنقة، لكن ما أخافه أكثر غرابةُ تلك العيون الّتي لم تعد تنظر إليه كما كانت تفعل قبل ساعات، كانت تبدو مشفقة عليه وفي الوقت نفسه تتنبّأ له بالإدانة. «هذا أنا» قال بصوت مرتفع وهو ينظر إلى الشفاه الصامتة الّتي كانت تتحرّك في المرآة، «أنا سانتياغو بيرالبو».

إنّما الأشياء، الأمكنة المعتمة، أبراج القصر المخروطيّة المحاطة بسطوح تعلوها أعمدة من الدخان، الطريق في الغابة، كانت تحافظ على هويّة هادئة وغامضة أكَّدها سرُّ الليل. في مدخل المصحّ كان رجل يحمّل أكياسًا وحقائب في سيّارة كبيرة، سيّارة أجرة لمّاعة لم تكن تشبه سائر سيّارات الأجرة القديمة في ليشبونة. «أوسكار» قال بيرالبو: استدار الرجل نحوه لأنّه لم يعرفه في العتمة، أسند برفقٍ الكونترباص إلى المقعد الخلفيّ، عندها رآه وابتسم له وهو يمسح جبينه بمنديل أبيض بياض ابتسامته في شبه العتمة.

– إنّنا ذاهبان، قال. هذه الليلة. بيلي قرّر أنّه تحسَّن. كان سيتّصل بك في الفندق. تعرفه، يريدنا أن نبدأ التمرين غدًا.

– أين هو؟

– في الداخل. يودّع الراهبة. أخشى أن يُصرّ على إهدائها قنّينة الويسكي الأخيرة.

– أصحيحٌ أنّه لم يعد يشرب؟

– عصير البرتقال. يقول إنّه ميتٌ. «الأموات تمتنع عن شرب الخمر، أوسكار». هذا ما يقوله لي. يدخّن كثيرًا ويشرب عصير البرتقال.

أدار أوسكار ظهره بشيءٍ من الخشونة وتابع ترتيب الكونترباص والحقائب داخل سيّارة الأجرة. عندما خرج منها، كان بيرالبو متّكئًا على باب السيّارة المفتوح، ينظر إليه.

– أوسكار، عليّ أن أطرح عليك سؤالًا.

– طبعًا. تبدو على وجهك هيئة الشرطيّ.

– مَن دفع حساب المصحّ؟ هذا الصباح رأيت فاتورة. إنّها باهظة.

– اسأله. – من دون أن ينظر إلى بيرالبو القريب جدًّا منه، ابتعَد أوسكار وهو يجفّف بالمنديل عرق يديه. – انظر، ها هو آتٍ.

– أوسكار. – وقف بيرالبو أمامه وأجبره على التوقّف. – أمَرك بأن تكذب عليّ، ألَيس صحيحًا؟ منَعك أن تقول لي إنّ لوكريثيا كانت قد أتت...

– ماذا يحدث هنا؟ – طويل ونحيل، ملتفٌّ بمعطفه، وجناح قبّعته على حدود نظّارته، وبين شفتيه سيجارة، وغلاف البوق في

يده، كان بيلي سوان يسير نحوهما بعكس الضوءِ. – أوسكار، اذهب وقل لسائق سيّارة الأجرة إنّ بإمكاننا أن نذهب الآن.

– حالاً، بيلي. – أطاع أوسكار متنفِّسًا الصُّعَداء كمَن أفْلت من عِقاب. كان يعامل بيلي باحترام مقدَّس لم أفرّقه أحيانًا عن الخوف.

– بيلي، قال بيرالبو. – وشعر بصوته يرتجف مثلما يرتجف بعد أن يكون قد شرب كثيرًا أو بعد ليلة بِطولها من غير نوم. – قل لي أين هي.

– تتراءى لي مريضًا، يا شابّ. – كان بيلي سوان شديد القرب منه، لكنّ بيرالبو لم يكن يرى عينيه، بل بريق زجاج نظّارته فقط. – هيئتك أشبه بالميت من هيئتي. ألا يُفرحك أن تراني؟ سوان العجوز عاد إلى مملكة الأحياء.

– إنّي أسألك عن لوكريثيا، بيلي. قل أين يمكنني أن أجدها. إنّها في خطر.

أراد بيلي سوان أن يُبعده كي يدخل سيّارة الأجرة ، لكنّ بيرالبو لم يتزحزح. كان الظلام دامسًا حتّى لم يكن ليتمكّن من رؤية التعابير على وجهه، ما جعله أكثر إبهامًا، فجوة شبه مظلمة شاحبة تحت جنح القبّعة. لكنّ بيلي سوان كان يراه: نور البهو يضيءُ وجهه. ترك غلاف البوق على الأرض، رمى سيجارته بعد أن أخذ نفَسًا صغيرًا أظْهر خطَّ شفتيه القاسي، خلع قفّازَيه ببطءٍ، لاويًا أصابعه وكأنّ فيها دبيب نُمال.

– يجب أن ترى وجهك الآن، يا شابّ. أنت مَن هو في

خطر.

– ليس أمامي الليلة بكاملها، بيلي. عليّ أن أجدها قبلهم. يريدون قتلها. كانوا على وشك أن يقتلوني أنا.

سمع بابًا يُقفل ثمّ أصواتًا وخُطًى على حصباء الطريق. كان أوسكار وسائق سيّارة الأجرة يتوجّهان نحوهما.

– تعال معنا، قال بيلي سوان. سنوصلك إلى فندقك.

– تعرف أنّي لن أذهب، بيلي. – كان السائق قد أدار المحرّك، لكنّ بيرالبو لم يكن ليبتعد عن الباب الأماميّ. كان يشعر بالبرد وبعض الحرارة، وبالعجَلة والدُّوار. – قل لي أين لوكريثيا.

– حين تشاء، بيلي. – كان أوسكار قد أطلّ برأسه الكبير والمتجعّد من النافذة وهو ينظر بريبة إلى بيرالبو.

– هذه المرأة لا تصلح لك، يا شابّ، قال بيلي سوان، مبعِدًا إيّاه بحركة قاطعة. – فتح باب السيّارة ووضع غلاف البوق على المقعد الأماميّ وأمر السائق بألاّ يستعجل كثيرًا. قال هذا بالإنكليزيّة لكنّ المحرّك توقّف. – ربّما ليست غلطتها. ربّما هو شيءٌ فيك لا علاقة له بها وهو ما يقودك إلى تدمير نفسك. شيءٌ مشابِه للويسكي أو الهيروين. أعرف عمّا أكلّمك وأنت تعرف أنّي أعرف. يكفي أن أنظر الآن إلى عينيك. تشبهان عينيّ حين أمكث أُسبوعًا حبيسًا مع صندوق من القناني. اصعد إلى سيّارة الأجرة. احبس نفسك في فندقك. سنعزف في الثاني عشر ثمّ ننصرف من هنا. ما إن تصعد إلى الطائرة حتّى تشعر وكأنّك لم تكن قطّ في ليشبونة.

– أنت لا تفهم بيلي، الأمر لا يتعلّق بي، إنّما بها. سيقتلونها إذا وجدوها.

من دون أن يخلع القبّعة، جلس بيلي سوان داخل سيّارة الأجرة، واضعًا على ركبتَيه غلاف البوق الأسود. لم يُقفل الباب. وكأنّه يريد أن يستغلّ الوقت، أشعلَ سيجارة ونفث الدخان نحو بيرالبو.

– تعتقد أنّك أنت مَن كان يبحث عنها، وأنّك رأيتها ذلك اليوم مصادفة في ذلك القطار. لكنّها بحثَت عنك مرّات أُخرى ولم أُرد أنا أن تعرف شيئًا. منعتُها من رؤيتك. أطاعتني لأنّها تخشاني، مثل أوسكار. تذكر ذلك المسرح في ستوكهولم حيث عزفنا قبل أن نذهب إلى أمريكا؟ كانت هناك بين الجمهور، كانت قد سافرت من ليشبونة لرؤيتنا. أعني لتراك أنت. وبعدها بقليل، في هامبورغ، خرجَت من حُجرتي قبل خمس دقائق من وصولك أنت. كانت هي مَن أتت بي إلى هنا ودفعَت مسبقًا للأطبّاء. الآن لديها مالٌ كثير. تعيش وحدها. أعتقد أنّها في هذا الوقت بالذّات تكون بانتظارك. شرحَت لي كيف الوصول إلى منزلها. من تلك المحطّة هناك في الأسفل يقلع قطار نحو الساحل كلّ عشرين دقيقة. انزل منه في المحطّة ما قبل الأخيرة، حين ترى منارة. يجب أن تتركها وراءك وتسير زهاء نصْف ميل، البحر دائمًا إلى يسارك. قالت لي إنّ للمنزل برجًا وحديقة مسوَّرة. بالقرب من الشبك هناك اسمٌ بالبرتغاليّة لا تسألني ما هو لأنّي لا أستطيع أن أتذكّر ولو كلمة واحدة في هذه اللغة. بيت الذئاب أو شيءٌ من هذا القبيل.

– Quinta dos Lobos، قال أوسكار في العتمة. بلى أنا أتذكّر.

أغلق بيلي سوان باب سيّارة الأجرة وتابعَ النظر ببرودة إلى بيرالبو وهو يرفع زجاج النافذة. وفي لحظة، عندما كان السائق يهمّ بسلوك الدرب بين الأشجار، أنار وجهَ بيلي سوان مصباحُ أحد الأعمدة. كان وجهه نحيفًا ومتصلّبًا، ومجهولًا إلى حدّ أنّ الرجل الّذي لم يتبيّن بيرالبو ملامحَه عندما كان يستمع إليه قد بدا دجّالاً.

الفصل السادس عشر

أذكره وهو يكلّمني ساعات متتالية في غرفة فندقه، الليلة الأخيرة، وقد سمّمه الدخان والكلمات، متوقّفًا ليشعل سيجارة، ليشرب بجرعات قصيرة من كأس بالكدّ بقي فيها بعض الثلج، ممسوسًا من غير علاج – وقد تأخّر الوقت، الثالثة أو الرابعة صباحًا – بالأمكنة والأسماء الّتي بدأ استنجادها بكلّ برودة، مصمّمًا على متابعة الكلام حتّى انتهاء الليل، ليس هذه الليلة المقبلة في مدريد فحسْب والّتي كنّا الآن نتشاطرها، بل الأُخرى أيضًا، تلك الّتي عادت في كلماته لتستولي عليه وعليّ كخصم مقنّع. لم يكن يخبرني قصّة، كانت قد تمسّكت به غدرًا كما كانت تتمسّك به الموسيقى في بعض الأحيان، من غير أن تُفسح له المجال لالتقاط أنفاسه، ولا للسكوت واتّخاذ قرار. لكن لا شيء من هذا كان يتجلّى في صوته البطيءِ والهادئ ولا في عينيه اللتَين توقّفتا عن النظر إليّ، واللتَين كانتا تحدّقان وهو يتكلّم في جمرة السيجارة أو ثلج الكأس أو ستائر الشرفة المسدَلة الّتي كنت أفتحها نصف فتحة من حين إلى آخر لأتحقّق من غير انشراح أن لا أحد كان يتجسّس علينا من الرصيف المقابل للشارع. كان يتكلّم وكأنّ الأمر يتعلّق بشخص آخر، بنبرة هادئة ودقيقة كمن يُدلي بإفادة: ومن الممكن أنّه لم يُرد أن يتوقّف إلّا في النهاية لأنّه كان يعرف أنّه لن يرى واحدنا الآخر بعد الآن.

– عندها، قال لي، عندما عرفت أين لوكريثيا، عندما مضت

سيّارة أجرة بيلي سوان وبقيت وحدي في طريق الغابة، أصبح كلّ شيءٍ كما كان دومًا، كما حين كنت في سان سيباستيان وكنت على موعد معها وكان يبدو لي أنّ الساعات أو الدقائق المتبقّية أمامي كي أراها ستكون أطول من حياتي وأنّ البار أو الفندق حيث كانت تنتظرني كان في المقلب الآخر من العالم. والخوف نفسه أيضًا من أن تكون قد ذهبت وألاّ أتمكّن من إيجادها. في البدء، في سان سيباستيان، عندما كنت أذهب للبحث عنها، كنت أنظر إلى جميع سيّارات الأجرة الّتي أُصادفها خاشيًا أن تكون لوكريثيا في إحداها...

فهِم أنّ النسيان كان أُكذوبة وأنّ الحقيقة الوحيدة الّتي طردها بنفسه من وعيه منذ أن هجر سان سيباستيان، كانت قد التجأت إلى أحلامه حيث لا تستطيع الإرادة والحقد الوصول إليها، في أحلام كانت تقدِّم له وجه لوكريثيا القديم وحنينها الثابت كما عرفهما قبل خمس سنوات أو ستٍّ، حين لم يكن أيّ منهما قد فقدَ بعدُ الجرأة والحقّ في الرغبة والبراءة. في ستوكهولم، نيويورك، باريس، في فنادق غريبة حيث كان يستيقظ، بعد مرور أسابيع كاملة من دون أن يكون قد تذكَّر لوكريثيا، متحمّسًا أو راضيًا بسبب وجودٍ عابرٍ لنساءٍ أُخَر، تذكَّر أحلامًا وفقدَها، أحلامًا كان فيها ألمٌ دافئ ينير السعادة الكاملة لأفضَل الأيّام الّتي عاشها معها ويؤجِّج الألوان، الباهتة الآن، الّتي حينها فقط تمتَّع بها العالم. كما في تلك الأحلام، كان الآن يبحث عنها ويستشعرها من غير أن يراها، في مشهد ليليّ من الأشجار

والهضاب كان يأخذه بسرعة نحو البحر. كان يتطلّع إلى كلّ الأضواء خاشيًا ألّا يرى ضوء المصباح في الوقت المحدَّد كي ينزل من القطار. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ولم يكن هناك أيّ مسافر آخر في عربة بيرالبو. قال له المفتّش: أمامك عشر دقائق قبل المحطّة ما قبل الأخيرة. من خلال نافذة بيضويّة الشكل كان يرى قضبان الحديد في أقصى العربة المجاورة تتحرّك، حيث بدا أيضًا أن لا أحد كان مسافرًا. نظر إلى ساعته ولم يستطع احتساب الدقائق الّتي كانت قد مرّت منذ أن تكلَّم مع المفتّش. كان على وشك أن يرتدي المعطف عندما رأى وجه مالكولم عبر النافذة البيضيّة في أقصى العربة، ينظر إليه، ملتصقًا بالزجاج.

نهض، كانت عضلاته متورّمة وتؤلمه رُكبتاه. كان القطار مسرعًا سرعة تُعجزه تقريبًا عن الصمود واقفًا، ومالكولم أيضًا، الّذي حفظ اتّزانه بالبقاء ثابتًا مُباعدًا ما بين رجْلَيه، بينما كان باب العربة يتأرجح وينصفق أمامه مدفوعًا بهواءٍ مفاجئ وبارد وصلٍ إلى بيرالبو حاملاً معه الصوتَ الرتيب لعجلات القطار على السكّة وقرقعةَ الخشب ومفاصل معدنيّة بدت كأنّها تتفكّك على المنعطفات. هرب في الممرّ، ماسكًا بكِلتا يديه بظهور المقاعد، أراد فتْح باب العربة الآخر فاستحال عليه وكان مالكولم قد اقترب إلى حدّ أنّه كان يستطيع تمييز بَريق عينيه الزرقاوَين. بسخافة وعِناد أصرّ على هزّ الباب نحو الداخل، ولهذا لم يتمكّن من فتحه، دعسةُ مكابح عنيفة صدمَته به فوجد نفسَه مخبولاً من الرعب والدُّوارِ، معلَّقًا فوق مسطَّحة كانت

تتحرّك وكأنّها تنفتح تحت رجليه، في الفراغ، بين العربتَين، فوق عتمة برقَت فيها السكّة واختفت وعصفت بها ريح كانت تخرقه فتقطّع أنفاسه ثمّ تطرحه على درابزين لا يكاد يرتفع إلى خصره، تمكّن من التمسّك به حين بدأ يشعر بإنذارات التقيّؤ ووشْك الهُوِيّ على السكّة.

التفتَ إلى الوراء، كان مالكولم على بعد خطى قليلة، عند الجهة الأخرى من الباب، بحركة سريعة كالبرق كان عليه أن يفلت الدرابزين وأن يتوصّل إلى العربة المجاورة، من دون أن ينظر إلى الأسفل، من دون أن يرى كيف كانت الصفائح المعدنيّة تتحرّك فوق درب الحصى المنحني والدُّواريّ الّذي كانت تبتلعه الظلمة كالبئر. قفز وعيناه مغمضتان وفُتح الباب وأُغلق خلفه بضربة مُحكمة. ركض في العربة الفارغة نحو الباب الآخر ونافذة بيضويّة أُخرى: كان من الممكن ألاّ تنتهي أبدًا متواليات صفوف المقاعد الخالية والأضواء الصُّفر وهُوى الظلّ الّتي قطّعتها الريح، وكأنّ القطار كان يسير فقط كي يذهب هو للبحث عن لوكريثيا ملاحَقًا من مالكولم، الّذي لم يكن يراه الآن، ربّما هو أيضًا لم يكن يتمكّن من مغادرة العربة الأُخرى. سمع طَرقات، ظهر في الزجاج البيضويّ وجهُ مالكولم الّذي كان يركل الباب، وكان قد تمكّن من فتحه، وكان مقبِلاً نحوه والريحُ قد شعّثت شعره، خرج مرّة أُخرى إلى الظلمة متمسّكًا بقضبان الدرابزين المثلّجة، لكن أبْعد من ذلك لم يكن هناك أيّ باب، حائط معدنيّ رماديّ فقط، كان قد وصل إلى شِباك القاطرة وكان مالكولم لا

يزال يقترب منه ببطءٍ، منحنيًا إلى الأمام، وكأنّه يسير عكس الريح.

تذكَّر المسدّس: عندما بحث عنه فطِن إلى أنّه تركه في جيب معطفه. لو يخفّف القطار من سرعته ربّما قد يتجرّأ على القفز منه. لكنّ القطار كان مسرعًا، وكأنّه منطلق في منحدَر، ومالكولم يفتح الباب الوحيد الّذي يفصل بينهما. أسند ظهره إلى الحديد المتماوج ورآه يقترب منه كأنّه لن يصل أبدًا، وكأنّ سرعة القطار كانت عائقًا بينهما. لم يكن هناك مسدّس في يدَي مالكولم المفتوحتَين. كان يحرّك شفتَيه، ربّما كان يصرخ بشيءٍ، لكنّ الريح وضجيج القاطرة بدَّدا كلماته وغيظَ الغضب غير المُجدي. متباعد الساقَين وفاتحًا يدَيه انقضّ على بيرالبو أو دُفع إليه. لم يتعاركا، بل كانا وكأنّهما يتعانقان أو كأنّ أحدهما متّكئ على الآخر برُعونة كي لا يقعا. كانا ينزلقان على المسطَّحة ويقعان على ركابهما ويقفان متشابكَين ليقعا مجدَّدًا أو يُدفعا في الوقت نفسه إلى الفراغ. كان بيرالبو يسمع تنفّسًا لم يكن يميّز إن كان تنفُّسَه أو تنفُّس مالكولم، كلمات قذرة في الإنكليزيّة ربّما كان هو يقولها. كان يشعر بأيدٍ وأظفار وضربات ووزنِ جسد وشعور بعيد بأنّ رأسه كان يُرجّ على حروف حديديّة. وقف، رأى أضواء، مادّة ساخنة ورطبة كانت تنزلق على جبينه أعْمته: مسح عينيه بيده ورأى مالكولم ينهض إلى جانبه ببطءٍ وكأنّه يطفو على بحيرة وحْل، قابضًا بكِلتا يديه على قماش سرواله وجَيب سُترته الممزّقة. أطْول وأكثر إبهامًا ممّا كان في أيّ وقت مضى، ترجَّح مالكولم فوقه ومدّ يدَيه الكبيرتَين الجامدتَين إلى عنقه وللحظة، عندما تنحّى

بيرالبو جانبًا، بدا كأنّه ينحني على الدرابزين كمن يريد تفحُّص عُمق الليل أو عمق المصطبة الترابيّة. رأي بيرالبو يدَين تهتزّان كأجنحة العصافير، رأى نظرة دهشةٍ ورجاء عندما وثب القطار وكأنّه على وشك أن ينقلب فوقع هو صريعًا على الصفائح المعدنيّة: سمع صرخة حادّة وطويلة كصرير المكابح وأغمض عينَيه وكأنّ الظلمة الطوعيّة بإمكانها أن تنقذه من الاستمرار في سماعها.

بقي مسطَّحًا على الأرض في نوبة ارتجاف منعته من استعادة توازُنه. كانت هناك منازل معزولة بين الأشجار، حواجزُ معابرَ كانت السيّارات تنتظر وراءها. كان القطار يتقدّم الآن ببطءٍ أكثر: ركع بيرالبو، وعاد يمسح الرطوبة الوسخة عن وجهه، وهو لا يزال يرتجف، متلمّسًا نقطة ارتكاز للنهوض. عندما توقَّف القطار تقريبًا رأى خلف الأشجار نورًا عاليًا كان يختفي ويعود بإيقاع بطيءٍ ودقيق كمُراوَحات رقّاص ساعة. وكأنّه عاد من حلم أو من فُقدان تامٍّ للذاكرة فوجئ حين تذكَّر أين كان قد وصل ولماذا وجد نفسَه هنا.

قفز إلى السكّة كي لا يراه أحد وابتعد عن أضواء المحطّة سائرًا بين العربات المهمَلة، متعثّرًا بقضبان السكّة الحديديّة المخفيّة تحت الدّغل. عبَر حواجز من الصفائح المهترئة، انزلق ووقع حين أراد أن يصعد على مَرْكَم، عندها لم يعد يرى لا المحطّة ولا نور المنارة. ميتًا من البرد ظلَّ يتقدَّم على أرض مبتلّة ومتكتّلة، بين أشجار مبعثرة، متحاشيًا أضواء العِزب حيث كانت كلاب تنبح وأسوار حدائق

تقطع طريقه. عندما استدار حول إحدى الحدائق بلا نهاية، خشي أن يكون قد ضلّ: كان في شارع نظيف وعامّي، ذي حواجز مشبّكة مقفلة، وأعمدة إنارة في الزوايا، وسِلال مهملات بلاستيكيّة. فكّر: «ثيابي ممزّقة، وجهي ملطّخ بالدّماء، إذا رآني أحدهم سيتّصل بالشرطة». لكن لم يكن لديه من حضور الذّهن ولا الإرادة إلاّ متابعة السير في خطّ الشارع المستقيم، باحثًا عن صوت البحر أو رائحته، عن نورِ المنارة بين الأوكالِبتُس.

كان الشارع بلا شكٍّ مستقيمًا وطويلاً إلى هذا الحدّ لأنّه كان موازيًا لطريق الشاطئ: أحيانًا كان بيرالبو يسمع قريبًا جدًّا صوتَ السيّارات، ويشعر بلطافة هواء البحر على وجهه. أسياج العِزب المتشابهة انتهت في أرض مكشوفة موحلة حيث ارتفعت في ظلمة السماء المترامية أكثر من سِقالة لمبنًى قيد الإنشاء. من جهة كانت الطريق، بعدها المنارة ومنحدرات البحر. ليتجنّبَ أضواء السيّارات ابتعد عن جانب الطريق وسار على حافّة المنحدَر تقريبًا. في القاع كان يعلو الزبد الفسفوريّ متكسّرًا على الصخور: لم يشأ متابعة النظر إليه لأنّه كان يخاف ذلك العمق الّذي يجمّده وبدا يناديه. كانت المنارة تضيئه بنور مماثل لنور بدرِ الصيف الكبير الأصفر، ضوءٌ دائريّ متعدّد السطوح كان يُكاثر ظلّه ويشوّشه حين ينطفئ. مُنحنيَ الرأس ويداه في جيبَيه كان يسير بتعنُّت المشرَّدين الطائفين في الشوارع، من غير حماية في وجه هواء البحر البارد سوى قَبّة سُترته المرفوعة. كان قد ابتعد كثيرًا عن المنارة عندما رأى على قمم

الصنوبر المنزِلَ الّذي وصفه له بيلي سوان. سياج طويل جدًّا، لا يمكن رؤيته من الطريق، وبعد ذلك حاجز مشبّك نصف مفتوح واسْم: Quinta dos Lobos.

دخل وهو يخشى أن يَسمع نباح كلاب. انفتح المشبّك بصمتٍ عندما دفعه بيده ولم يسمع وهو يعبر الحديقة المبهمة سوى صوت خُطاه على الحصى. رأى برجًا، وكُنّة صغيرة ذات أعمدة، ونافذة مضاءة. توقَّف أمام الباب مع نفس الشعور بالفراغ والمحدوديّة الّذي انتابه على مسطَّحة القطار وعلى حافّة المنحدَر. رنّ الجرس ولم يحدث شيءٌ. رنّ ثانيةً فسمعه حينها، بعيدًا جدًّا، في داخل المنزل. ومن ثَمّ الصمت، الريح بين الأشجار، ويقين سماعه خطًى ووجودِ أحدٍ جامد بحذر وراء الباب. «لوكريثيا» قال، وكأنّه يهمس في أُذنها كي يوقظها، «لوكريثيا».

لكنّي لا أستطيع أن أتخيّل كيف كان الوجه الّذي رآه بيرالبو حينها، ولا الطريقة الّتي تلاقيا بها أو بها عبّرا عن حنانهما المتبادل، لم أرهما قطّ ولا أستطيع تخيُّلهما معًا: ما كان يجمعهما، وربّما ما زال يجمعهما الآن، كان رابطًا يحتوي في ذاته على صفة السرّ. لم يكن هناك شهود بتاتًا، ولا حتّى عندما لم يعد يستحثّهما واجبُ الاختباء: إذا وُجد أحد لا أعرفه معهما أو فاجأهما مرّة في أحد البارات والفنادق السرّية الّتي كانا يتواعدان فيها في سان سيباستيان، أنا على يقين أنّه لم يكن بإمكانه ملاحظة شيءٍ ممّا كانا يمتلكانه حقيقة: صلةٌ من الكلمات والإشارات، من الحشمة والجشع، لأنّهما لم

يعتقدا يومًا أنّ واحدهما يستحقّ الآخر ولم يرغبا يومًا ولم يحصلا على شيءٍ لم يكن فيهما فقط، مملكة متبادَلة غير مرئيّة لم يقطناها قطّ تقريبًا، لكنّهما لم يتمكّنا أيضًا من التنكّر لها، لأنّ حدودها كانت تحاوطهما بلا دواء كما تحاوط البشَرة أو الرائحة شكل الجسد. حين كانا يتبادلان النظر كان كلّ منهما ملْكًا للآخر، كمن يعرف من هو عندما يرى نفسه في المرآة.

بقيا لحظة بلا حراك، كلّ منهما عند الجهة الأُخرى من المدخل، من غير أن يتعانقا، من غير أن يقولا شيئًا، وكأنّهما وجدا نفسَيهما أمام شخص لم يكن مَن توقّعا رؤيته. أجمل أو أطول، مجهولة تقريبًا، بشعرها القصير جدًّا، وقميص من الحرير، فتحت لوكريثيا الباب على مصراعيه لتنظر إليه في الضوء الساطع ودَعته للدخول. ربّما تكلّما في البدء ببُعد لم تلطّفه الذاكرة المشتركة، بل تلك المجاملة الجبانة والشرِهة الّتي حوّلتهما مرارًا إلى غريبَين في حين أنّ كلمة واحدة أو مداعَبة كانت تكفيهما ليتعارفا.

- ماذا حصل لك؟ قالتْ لوكريثيا. ماذا فعلوا بوجهك؟

- عليكِ الذهاب من هنا. - عندما لمس بيرالبو جبينه مسّ يدها الّتي كانت تُبعد شعره كي تفحص له الجرح. - هؤلاء يبحثون عنكِ. سيجدونك إن لم تهربي.

- شفَتكَ مشطورة. - كانت لوكريثيا تلمس وجهه وهو لا يشعر بأناملها. كان يشمّ شعرها، ويرى قريبًا جدًّا لون عينيها الحقيقيّ، كان يشعر بكلّ شيءٍ وكأنّه يأتيه من بعد الإغماء: إذا تحرّك، إذا خطا

خطوة كان سيقع. – أنت ترتجف. تعال، استنِد إليّ.

– أعطني كأسًا من الكحول. وسيجارة. أشعر برغبة جامحة في التدخين. تركت التبغ في المعطف. والمسدّس أيضًا. من يفعل ذلك؟

– أيّ مسدّس؟ لكن لا تتكلّم، اِتّكئ عليّ.

– مسدّس مالكولم. كان سيقتلني به وانتزعته منه. بكلّ بساطة.

كان يدرك الأشياء بطريقة متقطّعة، بتناوبٍ سريع بين الوعي والخمول. إذا أغمض عينيه تراءى له أنّه في القطار مجدَّدًا وكان يخشى أن يُرديه الدُّوار. وهو يسير متّكئًا على لوكريثيا رأى نفسه في مرآة فأخافه وجهه الملطّخ بالدّم والدائرةُ المحمرّة حول حدقتَيه. ساعدَته ليتمدّد على إحدى الكنبات، في غرفة عارية حيث كانت نار تشتغل. فتح عينَيه ولوكريثيا غائبة. رآها تعود مع زجاجة وكأسَين. جاثية بجانبه، نظّفت وجهه بمنشفة رطبة ومن ثمّ وضعت بين شفتَيه سيجارة.

– مالكولم فعل بكَ هذا؟

– وقعت على شيء. شيء معْدنيّ. أو ربّما دفعني هو. كان كلّ شيءٍ مظلمًا. من يعرف؟ كنت أقع وأنهض وهو دائمًا يحاول ضربي. مسكين مالكولم. كان يضمر لي الكره. كان مجنونًا بك.

– أين هو الآن؟

– في العالم الآخر، أعتقد. بين السكك، إذا بقي منه شيءٌ.

سمعته يصرخ. ما زلت أسمعه.

– أنت قتلته؟

– الحقيقة، لا أعرف. أعتقد أنّي دفعته لكنّي لست على يقين. ربّما عثروا عليه الآن. عليك الرحيل من هنا.

– هل لحق بك أحد؟

– سيعثر عليكِ توسين مورتون إذا لم ترحلي، حين يقرأ الصحف غدًا سيعرف أين يبحث عنك. سيحتاج إلى أسبوع أو شهر، لكنّه سيجدك. اذهبي من هنا لوكريثيا.

– كيف أذهب الآن وقد وصلت أنت؟

– أيٌّ كان يمكنه الدخول. حتّى المشبّك غير مقفل.

– تركتُه مفتوحًا من أجلك.

استنفد بيرالبو كأس البوربون بجرعة واحدة واستند إلى كتفَي لوكريثيا ليقف. اعتقدت أنّه كان يريد معانقتها، شعر بذلك، ولذلك ابتسمت بتلك الطريقة حين انحنت صوبه. كان البوربون يحرق الجرح في شفتَيه وينشّطه ببطءٍ دافئ ومستحَبّ. فكّر أنّ سنوات كثيرة كانت قد مرّت منذ أن نظرت إليه لوكريثيا بالطريقة الّتي كانت تنظر فيها إليه الآن: محدّقة، متنبّهة لكلّ تفاصيل وجوده، مفاجَأة تقريبًا بحدّة نظرتها، بالخوف من أن تعني أيّ حركة، إشارة إلى أنّه سيرحل. لكنّه لم يكن يتذكّر: ارتعش حين انتبه أنّه للمرّة الأولى كان يرى في عيني لوكريثيا التعبير الّذي كان مالكولم شاهِدَه الوحيد. ما لم تعرف ذاكرته أن تحفظه قطّ كان يسترجعه بسبب غيرة ميتٍ.

غسل وجهه بالماء البارد في حمّام كبير كان بريق الخزف والحنفيّات يعطيه شكل غرفة عمليّات قديمة. كانت شفته السفلى منتفخة وكان له جرحٌ في جبينه. سرّح شعره بتأنٍّ وعقدَ ربطة عنقه كأنّه على موعد مع لوكريثيا. وهو يرجع إلى الصالون حيث كانت تنتظره تفحَّص البيت للمرّة الأولى: في كلّ غرفة بدت الأشياء مرتّبة للإشادة بالفراغ، وبشكل المكان المجرَّد وبالوحدة. مقودًا بموسيقى ضعيفة جدًّا استطاع العودة إلى جانب لوكريثيا من غير أن يتوه في الممرّات.

– من يعزف هذه الموسيقى؟ سألها. – كانت الموسيقى تقدِّم له عزاء دافئًا كهواء ليلة من أيّار، كذكرى حلم.

– أنت، قالت لوكريثيا. أنت وبيلي سوان. «ليشبونة». ألا تتعرّف على عزفك؟ لطالما تساءلت كيف أمكنك تأليف هذه الأغنية من دون أن تكون قد ذهبت إلى ليشبونة.

– تمامًا لهذا السبب. الآن لن أستطيع كتابتها.

كان جالسًا على زاوية من الكنبة، قبالة النار، في وسط الغرفة الفارغة. فقط رفّ يحتوي على الكتب والأسطوانات، طاولة وطيئة يعلوها مصباح وآلة كاتبة، جهاز ستيريو في أقصى الغرفة، مع أضواء صغيرة حمرٍ وخضرٍ وراء زجاج قاتم. لا تهمُّهم الأشياء الّتي يملكونها أو يحفظونها، فكّرَ، المستوحدون يقيمون الفراغ في الأماكن الّتي يقطنونها وفي الشوارع الّتي يعبرونها. عند الطرف الآخر من الكنبة كانت لوكريثيا تدخّن وهي تستمع إلى الموسيقى، وعيناها نصف

مفتوحتَين، تفتحهما كليًّا أحيانًا لتنظر إلى بيرالبو بحنان جامد.

– لديّ قصّة أخبركَ إيّاها، قالت له.

– لا أريد معرفتها. لقد سمعت الكثير هذه الليلة.

– من الضروريّ أن تعلم. هذه المرّة سأقول لك كلّ الحقيقة.

– إنّي أفترضها.

– لقد تحدّثوا معك عن اللوحة، أليس كذلك؟ عن الخريطة الّتي أخذتها منهم.

– افهميني، لوكريثيا. لم آتِ كي تخبريني شيئًا. لا أريد أن أعرف لماذا يبحثون عنك ولماذا أرسلت لي تلك الخريطة لليشبونة. أتيتُ كي أنبّهك إلى ضرورة أن تهربي. سأذهب حين أفرغ من هذه الكأس.

– لا أريدك أن تذهب.

– غدًا سأُجري تمرينًا مع بيلي سوان. سنعزف في الثاني عشر.

اقتربَت منه لوكريثيا قليلاً. عادة الحزم والوحدة وسّعت عينيها. كان شعرها القصير جدًّا يعيد إلى ملامح وجهها النقاوة والحقيقة اللّتَين ربّما كانتا لها فقط في سنّ المراهقة. كانت على وشك أن تقول شيئًا، لكنّها زمّت شفتَيها بحركة اللاجدوى أو التخلّي الخاصّة بها ووقفت. رآها بيرالبو تبتعد نحو رفّ الكتب. رجعت وفي يدها كتاب فتحَته أمامه. كان جزءًا مؤلّفًا من صفحات كبيرة مصقولة عليها صور لوحات فنّية. أشارت لوكريثيا إلى إحداها، ساندة الكتاب المفتوح إلى الآلة الكاتبة. قال لي بيرالبو إنّ النظر إلى

تلك اللوحة كان كسماع موسيقى قريبة جدًّا من الصمت، وكأنّ الكآبة والفرح يتملّكانك ببطءٍ. فهِم في لحظة أنّ عليه العزف على البيانو بهذه الطريقة، بالطريقة الّتي رسم بها ذلك الرجل: بعِرفان وحشمة، بخبرة وبراءة، كمن يعرف كلّ شيءٍ ويجهل كلّ شيءٍ، بالرقّة والخوف اللّذَين بهما يجروءُ المرء أوّل مرّة على مداعبة، على كلمة ضروريّة. الألوان، الذائبة في الماء أو في البُعد، كانت ترسم على البياض جبلاً بنفسجيًّا، سهلاً توشّيه بقعٌ مخضوضرة خفيفة بدت كأنّها أشجار أو ظلال أشجار في ظُلَّةٍ عشيّة نهار صيف، طريقًا يتناهى نحو المنحدرات، منزلاً منخفضًا ووحيدًا ذا خطوط أولى لمشروع نافذة، جادّةٍ من الأشجار الّتي كانت تحجبه تقريبًا، وكأنّ أحدهم اختار العيش هناك كي يختبئ، كي يرى قمّة الجبل البنفسجيّ فقط: بول سيزان، قرأ تحت الصورة،

La Montagne Sainte-Victoire, 1906, Col. B.U. Ramires.

– أنا امتلكت هذه اللوحة، قالت لوكريثيا، – وأقفلت الكتاب دفعة واحدة. – من النظر إلى الصورة لا يمكنك أن تعلم كيف كانت. امتلكتها وبعتها. لن أستسلم إلى أنّي لن أراها أبدًا بعد الآن.

الفصل السابع عشر

أجّجت النار، أتت بسجائر، أتْرعت الكؤوس ببطءٍ هادئ، هدوء من يقوم بطُقوس حميمة. في الخارج كانت الريح تضرب الزجاج وكانت تُسمع قريبًا جدًّا فرقعات الموج على المنحدَرات. أخذ بيرالبو الكتاب وتركه مفتوحًا على ركبتَيه ليتابع النظر إلى اللوحة فيما لوكريثيا تتكلّم. فجأة، غيَّر التأمّل في ذلك المنظر كلَّ شيءٍ: الليل، الفرار، الخوف من الموت، عدم العثور على لوكريثيا. كما الحبُّ أحيانًا، والموسيقى دائمًا تقريبًا، كانت تلك اللوحة تجعله يفهم الإمكانيّة المعنويّة لعدالة غريبة ومتصلّبة، لنظام دائم السرّية تقريبًا كان يصوغ المصادفة ويجعل العالم صالحًا للسكن وهو ليس من هذا العالم. شيءٌ مقدّس وغامض وفي الوقت نفسه يوميّ وذائب في الجوّ كموسيقى بيلي سوان حين كان ينفخ في البوق أنغامًا خافتة لدرجة أنّ صوته كان يضيع في الصمت، كنورِ أمساءِ ليشبونة الأمغر والزهريّ والرماديّ: الشعور ليس بفكّ رموز معنى الموسيقى أو بُقع الألوان أو لغز النور الجامد، بل أن يكون مفهومًا ومقبولاً منها. لكنّه منذ أعوام مضت كان قد عرف ونسيَ تلك الأشياء. يتذكّرها الآن كما كانت لديه آنذاك، مع خبرة أكثر وحماسة أقلّ، كانت بلا شكّ مرتبطة بلوكريثيا، بصوتها الهادئ المعتاد، بطريقة ابتسامتها من غير أن تفرّق شفتَيها، بعطرْ الأيّام القديمة الّتي باتت مجدَّدًا كرائحة جوّ وطنٍ مفقود.

لذلك لم تكن تهمّه كثيرًا القصّة الّتي كانت ترويها له: ما كان يهمّه هو صوتها، لا كلماتها، وجودُها لا السببُ الّذي جعله يعثر عليها هناك، كان شاكرًا لكلّ الأشياء الّتي حصلت له وكأنّها هِبات منذ أن وصل إلى ليشبونة. نحّى عينَيه عن الكتاب لينظر إلى لوكريثيا وفكّر أنّه ربّما لم يعد يحبّها، بل لا يرغب فيها. لكن تلك البرودة غير المرتابة، الّتي كانت تنقّيه من الماضي ومن رِبا الألم، كانت أيضًا الفسحة الّتي فيها عاد ليراها مثلما فعل قبل أيّام أو قبل ساعات من الهُيام بها، في الليدي بيرد، أو في الڤيينّا، في أحد الشوارع المنسيّة في سان سيباستيان: ملائمة ومستقبليّة وباهرة الأضواء كتلك المدن الّتي نكون على وشك الوصول إليها لأوّل مرّة.

كان يسمع الكلمات مجدَّدًا ، الأسماء الّتي لاحقَته مدّة طويلة، والّتي بقيت ظلمتُها غير ممسوسة حتّى بعد تلك الليلة، لأنّها بقيت أقوى من الحقيقة أو من الكذب الّذي كانت تستأثر به: ليشبونة، بورما، أولمان، مورتون، سيزان، أسماء تفكّكت في صوت لوكريثيا لتعود فتجتمع ثانية في حبكة مجهولة كانت تعدِّل وتُصلح جزئيًّا ذكريات بيرالبو وتكهُّناته. ومجدَّدًا سمع كلمة برلين، متعرّفًا في رنينها الطبقات المتتالية للبُعد والقذارة والألم الّتي ألْحقها بها الوقت منذ ذلك الزمن البعيد الّذي كان يكتب فيه رسائل إلى لوكريثيا ولم يكن يتوقّع أن يعاود رؤيتها: عندما أطاع الوضاعة والاحتشام وكان يعطي دروسًا في مدرسة راهبات وكان ينام باكرًا فيما هي تشاهد كيف كانوا يخنقون رجلاً بخيط من النيلون وتهرب بعدها على

ثلج الشوارع الوسخ باحثة عن علبة بريد أو عمّن تتمكّن من إعطائه رسالتها الأخيرة لبيرالبو، تلك الخريطة لليشبونة، قبل أن يتمكّن مالكولم وتوسين مورتون ودافني من إدراكها...

كذبتُ عليكَ، قالت لوكريثيا. كان من حقّك أن تعرف الحقيقة لكنّي لم أخبرك إيّاها. أو أخبرتُك إيّاها منقوصة. لأنّي لو فعلت ذلك لكُنتَ ارتبطت بي وأنا كنت أريد أن أكون وحدي وأصل وحدي إلى ليشبونة. طوال بضعة أعوام كنت مقيّدة بمالكولم وبك أيضًا، بذكرياتك وبرسائلك، ضاعت منّي حياتي وكنت مؤمنة أنّ الطريقة الوحيدة لاسترجاعها هي أن أكون وحدي، لذلك كذبت عليك وطلبت إليك أن ترحل حين كنّا في ذلك الفندق، ولذلك أيضًا كانت لديّ الشجاعة أن أسلب مالكولم الخريطة والمسدّس وأن أهرب منه، لم يكن يهمّني إن كان قد ساعد توسين على قتل ذلك الثمل، هذا لم يجعلني أشعر تجاهه باحتقار أو بقرف أكثر، لم يكن خنْق رجل عملاً أقذر من أن يتمدّد عليّ من غير أن ينظر في عيني أبدًا ويهرب بعدها إلى الحمّام خافض الرأس... كان يريد أن يكون لنا ولد. منذ أن ظهر البرتغاليّ لم يكن يكفّ عن التكلّم في هذا الموضوع، كان سيربح مالاً وافرًا، كان باستطاعتنا أن نعتزل وننجب ولدًا ولا نعمل حتّى نهاية حياتنا، كان التفكير في ذلك يجعلني أشعر بالغثيان، بيت مع حديقة وولد من مالكولم وتوسينُ ودافني معنا على الغداء كلّ أحد. أذكر الليلة الّتي أتوا فيها بالبرتغاليّ، يسنده كلاهما كي لا يقع، كبير جدًّا كالشجرة، أشقر، أحمر، وعيناه غبِشتان وغارقتان في وجهه كعينَي

خنزير، متخم من الجعة، مع تلك الوشوم على ذراعيه، أفْلتاه على الكنبة فبقي يتنفّس بقوّة، يقول أشياء ولسانه مربوط. أحضر توسين من سيّارته صندوقًا من الجعة ووضعه بجانبه، وكان البرتغاليّ يفتح عُلبها ويشربها واحدة واحدة، كشخصٍ آليّ، بعدها كان يسحقها بيده وكأنّها من ورق ويرميها أرضًا. كنت أسمعه يعيد كلمة، «بورما»، الّتي بدت في بعض الأحيان مكانًا وأحيانًا أُخرى اسم جيش أو مؤامرة. لم يكن توسين ودافني يبتعدان عنه، مُعدَّين له دائمًا علبة الجعة، ودافني تسمعه وتدوّن ملاحظاتها وحافظةُ الأوراق على ركبتَيها. «أين بورما؟» كان توسين يسأل البرتغاليّ «في أيّ جهة من ليشبونة؟» وفي إحدى المرّات انتصب البرتغاليّ وكأنّه استفاق فجأة من ثملهِ وقال: «لن أتكلّم، لن أحْنَث في قسَمي للسيّد بيرناردو أولمان راميريز وهو على وشك الموت». فتح عينَيه كثيرًا ونظر إلينا جميعًا، حاول أن يقف، لكنّه وقع على الكنبة ونام كالثور.

«أنتم تشاهدون العسكري الأخير لجيش مهزوم» قال توسين مورتون بهَيبة من يُلقي رثاء. كانت لوكريثيا تذكر أنّه حين كان يخبرهم عن السيّد بيرناردو أولمان راميريز وعن إمبراطوريّته الهالكة، كان ينظّف منخرَيه بصوت عالٍ في منديل كبير ذي مربّعات واستوكف الدموع: دموعًا حقيقيّة، قالت لوكريثيا، دموعًا كبيرة برّاقة انزلقت على وجهه ككُريّات زئبق. بينما كان البرتغالي نائمًا، تحت رقابة دافني، شرح لهم توسين مورتون ماهيّة بورما ولماذا كان أمامهم الفرصة أن يصبحوا أغنياء إلى الأبد، مستعملين القليل فقط

من الذكاء ومن الحيلة «لا القوّة الوحشيّة، مالكولم»، حذّره، كان يكفي أن يتحلّوا بالصبر وألّا يتركوا البرتغاليّ وحده وألّا تنقص من البرّاد عُلب الجعة، «كلّ جعة العالم» قال، مادًّا يدَيه، «ماذا قد يفكّر السيّد بيرناردو أولمان راميريز المسكين لو رأى ما آلَ إليه مَن كان أحد أفضل جنده؟»

– جيش سرّي، قالت لوكريثيا. كان ذلك الرجل قد خسر جميع مزارع البُنّ خاصّته وقصرَه في وسط بحيرة وجميع لوحاته تقريبًا واضطرّ إلى الهرب إلى أنغولا بعد الاستقلال. رجع خلسة إلى البرتغال واشترى المخزن الأكبر في ليشبونة ليُقيم فيه مركز مؤامرته. هذا ما كان قد أخبر البرتغاليُّ به مورتون: أنّ السيّد بيرناردو باع اللوحات القليلة المتبقّية لديه ليَبتاع سلاحًا وليتعاقد مع مرتزقة، وأنّه بعد وفاته ابتدأت بورما بالتفكّك، لم يبق تقريبًا شيءٌ غير المخزن، لذلك هو ترك ليشبونة، لا لأنّه كان خائفًا من الشرطة. لكنّه أضاف شيئًا: كان في مكتب السيّد بيرناردو روزنامة قديمة ولوحة صغيرة جدًّا من الأرجح أن لا قيمة لها إذ إنّها لم تجد شاريًا.

«أصدقائي الأعزّاء – تأكّد لتوسين مورتون أن البرتغاليّ ما يزال نائمًا في الغرفة المجاورة – هل تعتقدون أنّ هاويًا له موهبة السيّد بيرناردو أولمان راميريز يعلّق لوحة غير قيّمة في مكتبه؟ أنا، الّذي عرفته، أنفي ذلك. «إنّه منظر»، يقول هذا الحيوان، «يمكن رؤية جبل وطريق». رجفت حين سمعته! سألته بحذر إذا كان يمكنه رؤية بيت بين الأشجار أيضًا، تحت إلى اليمين. كنت أعلم مسبقًا

أنّه سيقول نعم... أعرف هذه اللوحة، منذ خمس عشرة سنة، في زوريخ، أراني إيّاها السيّد بيرناردو، والآن هي معلَّقة بجانب روزنامة، يتراكم عليها الغبار بمخزن في ليشبونة حيث لا يراها أحد. رسمها پول سيزان عام ألف وتسعمئة وستّة. سيزان، يا مالكولم! هل يعني لك هذا الاسم شيئًا؟ لكن هذا لا يهمّ، لستم قادرين على تصوُّر مبلغ المال في حال بعناها، إذا وجدناها...

– لكنّهم لم يكونوا يعرفون أين تقع بورما، قالت لوكريثيا. ما كانوا يعرفونه هو أنّها مخزن بُنٍّ وبهارات فقط وأنّه كان عليك قول كلمة «بورما» للنزول إلى القبو، كانوا يُسكرون البرتغاليّ غير متجرّئين تقريبًا البتّة على سؤاله مباشرة خوفًا من أن يرتاب، لكنّهم على الأرجح فقدوا صبرهم، أعتقد أن مالكولم قال شيئًا جعله يشكّ، لأنّهم ذلك النهار، في الكوخ، حين انعزلوا وإيّاه، سمعته يصرخ ورأيته يخرج محتفظًا بشيءٍ في جيبه، ورقة متجعّدة، لكنّه كاد يقع، دخل الحمّام ومكث فيه طويلاً، محْدثًا ضجيجًا كالحصان وهو يبوّل... ناداه توسين، بعصبيّة شديدة، أعتقد أنّه كان يخشى أن يكون البرتغاليّ قد رمى الخريطة في المرحاض. «اخرُج من هنا» قال له، «سنعطيك النصف، أنت وحدك لن تعرف أين تبيعها». عندها رأيتُه يحفظ في جيبه خيط النيلون، نظر إليّ وقال لي: «لوكريثيا، حبيبتي، كلّنا جائعون، هل تساعدين دافني في إعداد الطعام؟»

نهض بيرالبو ليؤجّج النار. كان الكتاب ما يزال منحنيًا ومفتوحًا على الآلة الكاتبة. ظنّ أنّ ذلك المنظر كان بنفس الرقّة الثابتة لنظرة

لوكريثيا وصوتها: تخيّله مخفيًّا في شبه العتمة، غير مرئيٍّ للّذين يمرّون بجانبه ولا يرونه، منتظرًا بلا حراك، بإخلاص التماثيل، بعيدًا عن الوقت تمامًا كما عن الجشع والجريمة. كلمة واحدة كانت كافية للحصول عليه، لكن لم يتمكّن من قولها إلاّ من كان جديرًا به.

- كان أمرًا سهلاً للغاية...، قالت لوكريثيا. كعبور الشارع أو الصعود إلى حافلة. وصلتُ إلى المخزن وكان فارغًا تقريبًا، كان هناك رجال يحمّلون أثاثًا قديمًا وأكياسَ بُنٍّ في شاحنة. دخلتُ، ولم يقل لي أحد شيئًا، وكأنّهم لم يروني... في القاع كان هناك أحد تلك المكاتب القديمة ورجلٌ أبيض الشعر يكتب في سجلٍّ كبير، وكأنّه يدوّن ما كان يأخذه الباقون. توقّفتُ أمامه، كان قلبي يخفق ولم أكن أعرف ماذا أقول له. نزع نظّارته لينظر إليّ جيّدًا، وضعها على السجلّ ووضع الريشة في المحبرة، بتأنٍّ كبير، كي لا يلطّخ ما كان قد كتبَه. كان يلبس قميصًا رماديًّا. وبكلّ تهذيب سألني عمّا أريد، كالنُّدُل المسنّين في المقاهي، مبتسمًا لي. قلت: «بورما»، اعتقدت أنّه لم يفهمني، لأنّه كان يبتسم وكأنّه لا يتمكّن من رؤيتي بشكل واضح. لكنّه حرّك رأسه وقال لي، خافضًا صوته: «لم يعد هناك بورما. لقد زالت من الوجود قبل أن تأتي الشرطة»... عاد ووضع نظّارته، أخذ الريشة واستأنف الكتابة، أولئك الرجال كانوا يصعدون من القبو محمَّلين بأكياس البُنّ وصناديق مليئة بأشياء غريبة، منارات بواخر، حبال، أشياء من النحاس وكأنّها أدوات ملاحة. لحقتُ بأحدهم في ممرّ، ثمّ على سلالم حديديّة. كانت اللوحة تحت، في مكتب صغير

جدًّا. كان هناك كتبٌ وأوراق مبعثرة على الأرض. أقفلتُ الباب واقتلعتها من إطارها. وضعتها في كيس من البلاستيك. خرجت من هناك وكأنّي لا أطأ الأرض. الرجل الأبيض الشعر لم يكن موجودًا في المكتب. رأيت الريشة والسجلّ المفتوح والنظّارة. أحد الّذين كانوا يحمّلون الشاحنة قال لي شيئًا، وأفرط الباقون في الضحك، لكنّي لم أنظر إليهم. بقيت يومَين حبيسة غرفة في فندق، أنظر إلى اللوحة، ألمسها بأناملي وكأنّي أداعبها، لم أكن أريد التوقّف عن النظر إليها بتاتًا.

– بعتِها في ليشبونة؟

– في جنيف. هناك كنت أعرف أين أذهب. اشتراها أحد أولئك الأميركيّين من تكساس ممّن لا يسألون شيئًا. أعتقد أنّه قد يحفظها مباشرة بعد شرائها في الخزنة. مسكين سيزان.

– لكن كان ممكنًا أن أفقد تلك الرسالة، قال بيرالبو بعد صمت طويل. أو أن أكون قد رميتها بعد قراءتها.

– تعرف أنّ هذا كان وقتها أمرًا مستحيلاً. أنا أيضًا كنت أعرف ذلك.

– أخذْتِ الخريطة في تلك الليلة، في الفندق المحاذي للطريق، أليس كذلك؟ حين خرجت لأخبّئ سيّارة فلورو.

– كان نزُلًا. هل تذكر اسمه؟

– كنت ضائعًا جدًّا. أعتقد أنّه كان بلا اسم.

– لكنّك لم تخرج لتخبّئ السيّارة. – كانتً لوكريثيا تجد لذّة في

مضايقة ذاكرة بيرالبو. – قلتَ إنّك ذاهب لشراء السندويشات.

– سمعنا صوت محرّك. ألا تذكرين؟ شحبَ لونُك من الخوف، اعتقدتِ أنّ توسين مورتون وجدَنا.

– أنتَ كنت خائفًا، وليس مِن أن يجدنا توسين. كنتَ خائفًا منّي. ما إن أصبحنا وحدنا في الغرفة حتّى طلبتَ أن ننزل لنتناول كأسًا. ولكن كانت هناك ثلاّجة مليئة بالمشروب. عندها خطر ببالك أن تذهب لشراء السندويشات. كنتَ ميتًا من الخوف. كان ذلك واضحًا في عينَيك وفي الحركات الّتي كنت تقوم بها.

– لم يكن خوفًا. هي الرغبة فقط.

– كانت يداك ترتجفان حين استلقيت بجانبي، يداك وشفتاك، كنتَ قد أطفأت النور.

– لكن أنتِ أطفأتِ النور. حقًّا كنتُ أرتجف. ألم تشعري قطّ بانقطاع تنفُّسك من الرغبة في أحد إلى هذه الحدّ؟

– بلى!

– لا تقولي لي في مَن.

– فيكَ أنتَ.

– لكن هذا كان في البدء. الليلة الأولى الّتي ذهبتِ فيها معي. عندها كنّا نرتجف نحن الاثنين. ولا حتّى في الظلمة كنّا نجرؤ على الملامسة. لكن لم يكن ذلك من الخوف. كان لعدم اعتقادنا أنّنا نستحقّ ما كان يحصل لنا.

– ولم نكن نستحقّه. – أكّدت لوكريثيا كلماتها متظاهرة

بإشعال سيجارتها. لكنّها لم تفعل: والسيجارة بين شفتَيها، قدّمت القدّاحة إلى بيرالبو على راحة يدها كي يأخذها هو ويشعلها لها: هذه الحركة الوحيدة كانت تنفي الحنين وتُشيد بالحاضر. - لم نكن أفضل ممّا نحن عليه الآن. كنّا صغيرَين وخسيسَين جدًّا. ما كنّا نفعله بدا لنا غير مشروع. كنّا نعتقد أنّ الحظّ يعذرنا. تذكّرْ تلك المواعيد في الفنادق، والخوف من أن يكتشفنا مالكولم أو أن يرانا أصحابك معًا.

نفى بيرالبو؛ لم يكن يريد أن يتذكّر الخوف ولا الساعات القذرة، قال، مع مرور السنين كان قد محا من وعيه كلّ ما كان بقدرته ذمُّ أو تكذيبُ الليلتَين أو الثلاث الأهمّ في حياته، لأنّه لم يكن يهمّه التذكُّر، بل اختيار ما كان ملكًا له إلى الأبد: الليلة الّتي لا تمحى هي حين خرج من الليدي بيرد مع لوكريثيا وفلورو وأوقف سيّارة الأجرة وصعد إليها ملتهبًا من الغيرة والجبن وفتحت لوكريثيا الباب وجلست بجانبه وقالت له: «مالكولم في باريس. أنا ذاهبة معك». من الرصيف، كان فلورو بلوم، سمينًا ومبتسمًا، محميًّا من البرد بسُترته كصيّاد بالخُطّاف، يودّعهما بيده.

- أنتِ أيضًا كنت ترتدين سترة ذات قبّة كبيرة جدًّا، قال بيرالبو. سوداء، من الجلد الناعم جدًّا. كانت تحجب وجهك تقريبًا.

- تركتها في برلين. - كانت لوكريثيا الآن قريبة جدًّا كما في داخل سيّارة الأجرة تلك. - لم تكن من الجلد الحقيقيّ. كان مالكولم قد أهدانيها.

– مسكين مالكولم. – تذكّر بيرالبو بسرعة اليدَين المفتوحتَين اللتّين كانتا تبحثان في الهواء عن سندٍ مستحيل. – كان يزيّف المعاطف أيضًا؟

– كان يريد أن يكون رسّامًا. كان يعشق الرسم بنفس القوّة الّتي بها تستطيع أنت أن تحبّ الموسيقى. لكنّ الرسم لم يكن يحبّه.

– تلك الليلة كانت باردة جدًّا. كانت يداكِ مثلّجتَين.

– لكنّ الجوّ لم يكن باردًا. – الآن أيضًا بحثت لوكريثيا عن يديه وهي تنظر إليه: شعَر فيهما بالبرودة نفسها الّتي كان يحسّها في يديه حين كان يخرج ليعزف ويضعهما للمرّة الأولى على لوحة المفاتيح.

– كنتُ أخاف من لمْسكَ. جسدكَ بكامله وجسدي كنت ألمسهما في يديكَ. هل تعرف متى تذكّرت هذه اللحظة؟ حين خرجتُ من ذلك المخزن ومعي لوحة سيزان في كيس بلاستيكيّ. كان كلّ شيءٍ في الوقت نفسه مستحيلاً وفي غاية السهولة. مثلما نهضت من السرير وسرقت من مالكولم الخريطة والمسدّس وذهبتُ إلى الأبد...

– لذلك لم نكن خسيسَين، قال بيرالبو. – آنذاك كان دُوار سرعة القطار غيرُ المخفَّف يختلط مع دُواره في سيّارة الأجرة تلك الّتي طافت بهما إلى آخر الليل في شوارع سان سيباستيان البعيدة. – لأنّنا كنّا نبحث فقط عن أشياء مستحيلة. كنّا نتقزّز من رداءة الآخرين وسعادتهم. منذ المرّة الأولى الّتي تقابلنا فيها لمستُ في عينَيكِ رغبتك الجامحة في تقبيلي.

– ليست بقدْر ما هي الآن.

– أنتِ تكذبين عليّ. لن يكون هناك شيء أبدًا أفضل ممّا كان لدينا عندها.

– سيكون، لأنّه مستحيل.

– أريدكِ أن تكذبي عليّ، قال بيرالبو. ألّا تقولي لي الحقيقة أبدًا. لكنّه وهو يقول ذلك كان يجسُّ شفتَي لوكريثيا.

الفصل الثامن عشر

عندما فتح بيرالبو عينَيه اعتقدَ أنّه نام بضع دقائق فقط. كان يذكر زرقة النافذة المجرَّدة، الضوءَ الرماديَّ الّذي كان يخفّف من نور المصباح ويُعيد ببطءٍ إلى الأشياء أشكالها، وليس ألوانها المتعادلة أو الذائبة في زرقة شبه العتمة الباهتة، في بياض ملاءة السرير، في بريق بشرة لوكريثيا المُتعَب والدافئ. كان قد شعر أو حلم بأنّ جسديهما كانا ينموان ويشغلان بشراهة المكان بكامله، ويحرّكان الظلال الملتصقة بهما حين يرتعشان: عند حدّ إغمائهما المرغوب والمتبادَل كان ينعشهما عرفانٌ هادئ لشريكَين. ربّما لم يسترجعا شيئًا تلك الليلة: ربّما في ذلك النور الغريب الّذي لم يبدُ أنّه آتٍ من أيّ مكان حصلا عندما تناظرا على شيء كانا يجهلانه، شيء لم يتمكّنا حتّى من الرغبة فيه إلى الآن، السطوع الّذي به كان بإمكان واحدهما اكتشاف الآخر في الزمن بعد غفران الذاكرة.

لكنّه لم يكن قد نام بضع دقائق: كان ضوء الشمس يلمع على الستارة نصف الشفّافة. لم يكن أيضًا يتذكّر حلمًا، لأنّها كانت لوكريثيا تلك النائمةُ بهدوءٍ إلى جانبه، عارية تحت الملاءة الّتي كانت تشدّها بفخذيها، مشعّثة الشعر، فمها نصف مفتوح، مبتسمة تقريبًا، جانبيّتها الحادّة على المخدّة، قريبة جدًّا من بيرالبو وكأنّها غفت حين كانت على وشك تقبيله.

وقبْل أن يتحرّك، خوفًا من أن يوقظها، نظر إلى الغرفة متعرّفًا

على الأشياء بإبهام، ملتقطًا من كلّ منها تفاصيل متفرّقة لما لم يكن يتذكّره: سرواله المطروح أرضًا، قميصه الملطّخ ببقع قاتمة صغيرة، كعب لوكريثيا العالي، تذاكر القطار على منضدة السرير بجانب المنفضة، آثار ليلة أحسَّها فجأة بعيدة، فقط غير حقيقيّة، لا مخشيّة ولا ملائمة. ببطءٍ وحذر شرع ينهض: تنفّست لوكريثيا بعمق وقالت شيئًا في أحلامها بينما كان يعانق خصرها. ظنّ أنّ الوقت كان متأخّرًا جدًّا وأنّ بيلي سوان قد يتّصل به الآن في فندقه. بشكلٍ قاطع تخيَّل الطريقة الّتي سينهض بها من غير أن تلحظه. أدار ظهره ببطء: يد لوكريثيا مسّت أُربيّاتِه قليلاً بينما كان يبتعد، بعدها بقيت جامدة تقريبًا، متحسّسة الملاءة كالعمياء. متكوّرة على نفسها، ابتسمت وكأنّها لا تزال تعانقه وأغرقت وجهها في المخدّة، تهرُّبًا من اليقظة والنور.

شقّ بيرالبو دِرَف النافذة. تأخَّر في الانتباه أنّ شعور الخفّة الّذي كان يجعل تحرّكاته حذرة لهذه الدرجة لم يكن النتيجة السعيدة لساعات نومه، بل للغياب التامّ للماضي. ولأوّل مرّة منذ أعوام كثيرة لم يستيقظ مستحَثًّا بريبة همٍّ، أو وجهٍ عليه أن يسترجعه. أمام مرآة الحمّام لم يحاسب نفسه عن اللَّيلة الفائتة. كانت شفته السفلى لا تزال متورّمة وندوبٌ ضعيفة تعترض جبينه، لكن حتّى الهيئة المريبة لخدَّيه غير الحليقَين لم تبدُ له مستنكَرة تمامًا. كان يرى البحر من النافذة: كانت الشمس تبرق على قمم الموج الضعيفة بانعكاسات معدنيّة. فقط شيءٌ واحد تافهٌ أثّر فيه: على مِشجب المناشف كان

ثوب لوكريثيا الأحمر الّذي فاحت منه قليلاً رائحة بشرتها وأملاح الحمّام.

لو كان في زمن آخر لبحث بحقدٍ غيور عن دلائل وجودٍ ذكَريٍّ: الآن، عندما خرج من تحت الماء، أزعجه احتمال عدم وجود ما يحلق به ذقنه. كان يجد لذّة في تفحُّص عُلب مراهم التجميل، متشمِّمًا غُلُفَ البودرة الزهريّة، ألواحَ الصابون، العطور. حلَقَ ذقنه بصعوبة، بشفرة صغيرة مسنونة ذكّرته بخساسة مسدّس غشّاش في القمار. المياه الساخنة أزالت تقريبًا بُقع الدّم عن قميصه. وضع ربطة عنقه: من غير تأنيب ضمير، برغبة ثابتة في النسيان، والهروب، كمنْ يتذكّر حين يستيقظ أنّه شرب كثيرًا الليلة الفائتة.

في غرفة الجلوس، كان كتاب سيزان ما زال مفتوحًا على الآلة الكاتبة، بجانب كأسين فيهما القليل من الماء وقنّينةٍ فارغة. نظر إلى الطريق، بدا له الجبل البنفسجيّ والبيت بين الأشجار مستثنَيَين من التقهقر الخفيف الّذي يفسد كلّ شيءٍ، حتّى نور البحر الضبابي. بدا كأنّه قد تأخّر كثيرًا في الرجوع إلى الوطن الّذي ينتمي إليه: خلافًا لإرادته كان يستَولي عليه شعور هادئ بالغرابة والكذب، بالحرّيّة، بالراحة.

باحثًا عن المطبخ بدافع رغبتهِ في إعداد القهوة، وصل إلى غرفة لها ثلاث نوافذ كبيرة تطلّ على المنحدرات. كانت طاولة مليئة بالكتب وأوراقٍ كُتبَ عليها باليد، وآلةٌ كاتبة أُخرى فيها ورقة بيضاء. منافض، المزيد من الكتب على الأرض، عُلب سجائر فارغة،

تذكرة سفر من عدّة أشهر: ليشبونة – ستوكهولم – ليشبونة. كانت الأوراق، المكتوبة بحبر أخضر، مليئة بالتشطيب. رأى على الحائط صورة مجهول: هو بنفسه، منذ ثلاث سنوات أو أربع، عيناه محدِّقتان إلى شيء لم يكن في تلك الغرفة ولا في أيّ مكان آخر، يداه ممتدّتان فوق لوحة مفاتيح بيانو، بيانو الليدي بيرد. كان الظلّ يُخفي نصف ذلك الوجه؛ في النصف الثاني، في النظرة وفي حركة الشفتَين، كان هناك خوف وحنان، وغريزة تكهُّن مكشوفة. تساءل عمّا تكون لوكريثيا قد فكّرت فيه أو شعرت به وهي تنظر كلّ ليلة إلى تلك الأحداق الّتي بدت تبتسم لمن كان أمامها وفي الوقت نفسه تُنكره ولا تراه.

لم يكن المنزل كبيرًا بالقدر الّذي بدا له حين وصل: كانت توسّعه المساحة الفارغة وأُفقُ البحر الّذي نراه من النوافذ الكبيرة. كان يبحث فيه بلا جدوى عن دلائل على حياة لوكريثيا: الصمت، الجدران البيض، الكتب، هذه كانت الجواب الوحيد لسؤاله. في قاع ممرٍّ، وجد المطبخ، نظيفًا جدًّا ومهجورًا كأنّ سنين طوالاً مضت من غير أن يستعمله أحد. وراء النافذة، فوق الأشجار، رأى برج المنارة المخروطيّ. فاجأه أن يكون قريبًا لهذه الدرجة، كما يفاجئنا اكتشاف الامتداد المكذَّب لمكان من الطفولة. أعدَّ القهوة، مغتبطًا من رائحتها كوفاءٍ مرتجَع. عندما رجع إلى غرفة الجلوس ليبحث عن سيجارة، كانت لوكريثيا تنظر إليه. من المؤكّد أنّها سمعت خطاه في الممرّ، وتوقّفت منتظِرة منه أن يظهر على العتبة. عندما رأته أقفلت

الراديو، كانت تنظر إليه وكأنّها عندما استيقظت كانت قد خافت ألّا تجده. في وضح النهار لم يكن وجهها متعجرفًا، بل أكثر ضيافة أو أكثر ضعفًا، رصينًا فجأة، راضخًا للخطر المحتمَل الماثل أمامها.

– لقد وجدوا جثّة مالكولم، قالت. إنّهم يبحثون عنك. سمعتُ الخبر توًّا من الراديو.

– ذكروا اسمي؟

– اسمك وشهرتك واسم الفندق الّذي نزلتَ فيه. أحد المفتّشين صرّح بأنّه رآكما تتشاجران على مسطَّحة القطار.

– قد وجدوا معطفي، قال بيرالبو. كنت سألبسه حين ظهر مالكولم.

– تركتَ فيه جواز سفرك؟

فتّش بيرالبو جيوبه. كان جواز السفر في سُترته. عندها تذكَّر.

– إيصال الفندق، قال. كنتُ أضعه في المعطف لذلك يعرفون اسمي.

– على الأقلّ ليس لديهم صورتك.

– هل قالوا إنّي أنا قتلته؟

– قالوا فقط إنّهم يبحثون عنك. المفتّش كان يذكرُكما، أنت ومالكولم. يبدو أنّه لم يكن هناك أحد سواكما في القطار.

– هل تعرّفوا عليه أيضًا؟

– قالوا كلّ شيءٍ حتّى المهنة المدوّنة على جواز سفره. مرمِّم لوحات فنّيّة.

– يجب الذهاب من هنا اليوم، لوكريثيا. توسين مورتون يعرف الآن أين يبحث عنكِ.

– لا أحد يمكنه العثور علينا إذا لم نخرج من هذا المنزل.

– يعرف اسم المحطّة. سيطرح بعض الأسئلة. لن يتأخّر أكثر من يومين كي يصل إلى هنا.

– لكنّهم سيسلّمون اسمك لشرطة المطار. لا يمكنك العَودة إلى الفندق ولا الخروج من البرتغال.

– سأذهب في القطار.

– هنالك أيضًا شُرطة في القطارات.

– سأختبئ بضعة أيّام، في فندق بيلي سوان.

– انتظِر. أعرف واحدًا يمكنه مساعدتنا. إسبانيّ لديه نادٍ قريب من البورما. هو سيجلب لك جواز سفرٍ مزيّفًا. ساعدَني على تزوير أوراق اللوحة.

– قولي لي أين يعيش فأذهب لأراه.

– هو سيأتي إلى هنا. سأتّصل به هاتفيًا.

– ليس لدينا الوقت، لوكريثيا. يجب عليكِ أن ترحلي من هنا.

– سنرحل معًا.

– اتّصلي بهذا الشخص وقولي له إنّي ذاهب لأراه. أنا وحدي.

– لا تعرف أحدًا في ليشبونة. لا تملك المال. بعد أيّام قليلة سنتمكّن من الرحيل من دون أيّ خطر.

لكنّ بيرالبو لم يكن تقريبًا يشعر بالتهديد: كلّ شيء، حتّى الشكّ في أنّ سيّارات الشرطة كانت تقوم بدَوريّات في الشوارع المظلَّلة بين العِزب، كلّ شيء كان يبدو له بعيدًا، لا يمتُّ إليه بصِلة، بعيدًا عن حياته كمنظر البحر والحديقة المهجورة اللذَين يحُفّان بالمنزل، كالمنزل نفسه وحرارة الليلة الفائتة البعيدة، خالٍ من الرماد كنارٍ من الألماس. لم يعد يريد، كما في مرّات سابقة، سَجن الوقت كي لا ينتزع منه قُرب لوكريثيا، استنفاذ، حتّى الدقيقة الأخيرة، لا اللذَّة فحسْب بل الألم أيضًا، كما كان يتحاشى العلامات الموسيقيّة الأخيرة، وهو يعزف، خوفًا من أن يُلغي الصمت إلى الأبد في مخيّلته وفي يديه قوّة الموسيقى. ربّما ما أُعطي له تحت نور الفجر الثابت لم يكن يقبل امتدادًا ولا حفلة تذكاريّة ولا عودة: سيكون ملكه دائمًا إذا رفض أن ينظر إلى الوراء.

من غير أن يقولا شيئًا عرفت لوكريثيا ما كان يجول في خاطره وفهمت الحنان اللانهائيَّ لوَداعه الصامت. قبّلت شفتيه بخفّة، استدارت وذهبت نحو غرفة النوم. سمعها بيرالبو تضرب رقمًا في الهاتف. بينما كانت تسأل عن أحدٍ في البرتغاليّة أحضَر لها فنجان قهوة وسيجارة. بنوع من بصيرة مستقبليّة علِم أنّ السعادة كانت تكمن في تلك الحركات. مديرةً رأسها جانبًا كي تثبّت الهاتف على كتفها العارية، كانت لوكريثيا تقول كلمات سريعة سرعةً لم تكن تمكّنه من فهمها وكانت تدوّن شيئًا على دفتر فوق ركبتَيها. كانت تلبس فقط قميصًا واسعًا ذكوريًّا بعض الشيء، غير مزرَّر بالكامل.

كان شعرها رطبًا وبعضُ قطرات الماء لا تزال تبرق على فخذَيها. أقفلت الهاتف، وضعت الدفتر والقلم على منضدة السرير، شربت القهوة ببطءٍ، وهي تنظر إلى بيرالبو من وراء الدخان.

– ينتظرُكَ الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم، قالت. – لكنّ نظْرتها كانت بعيدة جدًّا عن كلماتها. – على هذا العنوان.

– اتّصلي الآن بالمطار. – وضع بيرالبو السيجارة بين شفتَيها. كان قد جلس بالقرب منها. – احجزي تذكرة على أوّل طائرة مقلعة من البرتغال.

طوَت لوكريثيا المخدَّة واستندت إليها، نافخة الدخان من بين شفتَيها المنفرجتَين قليلاً، خيوطًا بطيئة رماديّة وزُرقًا، متناوبة تناوب العتمة والنور. ثنت ركبتَيها وأسندت رجْلَيها المضمومتَين الحافيتَين إلى طرف السرير.

– هل أنت واثق أنّك لا تريد أن تأتي معي؟

كان بيرالبو يداعب كاحلَيها: لكنّها لم تكن مداعَبة أكثر ممّا كانت طريقة ناعمة للتعرّف عليها. أزاح القميص قليلاً، وهو لا يزال يستشعر في أصابعه رطوبةَ بشَرتها. عادا وتبادلا النظرات: بدا أنّ ما كانت تفعله أيديهما أو تقوله أصواتهما كان يحوط عبثًا حدّةَ حدقاتهما كدخان السجائر.

– فكّري في مورتون، لوكريثيا. مَن علينا أن نخشاه هو مورتون لا الشرطة.

– هذا هو السبب الوحيد؟ – انتزعَت منه السيجارة وجذبَته

نحوها، لامسة بأناملها شفتَيه وجرح جبينه.

– هناك سببٌ آخر.

– كنت أعرف ذلك. قل لي هذا السبب.

– بيلي سوان. في الثاني عشر عليّ أن أعزف معه.

– لكنّ الأمر سيكون في ذروة الخطورة. قد يتعرّف أحدهم عليك.

– لا، إذا استعملتُ اسمًا آخر. سأُحاول ألاّ تسلَّط الأنوار على وجهي.

– لا تعزف في ليشبونة. – كانت لوكريثيا قد دفعته برفقٍ ليَستلقي إلى جانبها واحتوَت وجهه بين يديها كي لا يتمكّن من النظر إليها. – سيتفهّم بيلي سوان ذلك. لن تكون هذه آخر حفلة له.

– ربّما... قد تكون، قال بيرالبو.

أغلق عينيه، قبّل ملتقى شفتَيها، ووجنتَيها، وبدايةَ شعرِها، في ظلمة مرغوبة أكثر من الموسيقى وألطف من النسيان.

الفصل التاسع عشر

– لم تعاود رؤيتها منذ ذلك الوقت؟ قلت له. ولا أقلّه بحثت عنها؟

– كيف كنت سأبحث عنها؟ – نظر إليّ بيرالبو، وكأنّه يتحدّاني تقريبًا كي أجيبه. – أين؟

– في ليشبونة، أعتقد، بعد أشهُر. المنزل كان ملكًا لها، أليس كذلك؟ قد تعود إليه.

– اتّصلتُ مرّة بالهاتف. لم يجاوبني أحد.

– كان بإمكانك أن تكتب لها. هل تعرف أنّك تعيش في مدريد؟

– أرسلت لها بطاقة بريديّة، بضعة أيّام بعد أن التقيتُكَ في الميتروبوليتانو، ولكنّها أُعيدت إليّ. «عنوانٌ غير كافٍ».

– من المؤكّد أنّها تبحث عنك.

– لا تبحثُ عنّي، بل عن سانتياغو بيرالبو. – بحث عن جواز سفره على منضدة السرير ومدّه نحوي مفتوحًا على صفحته الأولى.

– هي لا تبحث عن جياكومو دولفين.

شعرٌ قَطٌّ وقصير جدًّا، نظّارة قاتمة، ظلٌّ مبعثر على الوجنتَين لتركِهما عدّة أيّام بلا حلاقة، فصار الوجهُ الشاحب جدًّا يبدو متطاولًا، وجهٌ بات الآن ينتمي إلى رجلٍ آخر، هو نفسُه، الّذي تخفّى عدّة أيّام في مكان لم يكن في الحقيقة فندقًا، منتظِرًا أن تكْتشف

لحْيتُه ليُشبه رجل الصورة، لأنّ ذلك الإسباني، مارانيا، قبْل أن يلتقط له الصورة، كان قد سوّد ذقنه ووجنتَيه بقلم تبرّج وفُرشاة صغيرة مشبعة بالغبار الرماديّ، ماسًّا وجهَه بأصابعه الرطبة أمام المرآة، كممثّل فاشل، وكان قد رفع له شعره مبلِّلاً إيّاه بمثبِّت الشعر، وقال له بعدها، وهو راضٍ من عمله، غير غافلٍ عن إصلاح أدنى التفاصيل وهو يحضّر آلةً التصوير: «حتّى أمُّك ليس بإمكانها أن تتعرّف عليك، ولا لوكريثيا».

خلال ثلاثة أيّام، حبيسًا في تلك الغرفة ذات النافذة الوحيدة الّتي كان يرى منها قُبّة بيضاء وسطوحًا محمرّة وشجرة نخيل، بحالة انتظار دائمة كي يعود مارانيا مع جواز السفر المزوَّر، بدأ يتحوّل إلى رجُل آخر، ببطء تحوُّلٍ غير مرئيّ، بالبطءِ نفسه الّذي تنبت به لحْيتهُ وتُلوّث وجهه، مدخِّنًا قبالة لمبة السقف، قبالة القُبّة حيث كان النور أصفر ثمّ ابيضّ منتهيًا رماديًّا وأزرق، كان ينظر إلى نفسه في مرآة الحمّام حيث كانت تقطّر، بانتظام ساعةٍ، حنفيّةٌ كانت تحمل إليه حين يفتحها كليًّا رائحةَ المجاري. كان يمرّر يدَيه على وجنتَيه الخشنتَين كمن يبحث عن إشارات تحوُّل لم يكن مرئيًّا بعدُ ويعُدُّ الساعات وقَطرات الماء ويتمتم أغنيات مقلِّدًا صوت البوق وصوت الكونترباص في حين كانت تصله من الشارع أصواتُ الفتيات الصينيّات اللواتي كنّ يدعونَ الرجال ويضحكن كالعصافير، وروائحُ اللحوم المشويّة على الفحم واليخاني المبهَّرة. إحدى الصينيّات، صغيرة الحجم ومتبرّجة، مزوَّدة بمجامَلة طفوليّة فاحشة، كانت

توفّر له، بانتظام ممرّضة، القهوةَ وصحون الأرزّ مع السمك والنبيذ الأخضر والشاي والمشروب الكحولي والسجائر الأميركيّة المهرَّبة، لأنّ السيّد مارانيا كان قد أمرها بذلك قبل أن يذهب، حتّى إنّها استلقت مرّة إلى جانبه وبدأت تقبّله كالعصفور الّذي يستقي الماء، ضاحكة من بَعدها وخافضة عينيها عندما أعرب بيرالبو بنعومة عن رغبته في البقاء وحيدًا. عاد الإسباني، مارانيا، في اليوم الثالث، مع جواز السفر الملفوف بغلاف بلاستيكي كان رطبًا حين لمسَه بيرالبو، لأنّ العرق كان يتصبّب من يدَي مارانيا وعنقه وكان يرقى السلالم من الشارع وهو يلهث كالحوت، ببذْلته من الكتّان الاستعماريّ ونظّارة خضراء كانت تحجب عينَي أمهق، وضيافته المزعجة كضيافة المَرزُبان. طلب قهوة ومشروبًا كحوليًّا، أبْعد الفتيات الصينيّات براحة يده المبسوطة، لم ينزع نظّارته كي يتكلّم مع بيرالبو: رفع الزجاجتَين فقط قليلاً ونظّف عينيه بطرَف منديله.

– جياكومو دولفين، قال مقلِّبًا الجواز وكأنّه يريد أن ينتبه بيرالبو إلى طواعيَّته التامّة. – مولود في وهران، عام 1951، لأبٍ برازيليّ ولو مولودًا في إيرلندا، ولأمٍّ إيطاليّة. من اليوم فصاعدًا هذا الشخص هو أنت، يا صاحبي. هل رأيت الصحف؟ لم تعد تتحدّث عن ذلك اليانكي الّذي أردَيتَه ذلك اليوم. عملٌ نظيف، من المؤسف أن تكون قد تركت معطفك في القطار. لوكريثيا شرحت لي كلّ شيءٍ. دفعة واحدة إلى السكّة، أليس كذلك؟

– لا أذكر. في الحقيقة لا أعرف إذا كان قد وقع هو من تلقاء

ذاته.

– لا ليست مشكلة، يا رجل. نحن ابنا وطنٍ واحد أليس كذلك؟ – استوفى مارانيا جرعة من المشروب الكحولي والعرقُ غطّى وجهه. – أنا أعتبر نفسي قنصل الإسبان في ليشبونة. إمّا أن يذهبوا إلى السفارة، وإمّا أن يأتوا إليّ. أمّا بالنسبة إلى ذلك الخِلاسي من المارتينيك الّذي كان يبحث عنك، فلقد قلتُ للوكريثيا: لا تخافي. أنا سأهتمّ شخصيًّا بكَ حتّى ترحل من ليشبونة. سآخذك إلى المسرح حيث ستعزف، في سيّارتي الخاصّة. هل الخِلاسي مسلّح؟

– أجل، أعتقد ذلك.

– أنا أيضًا. – سحب مارانيا من خصره المنتفخ أطول مسدّس رآه بيرالبو في حياته كلّها، حتّى في الأفلام. – ثلاثمئة وسبعة وخمسين. ليقفْ ذلك الخلاسي أمامي.

– عادة يقف وراءك. مع خيط من النيلون.

– إذًا يجب ألاّ يدعني أستدير. – وقف مارانيا وأعاد المسدّس إلى مكانه. – عليّ أن أذهب، هل أوصِلك إلى مكان ما؟

– إلى المسرح إذا أمكنك. عليّ أن أتمرّن.

– أنا في تصرُّفك. من أجل لوكريثيا أستطيع أن أتحوّل إلى مزوِّر وحارسٍ خاصّ وسائق سيّارة أجرة. هكذا هي الأعمال: أخذٌ وعطاء. آهٍ، إذا كنت محتاجًا إلى المال فاطلبْه منّي. حظّك كبير، يا صاحبي. هذه هي الحال عندما تعيش على نفقة النساء...

كلّ مساء كان مارانيا يذهب ليأخذه، متكيِّسًا في سيّارته الغريبة

الشكل الّتي كانت تتسلّق الشوارع كالصُّرصور، إحدى سيّارات الموريس الّتي كانت منذ عشرين سنة رياضيّة بشكل صارخ ولطالما تساءل بيرالبو كيف كان بإمكان مارانيا أن يدخلها ويتحرّك فيها. بينما كان يقود وكأنّ السقف يسحقه، كان ينفِّخ تحت شاربه الشبيه بشارب حيوان بحريّ يغطّي فمَه وكان يحرّك المقود بحركات فجّة اعتباطيّة: كان أحيانًا لاجئًا سياسيًّا من الأزمنة القديمة وأحيانًا أُخرى فارًّا من اتّهام غير منصِف بالاختلاس. لم يتبقّ له حنين إلى إسبانيا، أرضِ نُكران الجميل والحسد تلك، الّتي كانت تحكم بالنفي على من كان يثور على الرداءة: ألم يكن هو أيضًا، بيرالبو، منفيًّا؟ ألم يُجبر على الرحيل إلى الخارج كي ينجح في الموسيقى؟ خلال التمارين، جالسًا على مقعد في الصفّ الأوّل كبوذا من شحم، كان مارانيا يتبسم وينام بهدوءٍ وحين كان يوقظه عزف الدرامْز أو حلول الصمت المفاجئ، كان يقوم بحركة سريعة باحثًا عن مسدّسه ومتفحِّصًا شبه عتمة المسرح الفارغ، الستائر الحمراء نصف المفتوحة. لم يجرؤ بيرالبو قطّ أن يسأله كم دفعَت له لوكريثيا وأيّ دَين كان يسدّده بحمايته له. «في المنفى، نحن الإسبان علينا أن نساعد بعضنا بعضًا»، كان مارانيا يقول.

لكن مساء الحفلة لم ينتظر بيرالبو سماع منبّه السيّارة ولا ضجيجها وهي تسير على بلاط الطريق وتتوقّف أمام باب المنزل، قبالة النافذة حيث كانت تتّكئ الفتيات الصينيّات. نهض من السرير كمريض دفعته جرأة ضرورية، شرب جرعة من الكحول، نظر إلى

نفسه في المرآة، بؤبؤاه المتّسعان كثيرًا ولحية الثمانية أيّام كانت تضفي عليه هيئة مَن يعيش حياة سيّئة وليالي لا نوم فيها، حفظ جواز السفر في جَيبه كمن يخبّئ قطعة سلاح، ووضع نظّارته القاتمة، ونزل سلّمًا ضيّقًا جدًّا كانت درجاته المغطّاة بمشمّع قذر تنتهي إلى الزقاق. إحدى الفتيات ودّعته من النافذة. سمع وراءه قهقهات سريعة قصيرة وحادّة ولم يُرد أن يستدير. من حانة قريبة كان يتصاعد دخان كثيف من روائح الدهن وصمغ الصنوبر والطعام الآسيويّ. وراء زجاج النظّارة كان يرى العالم في مثل كمدِ الغروب أو الخسوف. حين نزل متّجهًا إلى المدينة السفلى، شعر بنفس الخفّة غير الإراديّة تقريبًا الّتي كان يشعر بها عندما يفقد الخوف من الموسيقى، في منتصف حفلة، في تلك اللحظة الّتي كانت يداه فيها تكفّان عن التعرُّق وتطيعان غريزة سرعةٍ وكبرياء بعيدة جدًّا عن إدراكه، كدقّات قلبه. حين اجتاز زاوية أحد الشوارع رأى المدينة بكاملها والخليج، البواخر البعيدة ورافعات المرفأ، الجسر الأحمر على المياه وقد محاه ضبابٌ لَبنيٌّ. وحدها غريزة الموسيقى كانت تقوده وتَحول دون ضياعه، جاعلة إيّاه يتعرّف أماكن كان قد رآها وهو يبحث عن لوكريثيا، دافعة إيّاه إلى ممرّات رطبة وأزقّة محفوفة بالحيطان نحو ساحات ليشبونة الواسعة والأعمدة المتوَّجة بشخوص، نحو ذلك المسرح القذر قليلاً حيث سطعت الأنوار والظلال الغبِشة للأفلام الأولى المصنوعة في أواخر قرن آخر، والّتي في ليشبونة فقط كان ممكنًا اكتشاف آثارها: قال لي إنّ على واجهة مسرح الحفلة كانت لافتةٌ عليها رموز وحوريّات

وحروف متعرّجة كانت ترسم كلمة غربية، Animatógrafo، وأنّه قبل الوصول إلى تلك الشوارع المستقيمة والمتماثلة للمدينة السفلى بدأ يرى ملصقات حيث كان اسمه الجديد مطبوعًا تحت اسم بيلي سوان بحروفٍ حمرٍ كبيرة: جياكومو دولفين، بيانو.

على الهضاب رأى المنازلَ الصفر الّتي تعتليها، برودةَ نور كانون الأوّل، السلّمَ والبرج الحديديّ الضيّق والمصعد الّذي أنقذه موقّتًا، في ليلة بعيدة، من ملاحقة مالكولم، رأى بوّابات المخازن القائمة ونوافذ المكاتب المضاءة، والحشد المتمتم والجامد، المجتمع عند الغروب تحت الأزرق المضاء وكأنّه ينتظر شيئًا أو يشهده، ربّما تعذُّرَ رؤيةِ رجُلِ النظّارة القاتمة والحركات الخفيّة أو قدَرِه السرّي، الرجلِ الّذي لم يعد اسمه سانتياغو بيرالبو، والّذي وُلد من العدم في ليشبونة.

وصل إلى المسرح وكان ثمّة أشخاص ينتظرون حول شبّاك التذاكر، قال لي إنّ في ليشبونة دائمًا أُناسًا في كلّ مكان، حتّى في المراحيض العامّة وأمام أبواب دور السينما الإباحية، في الأماكن الأكثر قسوة والمحكوم عليها بالوحدة، في الزوايا القريبة من المحطّات، ودائمًا رجال متوحّدون، يرتدون ملابس غامقة، وغير حليقين، وكأنّهم خارجون توًّا من قطار ليليّ سريع، بيضٌ ذوو بشرة نحاسيّة ونظرة جانبيّة، سودٌ أو آسيويّون صامتون كانوا يتحمّلون بمنتهى الحزن والغربة المستقبلَ الّذي قذفهم إلى تلك المدينة، في الجهة الأُخرى من العالم. لكن هناك، عند أبواب دور السينما أو المسرح

المسمّى Animatógrafo، رأى الوجوه الشاحبة نفسها الّتي كان قد عرفها في شمال أوروبا، نفس حركات الصبر المثقّف والدّهاء، وفكّر أن لا هو ولا بيلي سوان كانا قد عزفا قطّ لأولئك الناس، أنّ ثمّة خطأً ما، لأنّه على الرغم من وجودهم هناك وشرائهم تذاكرَهم بكلّ وداعة، فالموسيقى الّتي كانوا سيسمعونها لم يكن في وسعها أن تؤثّر فيهم مطلقًا.

لكن هذا كان أمرًا لطالما عرفه بيلي سوان، وربّما لم يكن يهمّه، لأنّه حين كان يظهر على المسرح للعزف كان يبدو كأنّه وحده، تحميه وتعزله الكشّافات الكهربائيّة الّتي أغرقت الجمهور في الظلام وعيَّنت بطريقة قاطعة حدود خشبة المسرح. كان بيلي سوان في حُجرته، غير مبالٍ بأضواء المرآة ورطوبة الجدران الوسخة، سيجارة في فمه، البوق على ركبتَيه، قنّينة عصير في متناول يده، بعيد ووحيد، مطواع كأنّه في قاعة انتظار طبيب. بدا كأنّه لم يكن يتعرّف على بيرالبو ولا على أحد، حتّى على أوسكار الّذي كان يزوّده أقراصًا طبّيّة مريبة وأكوابًا من الماء، محاولاً ألاّ يخرق أحدٌ دائرة الوحدة والصمت الّتي كانت تحوطه.

– بيلي، قال بيرالبو، أنا هنا.

– أنا لا. – قرّب بيلي سوان السيجارة من شفتَيه بطريقة غريبة، ويده متصلّبة، كمن يتظاهر بالتدخين. كان صوته لا يُفهم، أبطأ وأكثر غموضًا ممّا كان عليه في أيّ وقت مضى. – ماذا ترى بهذه النظّارة؟

– تقريبًا لا شيء. – خلعها بيرالبو. ضوء المصباح العاري آلم عينَيه وأصبحت الحجرة أصغر. – ذلك الرجل أشار عليّ بأن أضعها دائمًا.

– أنا أرى كلّ شيء بالأبيض والأسود. – كان بيلي سوان يخاطب الحائط. – بالرمادي والرمادي. أعْتم وأفْتح. ليس كما في الأفلام. كما ترى الحشراتُ الأشياءَ. قرأتُ كتابًا حول هذا الموضوع. الحشرات لا ترى الألوان. حين كنت شابًّا، أجل، كنت أراها. حين كنت أدخّن الحشيش كنت أرى ضوءًا أخضر يحاوط الأشياء. الأمر كان مختلفًا مع الويسكي: أكثر اصفرارًا وأكثر احمرارًا، وأكثر زُرقة، كما عندما تشتعل هذه الكشّافات الضوئيّة.

– طلبتُ إليهم ألاّ يوجّهوها صوب وجهك، قال أوسكار.

– هل ستأتي هي هذه الليلة؟ – استدار بيلي سوان نحو بيرالبو ببطءٍ وتعب، مثلما كان يتكلّم: كلّ كلمة كان يتفوّه بها كانت تحوي قصّة.

– لقد رحلَت، قال بيرالبو.

– إلى أين؟ – شرب بيلي سوان جرعة من العصير وعليه هيئة الاشمئزاز والطاعة، الحنين تقريبًا.

– لا أعرف، قال بيرالبو. أنا أردتها أن ترحل.

– سوف تعود. – مدّ بيلي سوان يده فساعدَه بيرالبو على الوقوف. شعر بضآلة وزنه.

– التاسعة، قال أوسكار. حان وقت الظهور. – قريبًا جدًّا،

وراء خشبة المسرح، كانت تُسمع تمتمة الجمهور. كان ذلك يخيف بيرالبو كسماع هدير البحر في العتمة.

– أربعون سنة مضت وأنا أكسب حياتي بهذه الطريقة. – كان بيلي سوان يسير متأبّطًا ذراع بيرالبو، ضامًّا بوقه إلى صدره وكأنّه خائف أن يفقده. – لكن حتّى الآن لا أفهم لماذا يأتون لسماعنا، ولماذا نعزف من أجلهم.

– لا نعزف من أجلهم بيلي، قال أوسكار.

كانوا أربعة – بينهم أيضًا عازف الدرامْز الفرنسيُّ الأشقر، بابي – مجتمعين في آخر ممرّ الستائر، وأنوارُ المسرح بدأت تضيءُ وجوههم.

كان فم بيرالبو جافًّا ويداه تعرقان. عند الجهة الأُخرى من الستارة كانت تُسمع أصوات وصفّارات متفرّقة. «في ذلك النوع من المسارح يشبه الأمر الخروج إلى السيرك» قال لي ذات مرّة، «نشكر الآخَر إن خرج أوّلاً كي تأكله الأُسود». خرج أوّلاً بابي، عازف الدرامْز، خافضًا رأسه، مبتسمًا، يتحرّك بالخفّة السريعة لبعض الحيوانات الليليّة، ضاربًا بإيقاعٍ جوانب سرواله الدجِنْز. قوبل بتصفيق قصير؛ ظهر أوسكار وراءه، سمينًا ومتأرجحًا وعليه هيئة من الازدراء الهادئ. كانت أصداء الكونترباص والدرامْز قد بدأت تُسمع حين خرج بيرالبو. أعْمته كشّافات الأضواء، لمعات مستديرة من وراء زجاج نظّارته، لكنّه لم يكن يرى إلاّ بياض لوحة المفاتيح المخطَّط وطولها: وضْعُ يديه عليها كان كمن يتمسّك باللوحة

الوحيدة وهو يشرف على الغرق. بجُبنٍ وخرَقٍ بدأ أُغنية قديمة جدًّا، وهو ينظر إلى يدَيه المتوتّرتين البيضاوين اللتَين كانتا تتحرّكان وكأنّهما تهربان. ضاعفَ بابي صوت الطبول بعنفٍ جدران عالية تتهدّم وبعدها مسّ الصُّنوج بشكلٍ دائريٍّ واستعاد الصمت. رأى بيرالبو بيلي سوان يمرّ بجانبه ويتوقّف على حافّة خشبة المسرح رافعًا قدميه قليلًا فوق المنصّة وكأنّه يتقدّم متحسّسًا أو يخشى أن يوقظ أحدًا.

رفع البوق ووضع طرفه في فمه. أغمض عينَيه: كان وجهه أحمر ومتقلّصًا، لمّا يكن قد بدأ العزف بعد. بدا وكأنّه يتأهّب كي يتلقّى ضربة ما. مديرًا ظهره نحوهم أشار إليهم بيده كمن يداعب حيوانًا. خالجَ بيرالبو شعورٌ مقدّس بوشك حدوث شيء ما. نظر إلى أوسكار الّذي كان مغمض العينين ومنحنيًا إلى الأمام ويدُه اليسرى منبسطة على عنق الكونترباص منتظِرةً بنَهم، وعالمة. بدا له عندها أنّه سمع تمتمة صوت مستحيل، ورأى مجدَّدًا منظر الجبل البنفسجيّ المذهل والطريق والمنزل المختبئ بين الأشجار. قال لي إنّ بيلي سوان تلك الليلة لم يعزف حتّى لهم، شهودِه وشركائه: عزف لنفسه، للعتمة والصمت، للوجوه القاتمة الخالية من التقاطيع والّتي كانت تتحرّك، جامدةَ تقريبًا، عند الجهة الأُخرى من ستارة الأضواء، عيون ومسامع وقلوب إيقاعيّة لا تنتمي إلى أحد، جانبيّات مصطفّة لهاوية هادئة، كان بيلي سوان فقط، متسلّحًا ببوقه، أو ربّما ليس به إذ كان يستعمله وكأنّه غير موجود، يجرؤ على أن ينحني فوقها.

هو، بيرالبو، كان يريد أن يتبعه هاديًا الآخرين، أن يتقدّم نحوه وهو وحيد وبعيد جدًّا ومدير لهم ظهره، ويلفّه بتيّار دافئ وقويّ بدا بيلي سوان للحظةٍ أنّه يحترمه، كأنّما أوقفه التعب، ومن ثمّ يهرب منه كما يهرب من الكَذب أو الاستسلام، لأنّ ما كانوا يعزفونه ربّما كان كذبًا وجبنًا: كحيوان يعرف أنّ مُلاحقيه لن يتمكّنوا من الإمساك به، كان يغيّر بشكل مفاجئ اتّجاه هربه أو يتظاهر بأنّه متكبِّب وهادئ، شامًّا الهواء، مقيمًا بموسيقاه خطًّا غير مسموع كان يحيط به كجرسٍ من الزجاج، وقتًا خاصّته فقط في داخل الوقت الّذي نظّمه الآخرون.

عندما كان بيرالبو يرفع عينَيه عن البيانو كان يرى جانبيّة وجهه الحمراء والمتقلّصة ورموشه المشدودة كنَدْبةٍ مزدوجة. لم يعد بإمكانهم أن يتبعوه وكانوا يتبعثرون، كلّ واحد منهم مجتهد في ضياعه وهو يلاحقه، وحده أوسكار كان ينقر أوتار الكونترباص بعناد بعيدًا عن إيّ إيقاع، من دون الاستسلام لصمت بيلي سوان وبُعده. بعد بضع دقائق، توقّفت يدا أوسكار أيضًا عن الحراك. عندها أخرج بيلي سوان البوق من فمه وظنّ بيرالبو أنّ عدّة ساعات كانت قد انقضت وأنّ الحفلة كادت تنتهي، لكنّ أحدًا لم يصفّق، لم تُسمع أيّ ضجّة في العتمة الجامدة حيث لم تكن قد انطفأت بعد آخر علامة من علامات البوق الحادّة. قريبًا جدًّا من المذياع حتّى لَيُسمعُ تنفُّسه مثل دويٍّ ثقيل، بدأ بيلي سوان يغنّي. أنا أعرف كيف يغنّي، لقد سمعتُه من الأسطوانات، لكنّ بيرالبو قال إنّي لن أتمكّن أبدًا من التخيّل كيف رنّ صوتُه تلك الليلة: كان همسًا مجرَّدًا من الموسيقى، ترتيلاً بطيئًا، صلاة

غريبة من الخشونة والنعومة، متوحّشة وعميقة وهامدة، وكأنّه كان يجب لسَماعها وضعُ الأذن على الأرض. رفع بيرالبو يدَيه، ولامس لوحة المفاتيح كأنّه يبحث عن ثغرة في الصمت، بدأ يعزف، يقوده الصوت كالأعمى، يقبله، متخيِّلاً فجأة أنّ لوكريثيا كانت تستمع إليه من أعماق الظلمة وبإمكانها أن تحكم، لكن حتّى هذا الأمر لم يكن يهمّه، وحده التنويم المغناطيسيّ الخفيف لذلك الصوت الّذي كان يدلّه في النهاية على مصيره والتبرير الهادئ والوحيد لحياته، وشرحُ كلّ شيء، ما لن يفهمه أبدًا، عبثيّة الخوف والحقّ في الكرامة واليقينِ القاتم من شيء لم يكن العذاب ولا السعادة بل كان يحتويهما بشكل غير مقروءٍ، وحبُّه القديم أيضًا للوكريثيا ووحدته لثلاث سنوات، وشكْرهما المتبادل عند الفجر في بيت المنحدَرات. كان يرى كلّ شيءٍ تحت ضوءٍ بارد وممجَّد كضوءِ صباح شتاء بارد في أحد شوارع ليشبونة أو في سان سيباستيان. وكأنّما أفاق فجأة، انتبه إلى أنّه لم يعد يسمع صوت بيلي سوان: كان يعزف وحده، وأوسكار وعازف الدرامْز ينظران إليه. إزاء البيانو، قبالته، كان بيلي سوان يجلو زجاج نظّارته، راكلاً الأرض برجله محرِّكًا رأسه، وكأنّه يوافق على شيءٍ ما كان يسمعه من بعيد.

– هل عاود الشرب؟

– ولا قطرة. – نهض بيرالبو من السرير واتّجه إلى الشرفة لفتْحها: كانت الشمس تومض على سطوح المباني، في نوافذ تيليفونيكا الأكثر علوًّا. من ثَمّ استدار نحوي وأشار إلى زجاجة فارغة. – لأنه

لم يقلع عن الكحول وعن الموسيقى. هما قضتا عليه في ليشبونة. مثل هذه الزجاجة. لذلك لم يكن يهمّه أن يكون حيًّا أو ميتًا.

فتح الستائر بكاملها ورمى الزجاجة الفارغة في سلّة المهملات. بدا الأمر كأنّنا في ضوء الصباح لم يعد واحدنا يعرف الآخر. نظرتُ إليه مرتئيًا أن عليّ الرحيل ومن دون أن أعرف ما أقوله له. لكنّني لم أعرف بتاتًا كيف أقول وداعًا لأحَد.

الفصل العشرون

في الأيّام الّتي تلت، ذهبتُ في سفرة قصيرة إلى مدينة لا تبعد كثيرًا عن مدريد. عند عودتي فكّرت أنّه قد حان الوقت كي أكتب إلى فلورو بلوم الّذي لم أعرف عنه شيئًا منذ أن رحلت عن سان سيباستيان. كنت أجهل عنوانه: قرّرت أن أطلبه من بيرالبو، اتّصلت بفندقه فقالوا لي إنّه ليس موجودًا. لسبب لا أستطيع تذكُّره الآن، تأخّرت عدّة أيّام للبحث عنه في الميتروبوليتانو. العودة إلى أماكن كنت فيها منذ عشرة أعوام أو اثني عشر ليست أمرًا يؤثّر فيّ عادة، لكن إن ذهبتُ إلى حانة اعتدتُ أن أتردّد إليها، بعد مرور أسبوعين أو شهر فقط، أشعر بفجوة لا تُحتمل في الوقت الّذي ما انفكّ يمرّ على الأشياء في غيابي وأَخضَعها، من غير علمي، لتغيُّرات غير مرئيّة، كمن يترك بيته فترة لمستأجرين غير أوفياء.

لم يعد الآن على باب الميتروبوليتانو إعلان عن جياكومو دولفين تريو. كان الوقت لا يزال مبكّرًا: قال لي نادل لم أكن أعرفه إنّ مونيكا تبدأ مناوبتها عند الثامنة. لم أسأله عن بيرالبو وموسيقيّيه: تذكّرت أنّ ذلك كان النهارَ الأسبوعيّ الّذي لا يعزفون فيه. طلبت جعة وشربتها ببطءٍ على طاولة في أقصى الحانة. وصلت مونيكا قبل الثامنة ببضع دقائق. في البدء لم تربي: نظرت صَوبي حين قال لها النادل على البار شيئًا. كانت مشعَّثة الشعر وقد تبرّجت بسرعة. لكنّها كانت تبدو دائمًا وكأنّها تصل إلى الأماكن في اللحظة الأخيرة. من غير أن

تخلع معطفها جلست أمامي: من طريقتها في النظر إليّ عرفت أنّها ستسألني عن بيرالبو. بصوتها لم يبدُ لي غريبًا أن يُسمّى جياكومو.

– لقد اختفى منذ عشرة أيّام، قالت لي. – لم نكن قد تكلّمنا وحدنا من قبل. للمرّة الأولى لاحظتُ أنّ في عينيها طبقات من البنفسجي. – من غير أن يقول لي شيئًا. لكن بابي وأوسكار كانا يعرفان أنّه سيرحل. لقد رحلا هما أيضًا.

– ذهب وحده؟

– اعتقدتُ أنّك قد تكون على علم. – حدّقت فيّ وأصبح اللون في عينيها أكثر حدّة. لم تكن تثق بي.

– لم يكن يخبرني عن مشروعاته.

– بدا كأنّه لم يكن لديه أي مشروع. – ابتسمت لي مونيكا بطريقة جامدة، كمن يبتسم وهو ضائع. – لكنّني كنت أعلم أنّه سيرحل. هل صحيح أنّه كان مريضًا؟

قلت إنّ هذا صحيح: حبكتُ أكاذيب جزئيّة، تظاهرَت هي بتصديقها، اخترعْتُ تفاصيل خاطئة تقريبًا، ليست بيضًا بالكامل، ربّما بلا فائدة، كالّتي نقصّها على مريض لا تهمُّنا أوجاعه. بارتياب وازدراءٍ سألتني في النهاية إن كانت هناك امرأة أُخرى. قلت لها لا، محاولاً النظر في عينيها، أكّدتُ لها أنّي سأتابع البحث، أنّي سأعود، دوّنتُ رقم هاتف منزلي على منديل ورقيّ احتفظَت به في حقيبتها. عندما ودّعْتُها انتبهْتُ بلا حزن أنّها لم تكن تراني.

كانت قد بدأت تمطر عندما خرجتُ من الميتروبوليتانو. نظرتُ

إلى اللافتات المضاءة وأردت أن أتخيّل كيف يكون الليل في ليشبونة هذه اللحظة، فكّرت أنّ بيرالبو ربّما عاد إلى هناك. سرت نحو فندقه. على الرصيف المقابل، تحت نوافذ تيليفونيكا الكبيرة، كانت قد بدأت تتجمّع نساء جامدات، مع سجائر بينَ شفاههنّ وقبّات معاطفهنّ الجسيمة مرفوعة حتّى ذقونهنّ بسبب الريح القارصة الّتي عصفت على الأرصفة المعتمة. ميّزتُ فوق مظلّة المدخل بجانب اللافتة العموديّة الّتي كانت ما تزال مطفأة، نافذة غرفة بيرالبو: لم تكن مضاءة. عبرت الشارع وتوقّفت أمام مدخل الفندق. رجلان متشابهان في معطفَين أسوَدَين بنظّارتَي شمس وشوارب مماثلة كانا يتحدّثان مع موظّف الاستقبال. لم أقم بالخطوة الّتي كانت لتؤدّي إلى فتح أبواب البهو الأوتوماتيكيّة. نظر إليّ عامل الفندق: كان لا يزال يشرح شيئًا للرجُلَين بالمعطفَين الأسودَين، ونظْرته المحايدة تحوّلت عنّي، درس بلامبالاة الأبواب الزجاجيّة، ثمّ عاد إليهما. كان يُريهما السجلّ وحين يقلب كلّ صفحة كان ينظر شزرًا إلى شارة البوليس الّتي تركها أحد الرجال مفتوحة على طاولته. دخلت البهو متظاهرًا بأنّي أُراجع اللافتة الّتي تدوَّن عليها أسعار الغرف. من الخلف، كان الرجلان متماثلَين تمامًا: من بينهما عادت نظرة عامل الفندق تتركّز عليّ، لكن لا أحد سواي كان بإمكانه أن ينتبه. سمعت أحدهما يقول، وهو يُعيد الشارة إلى جيب سرواله الخلفيّة الّتي منها تدلّت سلسلةُ أصفادٍ برّاقةٌ: «أعلِمنا في حال ظهَر ذلك الرجل مجدَّدًا».

أغلق عامل الفندق صفحات السجلّ الكبيرة دفعة واحدة. قام

الرجُلان بالمعطفَين، في الوقت نفسه، بحركة مبالَغ فيها، بالسلام عليه يدًا بيد. بعدها خرجا إلى الشارع: أُدير محرّك السيّارة المتوقّفة بشكل منحرف على رصيف الفندق قبل أن يصعدا. كنت أدخّن متظاهرًا بأنّي أنتظر المصعد. ناداني عامل الفندق باسمي، مشيرًا إلى المدخل بحركة انشراح: «وأخيرًا قد رحلا»، قال، وأعطاني مفتاحًا لم يأخذه من خزانة الأدراج، 307. وكأنّه يعتذر عن حماقة لم يكن عليه أن يرتكبها قطّ، شرح لي أنّ توسين مورتون – «ذلك الرجل الملوَّن» – والمرأة الشقراء الّتي كانت بصحبته كانا قد فتّشا غرفة السيّد دولفين، وعندما اتّصل هو بالشرطة كان الأوان قد فات: كانا قد تمكّنا من الهرب عبْر مخرج الطوارئ.

– لو وصلا قبل عشر دقائق لكان بإمكانهما أن يجداه، قال. قد يكونون التقَوا في المصعد.

– لكن ألم يكن السيّد دولفين قد رحل؟

– لم يأت طوال الأسبوع. – كان عامل الفندق فخورًا بعض الشيءِ وهو يُظهر لي تواطؤه مع بيرالبو. – لكنّي حفظت له الغرفة، فلم يأخذ أمتعته. عاد بعد ظهر اليوم. كان على عجلة من أمره. قبل أن يصعد تمنّى عليّ أن أطلب له سيّارة أجرة.

– ألا تعرف أين كان ذاهبًا؟

– ليس بعيدًا. أخذ حقيبة يدٍ فقط. طلب إليّ أن أعطيك مفتاح غرفته في حال أتيتَ.

– هل قال لك شيئًا آخر؟

– أنت تعرف السيّد دولفين. – ابتسم عامل الفندق، منتصبًا قليلاً. – ليس رجلاً ثرثارًا.

صعدت إلى الغرفة: أن يعطيني عامل الفندق المفتاح لم يكن سوى تصرُّف مهذّب إذ إنّ القفل كان مكسورًا. كان السرير مبعثرًا وأدراج الخزانة مقلوبة على الأرض. عبقت في الجوّ رائحة حطب محروق، رائحة طفيفة ودقيقة جعلتني أعود بسرعة إلى ليلة سان سيباستيان حين رأيت دافني. على السجّادة، بين الثياب والأوراق، كان عقب سيجارة مسحوق قد احترق تاركًا من حوله دائرة قاتمة كالبقعة. وجدت صورة للوكريثيا بالأبيض والأسود، كتابًا بالإنكليزيّة يتكلّم عن بيلي سوان، مجموعة مدوَّنات موسيقيّة قديمة متآكّلة الأطراف، روايات ألغازٍ رخيصة، زجاجة بوربون غير ممسوسة.

فتحت الشرفة. صفع الرذاذ والبرد وجهي بقوّة. أغلقت الدرف والستائر وأشعلت سيجارة. على الرفّ في الحمّام وجدت كوبًا من البلاستيك بدا وسخًا من شدّة كمده. حاولت تناسي أنّه كان قذرًا كالأكواب الّتي تغطَّس فيها الأسنان الاصطناعيّة فملأته بالبوربون. مطيعًا تطيُّرًا قديمًا كنت أعاود ملأه قبل أن يفرغ. كنت أسمع الضجّة المخفَّفة للسيّارات والمصعد الّذي كان أحيانًا يتوقّف قريبًا، خطًى وأصوات في أروقة الفندق. شربت من غير عجلة، بلا قناعة، بلا هدف، بالطريقة الّتي ينظر بها المرء إلى شارع في مدينة مجهولة. جالسًا على السرير، كنت أُسند الكأس برُكبتيّ. لون البوربون الأحمر كان يلمع في الزجاجة على ضوءِ منضدة السرير. كنت قد

شربت نصف الزجاجة حين سمعت ضربات خافتة على الباب. لم أتحرّك: إذا دخل أحدهم فسيَراني من الخلف، ما كنت لأستدير. دقّ الباب ثانية: ثلاث ضربات، ككلمة سرٍّ مبهمة. مخدَّرًا بسبب البوربون وعدم الحراك نهضت وسرت لأفتح من غير أن أعي أنّي كنت أحمل الزجاجة بيدي. كانت الشيءَ الأوّل الّذي نظرَت إليه لوكريثيا عندما دخلت، لم تنظر إلى وجهي، الّذي ربّما لم تتعرّف عليه إلاّ بعد مرور بعض الوقت عندما ذكرَت اسمي.

خفّفَت الكحول من مفاجأة رؤيتها. لم تكن كما عرفتها، ولا حتّى كما تخيّلتها من كلمات بيرالبو. بدت عليها هيئة الوحدة الشرهة والطوارئ كمن نزل توًّا من القطار. كانت ترتدي معطف مطر أبيض مفتوحًا وكتفاها مبلولتان وقد جلبت معها برد الشارع ورطوبته. نظرَت، قبل أن تدخل الغرفة الخالية، إلى الفوضى، إلى الزجاجة الّتي كنت أمسكها بيدي. طلبتُ إليها أن تدخل. برغبة سخيفة في الضيافة رفعتُ الزجاجة قليلاً وعرضت عليها كأسًا. لكن لم يكن هناك مكان للجلوس. واقفة في وسط الغرفة، قُبالتي، ويداها ما زالتا في جيبَي معطفها، سألتني عن بيرالبو. وكأنّي أعتذر إلى نفسي لعدم وجوده، أجبتها بأنّه رحل وأنّي كنت هناك لأُلملم أغراضه. أومأتُ إيجابًا، وهي تنظر إلى الأدراج المفتوحة، ونور منضدة السرير الغبش. بهذا النور وبحرارة البوربون الفارغة، كان لوجه لوكريثيا تلك الصفة من الكمال والبعد الخاصّ بالنساء الظاهرات في إعلانات مجلاّت الترف. كانت تبدو أطول وأكثر

وحدة من نساء الواقع ولم تكن تنظر مثلهنّ.

– أنتِ أيضًا عليك الرحيل، قلت لها. توسين مورتون كان هنا.

– ألا تعرف أين ذهب سانتياغو؟

بدا لي أنّ هذا الاسم لا يلمّح إلى بيرالبو: لم أسمع أحدًا بتاتًا – حتّى فلورو بلوم – يناديه بهذا الاسم.

– لقد رحل أيضًا رفاقه العازفون، قلت. شعرتُ أنّ كلمة واحدة كانت تكفي لتستبقي لوكريثيا لحظة ولكنّي كنت أجهلها: كان كتحريك الشفتين بصمتٍ أمامها. من غير أن تضيف شيئًا استدارت فسمعت صوت احتكاك معطفها بالهواء، ومن ثمّ صوت المصعد البطيء.

أغلقتُ الباب وعدت لملء كأس البوربون. خلف زجاج الشرفة رأيتها تظهر على الرصيف، من خلف، منحنية قليلاً، وهواء كانون الأوّل البارد يبسط معطفها الأبيض، الّذي كان يبرق تحت المطر وأضواء الفندق الزُّرق. عرفتُ مشيتها وهي تعبر الشارع، وقد تحوّلت إلى بقعة بيضاء بعيدة بين الحشود، ضائعة بينهم، غير مرئيّة، وفجأة ممحوّة وراء المظلاّت المفتوحة والسيّارات، وكأنّها لم تكن بتاتًا.

الشتاء في ليشبونة

في سان سيباستيان سمعَت لوكريثيا سانتياغو بيرالبو يعزف على البيانو، ولم يعد شيء موجودًا إلاّ موسيقاه. حلمت بليشبونة وذهبت مرغمة إلى برلين. ثلاث سنوات انتظرها بيرالبو، وهو يعيش لتلقّي الرسائل وإرسالها، قبل أن تعود من جنيف فيضيّعها مجدّدًا في الطريق إلى ليشبونة.

قصّة حبّ لا تنتهي عند آخر فرصة ضائعة في مدريد، قصّة امرأة تبحث عن ذاتها في لوحة مسروقة لسيزان، قصّة واقع فكّكه الشغف على إيقاع موسيقى الجاز، في شبه عتمة الأيّام الماطرة والأندية الليلية، إنّها قصّة هروب مستمرّ، ولكن «ما جدوى الهروب من المدن إن كانت ستلاحقك إلى آخر العالم؟»

ليست المدن بل القصّة هي التي ستلاحق القارئ، إلى حدّ تكذيب اعتقاد الراوي بأنّه غير موجود لأن لا أحد يفكّر فيه: فبيرالبو يغيب عنه بعد بوح متقطّع، ولوكريثيا لا توجّه نظرها إليه بتاتًا، ولكنّه سيظلّ في حيّز الوجود لأنّ روايته هذه سوف تلازم تفكير قارئها حتّى بعد أن يضع الكتاب جانبًا.

نال أنطونيو مونيوز مولينا الجائزة الوطنية للأدب وجائزة النقّاد في إسبانيا عن روايته «الشتاء في ليشبونة» عند صدورها عام 1987.

أنطونيو مونيوز مولينا


© Jesús de Miguel

كاتب إسباني من مواليد أوبيدا (خايين) عام 1956. حائز على إجازة في تاريخ الفنّ من جامعة غرناطة. صدرت أولى رواياته عام 1986، وبدأت شهرته العالمية مع روايته الثانية «الشتاء في ليشبونة» التي تُرجمت إلى عدّة لغات. انتُخب عام 1995 عضوًا في الأكاديمية الملكية الإسبانية. صدر له أكثر من 30 كتابًا، منها 20 رواية. يعيش متنقّلًا بين مدريد ونيويورك، وهو متأهّل من الكاتبة إلفيرا ليندو.

ISBN 978-9953-26-173-7

9 789953 261737

hachette
أنطوان A.